موجز تاريخ

أسرة الطيار وقبائل ولد علي

من عام ١٠٠هـ إلى عام ١٤١٧هـ

تأليف
عبدالله بن دهيمش العبار العنزي

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

موجز تاريخ

أسرة الطيّار وقبائل ولد علي

من عام ١هـ إلى عام ١٤١٧هـ
(مع بعض أخبار قبائل عنزة)

(سلسلة من مشاهير عنزة)

تأليف
عبدالله بن دهيمش العبّار العنزي

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

يسعدني أن قمت بتصوير كتاب المؤرخ عبد الله بن دهيمش العبار وتحويله إلى
ملف PDF لكل عنزة ولمكتبة علوم النسب
خالد الجعفري . الجوف

ⓒ عبدالله دهيش عبار العنزي، ١٤١٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العنزي، عبدالله بن دهيش عبار
موجز تاريخ أسرة الطيار وقبائل ولد علي . - الرياض .
٢٥٦ ص ؛ ١٧ × ٢٤سم
ردمك : ٠ - ٦٠٨ - ٣٤ - ٩٩٦٠
١ - القبائل العربية - السعودية
٢ - الانساب والاعراق - السعودية
أ - العنوان
ديوي ٩٢٩,٢ ١٨/٣٥٤٠

رقم الإيداع : ١٨/٣٥٤٠
ردمك : ٠ - ٦٠٨ - ٣٤ - ٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

اهـــداء

إلى أحفاد أولئك الرجال الغر الميامين...
وإلى أبناء القبيلة كافة أهدي هذا الجهد المتواضع.

المؤلف

قال رسول الله ﷺ: «اللهم إن جعفراً قد قَدِم إلي أحسن الثواب فاخلفه في ذريته بأحسن ما خَلفَتَ به أحداً من عبادك في ذريته.. إن المرءَ كثيرٌ بأخيه وابن عمّه. إن جعفراً قد استشهد، وقد جعل الله له جناحين يطير بهما في الجنة».[١]

(١) الإمام أحمد بن حنبل (فضائل الصحابة) (١٦٩٠)، الهندي (كنز العمال) (٣٧١٦٣)، (الطبقات الكبرى) لابن سعد جـ ٤ ص ٣٩، المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (امتاع الاسماع) تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف ١٩٤١ ص ٣٥١.

كلمة المؤلّف

منذ أن جمعت مادة كتابي «أصدق الدلائل في أنساب بني وائل» وضمّنته ما جمعته من تفصيلات أنساب قبائل عنزة، كانت تراودني فكرة وضع كتاب منفرد يتناول تاريخ الأسر العريقة في هذه القبيلة.

ولكن ظروفي الخاصة، وما يتطلبه التصدي لمثل هذا الجهد من وقت وإمكانات، وقفت كلها مجتمعة لتكون حائلاً دون ذلك، فاكتفيت بإلقاء بعض الضوء واللمحات اليسيرة على مكانة هذه الأسر ومنزلتها من القبيلة.

وقد طرحت هذه الفكرة على الكثير من مشائخ قبيلة عنزة، فوجدت أن هناك صعوبة في جمع المعلومات خصوصاً مع كثرة مشاغل الحياة والشكوى من ضيق الوقت والالتزامات الحياتية. فما كان مني إلاّ وأن قررت أن أتصدّى لذلك بجمع ما أستطيع جمعه عن هذه القبيلة مهما كلّفني الثمن، حيث نقّحت وصححت تفرعات وأقسام أنساب هذه القبيلة بالتعاون مع رجال مخلصين من رجال القبيلة.

وحين قررت أن أبدأ الخطوة الأولى من كتابة ما يتوفر عن بعض المشائخ والمشاهير من قبيلة عنزة، أخترت وفضّلت أن أكتب عن أقدم شيوخ هذه القبيلة ألا وهي أسرة «**الطيّار**» الملقب «**أبو عنزة**».

وعلى هذا الأساس كان لابد من أخذ رأي رجال هذه الأسرة، خصوصاً وأن الموضوع يتعلق بتاريخ قديم ومتشعب وممتد منذ القرون الهجرية الأولى «حسب ما لدينا من مصادر». لذلك فقد طلبت من الشيخ سلطان بن محمد بن سلطان الطيار، أكبر أنجال الشيخ محمد الطيار، أن يزودني بما ينقصني من معلومات ووثائق ومصادر علمية، فوجدت لديه استعداداً

طيباً وتجاوباً يشكر عليه.

وإني أهيب بكل أسرة كريمة لأن ينبري أحد أفرادها لجمع ما يخصها من معلوماتٍ تاريخية، فقد لمست أن هناك من يرى أنه لا داعي لذلك، بحجة الحرج من كونه يجمع تاريخاً يخص أسرته، وينتظر أن ينبري غيره لهذا الجهد ليكون بعيداً عمّا يسمّى مدح الذات، ولكن هذا ليس عذراً، لكون الموضوع يتعلق بتاريخ قديم نكاد نفقده يوماً بعد يوم لاندثاره في صدور حافظيه والذين قد نراهم اليوم.. ولكن هل سنراهم غداً؟ ثم إنه لابد من إثراء المكتبة العربية بكل معلومة تتعلق بتاريخنا نحن عربَ الجزيرة العربية ومهد الرسالة المحمدية الخالدة مهما بلغت ضآلة تلك المعلومة في مقاييسنا الحالية، فإن كنا نملك اليوم المعلومة، فليس من حقنا أن نحرم أجيالنا القادمة منها، فما قد نراه عديم الأهمية اليوم، قد يكون على جانب كبير من الأهمية لهم، وليس علينا إلاّ إيصال هذا الإرث لمستحقيه من أجيالنا. وكذلك لمن قد يتصدى للدراسات العلمية التاريخية والاجتماعية من المختصين.

أما عن هذا الموجز لتاريخ أعرق وأقدم أسرة في زعامة قبيلة عنزة «**أسرة الطيار**»، فإننا قد تناولنا هذا الموجز من خلال ربطه بتاريخ قبيلة عنزة منذ أكثر من ألف سنة، في الحجاز أولاً «في القرون الهجرية الأولى»، ثم في نجد في مرحلةٍ لاحقة «في القرون الهجرية الوسيطة»، ثم في مراحله الأخيرة «القرون الهجرية المتأخرة»، وكذلك تناولنا فيه موجزاً لأخبار قبائل ولد علي وهي القبائل التي ارتبط تاريخها «ولازال» بهذه الأسرة، وسيجد القارئ وجاهة هذا الربط لهذه الجوانب الثلاثة عند تتبعه سطور هذا الكتاب، هذه الطبعة ما هي إلاّ بداية لطبعات ستتلو لاحقاً بحول الله بعد توفر المعلومات الكافية.

ونحن نعترف أننا لم نفِ هذه الأسرة حقها من البحث، ولكن نأمل، بعد توزيع هذه الطبعة، أن نحصل على معلوماتٍ أدقّ وأوفى وأكثر تفصيلاً وهذه ليست إلاّ بداية على الطريق الصحيح. وسنضاعف الجهد لالتقاط ما تبقّى في صدور كبار السن من قصص تخص هذه الأسرة، وكذلك ما تناولته المراجع التاريخية، لتلحق في طبعاتٍ لاحقه.

وأرجو من القارئ الكريم ملاحظة أننا في تناولنا لهذه الأسرة، في طيات هذا الكتاب، قد تناولنا أسرة الطيار في قبيلة عنزة دون الخوض فيما قد نجهله عن أسر كريمة أخرى تحمل هذا الاسم.

وهذا ليس قصوراً أو انتقاصاً من شأن أحد، بقدر ما هو قصورٌ في معلوماتنا نحن، فتلك الأسر بلاشك أسر كريمة، أنشأت رجالاً كراماً، وخرّجت من بين صفوفها علماء أفذاذاً، فيهم من النجابة والإباء ما نعجز عن حصره وذكره، فآثرنا عدم الخوض في ذلك لئلا نقصر في تناولنا للجميع، ولنفسح المجال لمن يتصدّى لهذا الجهد ممن هم أكثر إلماماً منا بذلك. وبذلك يكون كتابنا مقصوراً على من ارتبط تاريخهم بتاريخ قبائل عنزة منذ ما يزيد عن ألف سنة من أبناء هذه الأسرة.

والله من وراء القصد..

المؤلف

مقـــدمة

الماء .. النجاة

مدخل لابد منه:

لاشك أن المياه هي عماد الحياة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾. ولسنا هنا بصدد تقرير حقيقة إنسانية، ولكن كان من المفيد الانطلاق من هذه المسلمة لارتباطها الوثيق بهذا البحث الذي يتناول جانباً من مجتمع البادية العربية.

وعندما نشير للبادية العربية، فإنما نشير للعرب، لكون أبناء البادية أنثروبولوجياً هم أصل العرب. فما حواضر الجزيرة العربية في العصر الجاهلي إلاّ قبائل عربية سكنت الحاضرة واستقرت بها، وليس أدل على ذلك من قبيلة قريش والذي قال فيهم رسول الله ﷺ: : «**إن الله اصطفى كِنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم**»[(١)]، وقال: «**إنَّ الله خَلقَ الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فرقاً فجعلني في خير فرقة، وجعلهم قبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خير بيت، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نسباً**». [(٢)]

وحين أمر الله سبحانه وتعالى سيدنا إبراهيم عليه السلام بالرحيل إلى داخل شبه جزيرة العرب، كان الأمر الإلٰهي له بالنزول فى أحد أودية الحجاز، وتضمن ذلك تركه لابنه إسماعيل عليه السلام، وأمه هاجر

---

(١) سنن الترمذي (٣٦٠٥).

(٢) الإمام أحمد بن حنبل «الفتح الرباني» (٥٧١)، كما رواه الترمذي في الجامع الصحيح (٣٦٠٧).

وارتحاله عنهم: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ . .﴾ الآية.

وسال الماء زمزماً بين يدي الطفل وأمه. ثم تلا ذلك نزول قبائل جرهم على إسماعيل وأمّه، فكانت مكة بلداً حراماً آمناً تحج له قبائل العرب وتعارفت العرب على حرمته، فكان ذلك أول مظهر من مظاهر الطاعة والانقياد من القبائل العربية، والتي تدل على ما جبل الله عليه هذا العنصر البشري وأودعه فيهم، مما أشار إليه ابن خلدون في مقدمته من أن العرب أهل طاعة.[١]

وما إيرادنا لهذه القصة إلاّ لنشير «لا لندلل» إلى الماء وما يمثله لهذه القبائل في ظروف بيئية ومناخية قاسية وصعبة.

إنها جزيرة العرب على قلة واحاتها، وندرة مياهها. . وانعدام أنهارها وقسوة الحياة فيها. والتي تتطلب للتعايش معها قدرة وصبر أودعها الله رحمة منه في أبنائها ممن تعايشوا معها وألفوها.

إذاً كان الماء هو الهم الأول. .

نعم كان هماً واسعاً باتساع صحاري العرب وقفارهم. . منه تبدأ الحياة ومن أجله تنتهي في معارك شرسة لانتزاع جرعة منه.

فنشبت بينهم الصراعات التي تطلبت قيام الأحلاف، ونشأت البطون والقبائل لتأمين ما يعجز الناس فرادى عن تامينه، وفرض السيطرة بالقوة على مناطق مسيل الأمطار وتجمعها، والتي كانت هي المصدر الأساسي للمياه. وكانت القبائل تفرض سيطرتها كلٌ بحسب قوتها، فكانت المناطق الأغزر مطراً ومياهاً للأقوى، فالأقل غزارة للأقل قوة وهكذا، إلى أن نجد تلك القبائل الضعيفة التي دخلت في أحلاف مع القبائل الأقوى.

---

(١) مقدمة ابن خلدون، تحقيق درويش الجويدي. بيروت: المكتبة العصرية ص ١١٦.

وشهدت جزيرة العرب صدامات دامية ومعارك وأياماً عنيفة من أجل الماء، بل من أجل البقاء.

ويمدنا التاريخ العربي الجاهلي بكثير من نماذج الصراع وقصص الاقتتال من أجل البقاء. وليس صحيحاً أن العرب قبل الإسلام كانوا ذوي نزعة عدوانية، يقتلون من أجل القتل ولا شيء غيره، ولا يرعون لله إلاً ولا ذمة. لقد كانوا أصحاب مكارم قال عنها الرسول ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»، وما تحدي العرب للفرس في يوم «ذي قار» إلاّ في سبيل مكارم الأخلاق.

هكذا كان الماء هو المحور في تشكيل نمط الحياة وتوجيهها في جزيرة قبلائل العرب، ولو عبرنا بالسنين ألفاً وأربعمائة سنة ونيف، إلى عصرنا الحاضر وألقينا نظرة منصفة وصادقة وموضوعية على ما يحيط بجزيرة العرب «بعد أن أذن الله وتكوّنَ شكلٌ حديثٌ للتجمع الإنساني هو الدولة الحديثة»، فإننا سنجد صراعات مماثلة موضوعاً، ومختلفة شكلاً وامتداداً، فلا يزال الماء هو الماء.. إنه الحياة. فقد طورت البشرية كثيراً من أدواتها وطورت كثيراً من سلوكها، وادعّت بحضارتها ورقيها، ووضعت القوانين الداخلية والدولية، حتى أنها خصصت مبادئ قانونية «غير ملزمة إلاّ في حدود المعاهدات الثنائية» لحقوق المياه من المنبع إلى المصبّ.

نعم.. كل هذا ولايزال تقاسم المياه هو أساس الصراع من أجل البقاء، وما مشاكل تركيا وجاراتها الجنوبية، وبلاد النيل من منبعه إلى مصبه إلاّ مثال كافٍ لذلك.. إنه حق الشعوب في تقاسم المياه من أجل إرواء ظمئها وإحياء حرثها وإنبات زرعها وإدرار ضرعها.

أو لم يكن ذلك حقاً لقبائل العرب حيث لا نيل ولا دجلة ولا فرات، أو ليس حرب المدفع والطائرة والصاروخ أقسى وأبشع من حرب السيف

والرمح. ومع ذلك لا ندّعي بهتاناً أن حال العرب في صراعهم واقتتالهم كان نموذجاً لحياة لابد منها.

لقد انحرفت قبائل العرب بما فيها قريش عن فطرتها وحنيفيتها التي احترمتها وأجلّتها. وكان ذلك من خلال اتّصال العرب بالشعوب الأخرى فاستوردت أوثانها وعبدت الأصنام فكان لكلٍ منها صنم يُعبد ولكل وثن قربانٌ يتقرب به، فدخلت الأصنام البيت الحرام وعبدت فيه.

وعلى الرغم من ذلك رعى الله بيته وهيّأ الأجواء للنبوة وللنور الذي سيعم الكون بأسره.

وحيث ضنت جزيرة العرب على أهلها من القبائل العربية بما في جوفها من المياه.. فإن فيها ولد الهدى.. وكان لمحمد الصبي اليتيم ﷺ موعداً مع البادية، فقد كانت قريش وغيرها تحرص على أن يرضع وينشأ الطفل في الأعراب ليكون أفصح لساناً، وأجلد جسماً[1]. وقد كان ﷺ يعتز باسترضاعه في بني سعد، قال ابن إسحاق بأنه ﷺ كان يقول: «**أنا أعربكم، أنا قريشيٌ، واسترُضعت في بني سعد بن بكر**»[2]. وهكذا اختار الله سبحانه وتعالى البادية، بنقائها وصفاء أهلها، لتكون المنبت الأول لرسول الله ﷺ.

وقد يكون من المفيد في هذا السياق إلقاء نظرة سريعة على حقبة هامة ومهمة من تاريخ الدولة الإسلامية في تلك الفترة، لنتلمس عن قرب ما كان يدور في ذلك العهد، ثم نرى موقع القبائل العربية البدوية في تلك الأثناء وكيف كان حالها بعد ذلك كخلفية تاريخية، لارتباط ذلك ارتباطاً وثيقاً بأسرة الطيار وبقبيلة عنزة كأكبر القبائل العربية قاطبة.

---

(١) وقد قال الرسول ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه حين سأله ما رأيت أفصح منك يا رسول الله.. ؟! فقال: وما يمنعني وأنا من قريش وأرضعت في بني سعد.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، صفحة ١٦٧، أورده صاحب كنز العمال (٣١٨٨٢) عن يحيى بن يزيد السعدي مرسلاً وقال: «أنا أعربكم أنا من قريش ولساني لسان بن سعد بن بكر».

لقد كان العرب هم مادة الإسلام وهم حملته، فبعد أن وحد الإسلام بين قبائلهم، وقضى إلى حد كبير على عصبيتهم، انطلق العرب كداعاة وفاتحين يحملون مبادئ الدين الإسلامي القائمة على الحق ناشرين لغة القرآن الكريم في الأمصار.

لقد كان استشهاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه عام ٤٠هـ (٦٦٠م) وقبله عثمان بن عفان رضي الله عنه عام ٣٥هـ (٦٥٦م)[١]، وما تلاه من أحداث مهماً جداً في تاريخ الأمة الإسلامية قاطبة «ودون الدخول في تفاصيل ليس هذا محلها»، لقد تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة سنة ٤١هـ (٦٦١م) عام الجماعة، وقامت الدولة الأموية (دامت ٩١ عاماً) وشهدت الدولة فترة استقرار وهدوء في حياته، مما مكّنه من القيام بكثير من الإصلاحات الإدارية وتنظيم شؤون الدولة، وعقب وفاته عادت القلاقل والفتن للظهور من جديد. إلى أن تولى الخلافة عبدالملك بن مروان عام ٦٥هـ (٦٨٥م)، والذي أخذ يجهز الجيوش لاستعادة الأقاليم الخارجة عن سلطان بني أمية حيث أخضع العراق، ثم انطلق جيشه بقيادة الحجاج بن يوسف إلى الحجاز، وهناك حاصر مكة حيث كان لعبدالله بن الزبير وأنصاره مواقف بطولية قل مثيلها، وأدى ذلك الحصار إلى مقتل عبدالله بن الزبير. الأمر الذي أدى إلى إستتباب الأمر لبني أمية عام ٧٣هـ (٦٩٢م). لقد اهتم بنو أمية بالقبائل العربية، ويتجلى ذلك في أنهم كانوا يحرصون على تربية أبنائهم صغاراً من خلال إرسالهم إلى البادية، ويذكر عن عبدالملك بن مروان أنه كان يقول عن ابنه الوليد «حُبُّنا للوليد أضره فلم نرسله للبادية» لأن الوليد كان لحّاناً وكان سليمان فصيحاً.[٢]

---

(١) خالد محمد خالد، خلفاء الرسول، القاهرة: الطبعة الثامنة صفحة ٥٣٦.

(٢) فالوليد أقام مع أمه وسليمان وباقي أخوته سكنوا البادية فتعربوا ثم أُدبوا فتأدبوا، انظر: ابن هشام صفحة ١٦٣.

فقد كان الخلفاء من بني أمية تتفتح عيونهم وتتقد مداركهم في قبائل البادية، فترسخ في ضمائرهم حبهم. فاعتمدت دولتهم على العنصر العربي وقامت عليه، ووجد هؤلاء لدى بني أمية الرعاية والرفادة والتقديم، فكان منهم الوزراء والعلماء ورجال البلاط وعلية القوم وكان منهم القادة العسكريون كسفيان بن عوف، وعقبة بن نافع الفهري، وحسان بن النعمان، والمهلب بن أبي صفرة، وقتيبة بن مسلم الباهلي، ومحمد بن القاسم الثقفي وغيرهم، فاستغنوا عن بداوتهم القاسية وأبدلوهم بخيرٍ منها، ولكن ذلك كان إلى حين.

فقد دبّ الضعف في أركان الدولة الأموية نتيجة لعوامل عديدة، منها تولية العهد لأكثر من شخص، الأمر الذي أدى إلى إثارة الخلافات بين أفراد البيت الأموي. ومنها ظهور الشعوبية بين الموالي نقمة على القبائل العربية حيث اندفعوا إلى تأييد الحركات المناوئة للدولة الأموية، ثم أن ظهور العباسيين وانطلاق دعوتهم وجيوشهم من بلاد خراسان بقيادة أبي مسلم الخراساني سنة ١٢٩هـ (٧٤٨م)، أدى إلى سقوط الدولة الأموية وقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية سنة ١٣٢هـ (٧٥٠م).

لقد قامت الدولة العباسية بالكثير من الإنجازات في بداياتها الأولى (استمرت ٥٢٤ عاماً من ١٣٢ إلى ٦٥٦هـ/ ٧٥٠-١٢٥٨م)، وبلغت الدولة الإسلامية شأناً عظيماً، إلا أن الإهتمام بالعرب لم يكن كمثيله في الدولة الأموية، فمثلاً نجد أن خالد بن برمك «وهو فارسي» قد تولى ديوان الخراج والجند في عهد أبي العباس السفّاح أول خليفة عباسي، كما أن أبناءه وأحفاده قد تقلدوا أهم المناصب في الدولة إلى أن بلغ البرامكة من الشأن الحد الذي هددوا فيه مركز الخليفة ذاته.

كما نجد أن المأمون قد نقل عاصمة الخلافة إلى (مرو) في فارس في بداية

عهده، وجعل الفضل بن سهل ذا الميول الشديدة للفرس وزيراً له. وتم تعيين الحسن بن سهل والياً على العراق.

ولا يغيب عنّا الإشارة إلى الصراع الذي دار بين الأمين والمأمون عقب وفاة والدهما هارون الرشيد. وانتهى ذلك الصراع «وهو في الحقيقة صراع بين الفرس والعرب» بمقتل الأمين وانتصار المأمون حيث أصبح النفوذ في الدولة للوزراء الفرس «حيث أن أم المأمون فارسية».

ثم أن المعتصم بالله محمد بن هارون الرشيد الذي خلف أخاه المأمون عام ٢١٨هـ (٨٣٣م)، والذي اشتهر بالشجاعة والإقدام والميول العسكرية، شكل جيشاً قوياً من الترك «وهم اخواله» حيث تزايد نفوذهم وقوتهم واستحواذهم على شؤون الدولة، الأمر الذي أدى كذلك إلى تهديد مركز الخلافة ذاته، وكان من نتيجة ذلك قيام المعتصم بقتل القائد العسكري التركي الإفشين، ولكن ذلك لم يكن كافياً للقضاء على نفوذ الترك، فقد كان لهم دور عسكري كبير في مواجهة الدولة البيزنطية.

إلا أنهم لعبوا بعد ذلك دوراً كبيراً آخر تمثل في قتلهم المتوكل لحساب ابنه المنتصر عام ٢٤٧هـ. ثم ظهر نفوذ بني بويه عام ٣٣٤هـ، وهم من بلاد فارس، للقضاء على نفوذ الترك، تلا ذلك نفوذ السلاجقة الأتراك بدءاً من عام ٤٤٧هـ إلى ٦٥٦هـ، والذين استعان بهم الخلفاء للقضاء على البويهيين ثم انتهى الأمر على يد التتار بقيادة هولاكو عام ٦٥٦هـ إثر استيلائه على بغداد وقتله المستعصم آخر خلفاء بني العباس. ثم تمزقت الدولة الإسلامية وظهرت بقوة بعض القوى التي كانت قد استقلت سياسياً عن بني العباس إبان ضعفهم كالأدارسة في بلاد المغرب، والدولة الطولونية في مصر، ثم الأخشيدية في مصر، فالفاطمية في تونس ثم في مصر، فالأيوبية في مصر والشام، فالمماليك في مصر والشام أما في آسيا فكان البويهيون في

بلاد فارس، والسلاجقة في تركيا، والحمدانيون في سوريا وشمال العراق. إلى أن انتهى الأمر في يد بني عثمان.

وبعد إلقاء هذه النظرة السريعة، والاختزال الشديد للمراحل التي مرت بها الدولة الإسلامية. نعود لما بدأنا به لنجد أن القبائل العربية قد حرمت من دورها الأساسي الذي بدأت به وهو بناء الدولة وحفظ هيبتها وضمان تماسكها ومنعة سلطانها «أو على الأقل المشاركة بذلك»، لظروف سياسية كثيرة، كان من أهمها غلبة العناصر غير العربية على مراكز النفوذ لفترة طويلة، وانتصارها بعد مرحلة قصيرة من التنافس، وحرص تلك العناصر على إبقاء العرب خارج الإطار الطبيعي وإبعادهم عن مراكز القرار كما مر بنا «مع التأكيد هنا أننا لسنا بصدد مناقضة الدور الحضاري لغير العرب من المسلمين وفي نشر الإسلام».

كان من نتيجة كل ذلك أن بدأ أبناء القبائل العربية بالارتداد إلى داخل جزيرتهم، حيث كانت تجمعاتهم السابقة، وبدأوا بمراحل انحطاط وجهل لا ذنب لهم بها، فقد عانوا من الإهمال المتعمد نتيجة انشغال الخلفاء في الحروب والصراعات وسيطرة العناصر غير العربية على مقاليد الأمور. فعادت جزيرة العرب إلى سابق عهدها من الصراعات والحروب من أجل توسيع مناطق النفوذ حول المياه.

نعم المياه مرة أخرى..

أما قبيلة عنزة «والتي كانت ديارها في صدر الإسلام حول عين التمر في برية العراق وفي شمال الجزيرة العربية» فقد كان نصيبها مناطق خيبر وما حولها[١]، حيث تسيطر أسرة الطيار وحيث بدأ الالتحام الأبدي بين الطرفين كما سنرى في الصفحات التالية.

---

(١) القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي «قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان»، تحقيق الأبياري، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت: صفحة ١٣٠.

الفصل الأول

في القرون الهجرية الأولى

أولاً : نسب أسرة الطيار

ثانياً : جعفر (الطيار) بن أبي طالب بن عبدالمطلب

ثالثاً : أبناء جعفر الطيار وقبيلة عنزة في معركة صفين (تاريخ أسرة الطيار وقبيلة عنزة في نهاية الخلافة الراشدة)

رابعاً : المدينة المنورة خلال حكم الطيار

خامساً : في ظلال خيبر (إلتحام أبدي بين أسرة الطيار وقبيلة عنزة)

أولاً نسب أسرة الطيار

ترقى هذه الأسرة لأشرف نسب وأرقى محتد، فهي من جانب تجري في عروقها دماء النسب الهاشمي لآل البيت، كيف لا وآل البيت هم أبناء علي بن أبي طالب من فاطمة بنت محمد بن عبدالله ﷺ وهم الحسن والحسين، وزينب التي اقترنت بعبدالله بن جعفر الطيار بن أبي طالب، فجاء من نسله هذه الأسرة الممتدة.

ومن جانب آخر اقترن اسم هذه الأسرة بأكبر القبائل العربية، قبيلة عنزة.

وأصبحت هذه الأسرة عنزية صريحة بصراحة مئات السنين التي تقادمت عليها وهي في تصاهر واختلاط بدماء أبناء هذه القبيلة لتصبح أقدم أسر المشيخه والأمارة في هذه القبيلة، لدرجة أن أبناء هذه الأسرة يفضلون دائماً نسبتهم إلى قبيلتهم عنزة، حين ذكر نسبهم الهاشمي، مؤكدين بذلك اعتزازهم بهذه القبيلة.

كيف لا وتاريخهم قد امتدّ مع هذه القبيلة منذ القرون الهجرية الأولى، أي لأكثر من ألف وثلاثمائة عام.

إلا أن ضرورات التوثيق العلمي، تحتم علينا عند الحديث عن هذه الأسرة أن نتناول تاريخها منذ بداياته الأولى في فجر الإسلام، ثم في مرحلة لاحقة في خيبر، ثم في مراحل أخرى في نجد، حيثُ نتناول نجعاتهم في بادية شمال نجد وأطراف بادية الشام والعراق، وكل ذلك في قبيلتهم عنزة، التي ترأستها هذه الأسرة عبر مئات السنين وقادت مسيرتها في مزاحمتها لباقي القبائل على مناطق النفوذ التقليدية للقبائل البدوية قبل أن تتسع مناطق تلك القبيلة، وتتشعب قبيلة عنزة وتتعاظم أعداد أفخاذها وفروعها، وتظهر أسر المشيخات المعروفة الآن في قبيلة عنزة، وهي

أسر قادت فروعها، وكان لها في الأمجاد باع طويل، وتستحق كل منها أن يدبج فيها مؤلفات على غرار هذا المؤَلَف.

وعند الحديث عن هذه الأسرة سننطلق من المدينة المنورة مدينة رسول الله ﷺ. وسنتناول بالحديث بكثير من الإيجاز سيرة جعفر بن أبي طالب «الطيار»، ذلك أن من كَتَبَ في تاريخ سيرة رسول الله ﷺ وسيرة صحابته، وهم كثر، قد أغنونا عن التفصيل في ذلك.

فلنلق نظرة الآن على بداية تاريخ هذه الأسرة، حيث جعفر الطيار رضي الله عنه وأرضاه.

***

ثانياً: جعفر «الطيار» بن أبي طالب بن عبدالمطلب

أسلم جعفر بن أبي طالب بعد واحد وثلاثين صحابياً وصحابية، وكان هو الثاني والثلاثين، ثم الثالث والثلاثين امرأته أسماء بنت عميس رضي الله عنها، فكان من السابقين، وله هجرتان: هجرة إلى الحبشة، وهجرة إلى المدينة المنورة.

وكان رسول الله ﷺ يسميه «أبا المساكين» لجوده وحلمه بالمساكين وإطعامه لهم ورفقه بهم، ولما هاجر إلى الحبشة أقام بها عند النجاشي، إلى أن قدم على رسول الله ﷺ حين فتح خيبر، فتلقاه رسول الله ﷺ واعتنقه وقبَّله بين عينيه، وقال: «**ما أدري بأيهما أنا أشد فرحاً.. بقدوم جعفر.. أم بفتح خيبر؟**».[١]

عن أبي هريرة قال: ما احتذى النعال ولا ركب المطايا.. ولا ركب الكُور بعد رسول الله ﷺ أفضل من جعفر.[٢]

وعن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ قال: «**وأما أنت يا جعفر.. فأشبهت خَلقي وخُلُقي**[٣].. **وأنت من عترتي التي أنا منها**»، وهذه منقبة عظيمة له[٤]، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

***

(١) أسد الغابة لابن الأثير (٧٥٩)، كما رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٤٦٩).

(٢) سنن الترمذي وقال حسن صحيح (٣٧٦٤)، وجاء في مسند الإمام أحمد (١٣٥) وقال الحاكم صحيح على شرط البخاري.

(٣) رواه البخاري (٢٧٠٠ فتح الباري)، والترمذي (٣٧٦٥) عن البراء بن عازب.

(٤) ميزان الإعتدال للذهبي، ج ٢ ص ٢٤١، رواه الطبراني في الأوسط كما رواه أحمد وإسناده حسن وجاء في مجمع الزوائد للهيثمي كما جاء في سنن الترمذي وقال حسن صحيح (٣٧٦٥) وجاء في كنز العمال (٢٣١٩٦).

○ في أرض الحبشة:

عن أم سلمة زوج رسول الله ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جارٍ النجاشيّ، أمّنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يُستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم (الجلود)، فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلاّ أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبدالله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم.

فخرجا حتى قدما على النجاشي، وقالا لكل بطريق: إنه قد ضَوىَ «لجأ» إلى بلد الملك منّا غلمان سفها، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مُبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم. فقالوا لهما: نعم.

ثم إنهما قدّما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلّماه. ثم قالت بطارقته حوله: صدقا أيها الملك قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما.

قالت: فغضب النجاشي ثم قال: لاها الله، إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قومٌ جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن.

فلما جاءوا، وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله. سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟

فقال له جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه: أيها الملك، كّنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي مّنا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كّنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نُشركُ به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدقناه وأمّنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومُنا فعذبوّنا، وفتنونا عن ديننا، ليردُونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كّنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك.

فقال: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟

فقال له جعفر: نعم.

فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ.

فقرأ عليه صدر من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [سورة مريم]. فبكى النجاشي حتى أخضلّت لحيته، وبكت أساقفته. ثم قال لهم النجاشي، إن هذا

والذي جاء فيه عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون.

فلما خرج من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم.. والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبدٌ..

ثم غدا عليه من الغد فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه.

فأرسل إليهم ليسألهم عنه. فاجتمع القوم، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاء به نبينا، كائناً في ذلك ما هو كائن.

فلما دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟

فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا فيه نبُينا ﷺ، هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمِتُهُ ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلتَ هذا العود.

فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال. فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شُيومٌ بأرضي «الشيوم: الآمنون» من سبكم غرِم من سبكم غرِم من سبكم غرِم، ما أحب أن لي دَبراً من ذهب، وأني آذنت رجلاً منكم «والدبر بلسان الحبشة الجبل» ردّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها.

قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.[1]

---

(١) راجع في تفصيل ذلك السيرة النبوية لابن هشام، مؤسسة علوم القرآن صفحة ٢٣٤، كذلك=

ثم إن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، قدم ومن معه على رسول الله ﷺ يوم فتح خيبر، قبلّه الرسول ﷺ بين عينيه والتزمه وقال: «**ما أدري بأيهما أنا أسر.. بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟**».[١]

○ غزوة مؤته:

بعث رسول الله ﷺ بعثه إلى مؤته في جمادي الأولى سنة ثمان للهجرة.

واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال أن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس. فإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة على الناس.

فتجهز الناس ثم تهيّؤوا للخروج وهم ثلاثة آلاف. ثم مضوا حتى نزلوا معان من أرض الشام، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لخم وجذام والقين وبهراء وبلى.. مائة ألف منهم.

فلما بلغ ذلك المسلمين، أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم.. ثم التقى الناس واقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ، حتى شاط في رماح القوم.[٢]

ثم أخذها جعفر فقاتل بها، حتى إذا إلحمه القتال[٣]، إقتحم عن فرس له شقراء فعرقبها[٤]. ثم قاتل القوم حتى قتل. «فكان جعفر أول رجل عرقب في الإسلام»، وكان يقول وهو يقاتل:

= محمود شلبي، حياة جعفر بن أبي طالب الطيار، بيروت: دار الجبل.

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٧٥٩)، كما جاء في الإستيعاب لابن عبد البر (٣٢٧).

(٢) أي: هلك.

(٣) ألحمه القتال: نشب فيه فلم يجد مخلصاً.

(٤) عرقبها: ضرب قوائمها وهي قائمة بالسيف، خوفاً من أن يأخذها العدو بعد إستشهاده فيقاتل عليها المسلمون، ودلالة على ذلك أنه نوى القتال حتى الشهادة.

يـا حبـذا الجنـة واقتـرابهـا طيبـــة وبـــارداً شـــرابهـــا
والروم روم قد دنا عذابها كـــافـــرة بعيـــدة أنســـابهـــا
علـيّ إذ لاقيتهـا ضـرابهـا

قال ابن هشام: وحدثني من أثق به من أهل العلم أن جعفر بن أبي طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخطه بشماله فقطعت، فاحتفته بعضديه حتى قتل.

قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: كنت فيهم في تلك الغزوة.. فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية ليس منها شيءٌ في ظهره.

ثم أخذ الراية ابن رواحة حتى قتل، ثم اصطلح المسلمون على خالد ابن الوليد رضي الله عنه فعاد بالناس.

قال رسول الله ﷺ: «**مرّ بي جعفر البارحة.. في نفر من الملائكة، له جناحان.. مختضب القوادم بالدم**»[1]، وقال ﷺ: «**رأيت جعفراً يطير في الجنة مع الملائكة**».[2]

لقد أثابه الله جناحين في الجنة يطير بهما حيث يشاء، ولهذا سمى جعفر «بالطيار»، وتوارثت ذريته هذا الاسم حتى يومنا هذا.

وقد رثى حسان بن ثابت رضي الله عنه جعفر الطيار في قوله:

تـــأوّبنـــي ليـــلٌ بيثـــرب أعســـرُ وهـــمّ إذا مـــا نَـــوَّم النـــاسُ مُسهـــرُ
لذِكرَى حبيبٍ هيَّجت لي غَبَرةً سفوحاً وأسبابُ البكاء التَّذكرُّ

---

(١) انظر: في تفصيل غزوة مؤته ابن هشام وابن الأثير، وحياة جعفر لمحود شلبي.

(٢) أخرجه الواقدي في كتاب المغازي، كما أورده ابن الأثير في أسد الغابة (٢ : ٢١٢) عن طريق حماد بن سلمة عن عبدالله بن المختار عن بن سيرين عن أبي هريرة وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي قال ابن حجر في الفتح (٧ : ٧٦) إسناده جيد. ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٤٦٨).

بلى إن فقـدان الحبيـب بليّـةٌ ... وكم من كريم يُبتلى ثم يَصبُر
رأيتُ خيار المؤمنينَ تواردوا ... شَعُوبَ وخلقاً بعدُهم يتأخرُ
فلا يُبعدِنَّ الله قتلى تتابعوا ... بمؤتةَ منهم ذو الجناحين جعفرُ
وزيدٌ وعبداللّه حين تتابعوا ... جميعاً وأسبابُ المنيَّة تخطِرُ
غداةَ مضوَا بالمؤمنين يقودُهم ... إلى الموت ميمونُ النقيبة أزهَرُ
أغرُّ كضوء البدر من آل هاشمٍ ... أبيّ إذا سِيَم الظُّلامَةَ مجسَرُ
فطاعن حتى مال غير مُوَسَّدٍ ... لمعُترِكٍ فيه قنا مُتكسِّر
فصار مع المستشهدين ثوابَهُ ... جنانٌ وملتفُّ الحدائقِ أخضَرُ
وكنا نرى في جعفر من محمدٍّ ... وفاءً وأمراً حازماً حين يأمرُ
فما زال في الإسلام من آل هاشم ... دعائمُ عزّ لا يزُلن ومفخَرُ
هم جبلُ الإسلام والناسُ حولهم ... رضامٌ إلى طودٍ يروق ويقهر
بهاليلُ منهم جعفر وابن أمِّه ... عليّ ومنهُم أحمد المتخيَّرُ
بهم تُفَرج اللأواءُ في كل مأزقٍ ... عماسٍ إذا ما ضاق بالناس مَصَدرُ
همُ أولياءُ الله أنزل حُكمه ... عليهم، وفيهم ذا الكتاب المُطهَّرُ

وقال كعب بن مالك:

وجدا على النَّفر الذين تتابعوا ... يوماً بُمؤتة أسندوا لم يُنقلُوا
إذ يهتدون بجعفرٍ ولوائه ... قُدّام أوَّلِهم فنعم الأولُ
حتى تفرجت الصفُّوف وجعفرٌ ... حيث التقى وعثُ الصفوف مجدَّل
فتغيَّر القمر المنُير لفقده ... الشمسُ قد كسفت وكادت تأفِلُ
قَرمٌ علا بُنيانُه من هاشمٍ ... فرعا أشمَّ وسؤدُداً ما يُنقَلُ
قومٌ بهم عَصَم الإلهُ عباده ... وعليهمُ نزل الكِتاب المُنَزلُ
فضَلُوا المعاشر عزة وتكرُّماً ... وتغمدت أحلامُهُم من يَجهَلُ
لا يطلقون إلى السفاهِ حُباهُمُ ... ويُرى خطيبُهمُ بحق يَفصِلُ

بيضُ الوجوه تُرى بُطونُ أكفهم تندي إذا إعتذر الزّمان الممُحلُ
وبهـديهـم رضـي الإلٰـه لخلقِـهِ وبجدّهم نُصِرَ النبي المرُسلُ

وقال حسان بن ثابت يبكي جعفر الطيار رضي الله عنهما :

ولقد بكيت وعزَّ مُهلَكُ جعفرٍ حِـبِّ النبـي علـى البـرَّيـة كُلِّهـا
ولقد جزِعت وقلتُ حين نعيتَ لي من للجلاد لدى العُقاب[1] وخلِّها
بالبيضِ حينَ تُسَلّ من أغمادها ضـربـاً وإنهـال الـرمـاح وعَلّهـا
بعد ابن فاطمة[2] المُبارك جعفرٍ خيـر البـرَّيـة كُلهِّـا وأجلّهـا
زُرءاً وأكـرمَهـا جميعـاً مَحتـداً وأعـزهّـا مُتظلِّمـاً وأزلّهـا
للحـقّ حيـن ينـوبُ غيـر تنحُّـلٍ فَضـلاً، وابـذلهـا نَـدىً، وأبلّهـا
بـالعُـرف غيـرَ محَّمـد لا مثلُـه حيٌّ من احياء البرية كلها[3]

ودخلت فاطمة الزهراء رضي الله عنها وهي تبكلي وتقول : واعماه . .

فقال رسول الله ﷺ : «**على مثل جعفر فلتبكِ البواكي**» .[4]

وكان رضي الله عنه له أولاد منهم محمد وعبدالله وعون ومسح النبي ﷺ على رؤوسهم حين نعي أبيهم ، ودعا لهم وقال : «**إنا وليهم في الدنيا والآخرة**» .[5]

***

(١) العُقاب : إسم لراية الرسول .
(٢) فاطمة هي أم جعفر وعلي ابن أبي طالب ، وهي فاطمة بنت أسد بن هاشم .
(٣) محمود شلبي ، المصدر السابق ، صفحة ١١٥ .
(٤) أورده ابن الأثير في أسد الغابة (٧٥٩) كما جاء في الاستيعاب لابن عبدالبر (٣٢٧) وفي كنز العمال (٣٣١٨٧) «ابن عساكر ـ عن أسماء بنت عميس» .
(٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٤٦١) وقال : رواه أحمد (رقم ١٧٥٠) والحاكم في المستدرك (٣/ ٢٩٨) وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ، وهو صحيح على شرط مسلم .

ثالثاً: أبناء جعفر الطيار وقبيلة عنزة في معركة صفين

«تاريخ أسرة الطيار وقبيلة عنزة في نهاية الخلافة الراشدة»

قدر الله لبني ربيعة أن يشاركوا في أيام معركة صفين، حيث كانوا مثالاً للبأس والشجاعة بشهادة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وشهادة الكثيرين ممن خاضوا غمار تلك المعارك «ويذكر أن علياً رضي الله عنه كان لا يعدل بربيعة أحداً من الناس»، وكانت تلك المعركة مفترقاً هاماً في التاريخ الإسلامي لا نزال حتى اليوم نعيش آثاره، وقد كان الإتصال الأول لأسرة الطيّار بقبيلة عنزة من خلال تلك المعركة التي خاضوها جنباً إلى جنب، ثم تمتد العلاقة بينهما وثيقة إلى يومنا الحاضر، حيث نزحوا سوياً إلى داخل الجزيرة العربية «في الحجاز» بعد قيام بني أمية بأمر الخلافة على إثر إستشهاد عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وسنحاول فيما يلي إلقاء شيء من الضوء على دور عنزة «بني ربيعة» في معركة صفين من خلال ما جاء في كتاب «وقعة صفين» لنصر بن مزاحم المنقري المتوفي سنة ٢١٢هـ.[1]

○ دور قبيلة عنزة في معركة صفين:

إن المتتبع للتاريخ العربي في الجاهلية ثم التاريخ العربي الإسلامي، يمكن أن يتلمس الدور المشرف لبني ربيعة على امتداد ذلك التاريخ وحتى يومنا الحاضر. فيوم ذي قار المشهود لبني ربيعة هو اليوم الذي قال عنه ﷺ بأنه اليوم الذي انتصف به العرب من الفرس، وكان ذلك في الجاهلية. ثم أن بني ربيعة في الإسلام حظوا بوسام من نبي الأمة صلوات الله وسلامه عليه حين قال: «**بخٍّ بخٍّ بخٍّ نِعم الحي عنزة مبغيٍ عليهم منصورون**. .

(١) نصر بن مزاحم المنقري «وقعة صِفين». تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط ١٤١٣هـ.

اللهم ارزق عنزة كفافاً قوت ولا اسرفا»[١]، وحين دعا لهم بقوله: «**اللهم أجبر كسيرهم وآو طريدهم وارضِ بريهم ولا ترد منهم سائلًا**».[٢]

وقد قامت ربيعة بدور مشهود في التاريخ الإسلامي، وحتى في عصور التشتت في القرون الماضية كانت عنزة في بداوتها تمثل المعاني الإسلامية والأخلاقية الإنسانية، فمثلاً ليس من أعرافها هتك العرض أو الاعتداء على النساء والشيوخ والأطفال، أو قطع الطريق، أو التعرض للحاج[٣]، أو قتل الأسرى، أو الاعتداء على من لم يبادرهم بالاعتداء، وغير ذلك كثير وليس هنا مكان الحديث عنها بالتفصيل، وإنما أردنا الإشارة إليها ونحن بصدد إيراد أحاديثه ﷺ والتي شرّف بها هذه القبيلة.

وعند الكلام في أيام معارك صفين بين جيش أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه وأرضاه، وبين جيش الصحابي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فإننا لسنا هنا بصدد إصدار أحكام، أو التعرض لصحابة رسول الله ﷺ (رضوان الله عليهم أجمعين). ولكننا في تناولنا نقرر وقائع متفق عليها فقط، ونتناول ما يندرج في سياق موضوع هذا الكتاب، ونعني بذلك قبيلة عنزة (بني ربيعة).

فقد رفض بنو ربيعة خلع بيعتهم لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، في مسجد البصرة حين اجتمع الناس وبالمسجد طلحة والزبير يريدان من الناس خلع البيعة عن عليّ، حيث خطب رجل من عبدالقيس من بني

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٦٣٧٤) وجاء في الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد (٥٠٨) كما جاء في المسند للإمام أحمد بن حنبل (١٤١) وقال إسناده صحيح، وأورده صاحب كنز العمال (٣٨٠٠١) كما أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٥١).

(٢) كنز العمال (٣٢٩٩٩).

(٣) وهذه من أكثر القضايا حساسية في العرف العنزي، بل إن عنزة كانت من حماة ركب الحجيج حتى أن أحد أفخاذها كان يسمى الحجاج.

ربيعة فقال: يا معشر المهاجرين أنتم أول من أجاب رسول الله ﷺ، فكان لكم بذلك فضل، ثم دخل الناس في الإسلام كما دخلتم، فلما توفي رسول الله بايعتم رجلاً منكم فرضينا وسلمنا ولم تستأمرونا في شيء من ذلك فجعل الله للمسلمين في إمارته بركة، ثم مات واستخلف عليكم رجلاً فلم تشاورونا في ذلك ورضينا وسلمّنا، فلما توفي جعل أمركم إلى ستة نفر فاخترتم عثمان وبايعتموه من غير مشورتنا، ثم أنكرتم منه شيئاً فقتلتموه عن غير مشورة منّا، ثم بايعتم عليّاً عن غير مشورة منّا فما الذي نقمتم عليه فنقاتله؟ هل استأثر بفيءٍ أو عملٍ بغير الحق أو أتى شيئاً تنكرونه فنكون معكم عليه وإلاّ فما هذا؟

فهمّ الناس بقتل الرجل فمنعته عشيرته، فلما كان الغد وثبوا عليه وعلى من معه فقتلوا منهم سبعين..

ثم جاء حُكيم بن جبله في جماعة من بني ربيعة وتوجهوا نحو دار الرزق، يريدون نصرة عثمان بن حنيف «وهو والي البصرة من قِبل علّي رضي الله عنه»، فقُتِلوا جميعاً ما عدا عثمان بن حنيف.

وأتى علي بن أبي طالب الخبر بما لقيت بنو ربيعة فقال (رضي الله عنه): «عبد القيس خير ربيعة، وكل ربيعة خير»، ثم قال:

يا لهف نفسي على ربيعةْ ربيعة السامعةَ المطيعةْ
قد سبقتني فيهمُ الوقيعةْ دعا عليٌّ دعوةً سميعةْ
حلْو بها المنزلة الرفيعةْ[1]

وقعت معركة صفين في سنة ٣٧هـ، وصفين موقع بالقرب من الرقة، فعن محمد بن المطلب، أن علياً ومعاوية عقدا الألوية، وأمّرا الأمراء وكتبا الكتائب. واستعمل عليّ بن أبي طالب عمار بن ياسر على الخيل،

(١) ابن الأثير «الكامل في التاريخ» ج ٢، ص ١١٨.

وعلى الرجّالة عبدالله بن بديل ودفع اللواء إلى هاشم بن عتبة، وجعل على الميمنة الأشعث بن قيس، وعلى الميسرة عبدالله بن العباس، وجعل القلب قبيلة مضر، وجعل الميمنة قبائل اليمن، وجعل الميسرة قبيلة ربيعة.

وإستعمل معاوية على الخيل عبيدالله بن عمر، وعلى الرجّالة مسلم بن عقبة المري، وعلى أهل دمشق ـ وهم القلب ـ الضحّاك بن قيس الفهري، وعلى أهل حمص ـ وهم الميمنة ـ ذا الكلاع الحميري، وعلى أهل الأردن ـ وهم الميسرة ـ سفيان السلمي، وعلى أهل فلسطين ـ وهم في الميسرة أيضاً ـ مسلمة بن مخلد.[١]

وحين التحم الجمعان في يوم الخميس انكشفت ميمنة جيش عليّ، واستقبلتهم جموع أهل الشام في خيل عظيمة «وكان جيش معاوية يفوق جيش عليّ كثيراً» فلما إنكشف جيش عليّ، انتهت الهزيمة إلى علي بن أبي طالب وهو في القلب مع أهل اليمن، فانصرف رضي الله عنه يمشي نحو الميسرة، فتفرقت عنه قبائل مضر، وثبتت قبائل ربيعة.

قال زيد بن وهب: مرّ عليّ يومئذٍ ومعه بنوه نحو الميسرة ومعه ربيعة وحدها، ثم إن أهل الشام دنوا منه، والله لا يزيده قربهم منه سرعة في مشيه، فقال له الحسن: ما ضرّك لو سعيت حتى تنتهي إلى هؤلاء الذين صبروا لعدوك من أصحابك؟ قال: «يعني ربيعة الميسرة» قال: يا بني إن لأبيك يوماً لن يعدوه، ولا يبطئ به عنه السعي.[٢]

قال الصلت بن يزيد: أقبل ذو الكلاع في حِمير ومن لف لفها «من أهل اليمن» ومعها عبيدالله بن عمر في ربعة آلاف من أهل الشام قد بايعوا

---

(١) المنقري «المرجع السابق» ص ٢٠٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٥٠.

على الموت، وهي ميمنة أهل الشام «جيش معاوية»، فحملوا على ربيعة، وكانوا أربعة آلاف محجّف من عنزة[١]، وفيهم عبدالله بن العباس وهو على الميسرة، فحملوا على ربيعة حملةً شديدة بخيلهم ورجالهم، فتضعضعت رايات ربيعة، فثبتوا، ثم أن أهل الشام واليمن إنصرفوا ولم يمكثوا إلا قليلاً حتى كرّوا ثانية وعبيدالله بن عمر في أوائلهم يقول: يا أهل الشام.. هذا الحي أنصار عليّ بن أبي طالب، وإن هزمتم هذه القبيلة أدركتم ثأركم في عثمان، وهلك عليّ وأهل العراق.[٢]

فشدّوا على الناس شدّةً شديدة، فثبتت لهم ربيعة وصبروا صبراً حسناً إلاّ قليلاً من الضعفاء، وثبت أهل الرايات وأهل البصائر منهم والحفاظ، وقاتلوا قتالاً شديداً. وأخذ خالد السدوسي يصيح بالناس: يا معشر ربيعة، إن الله عز وجل قد أتى بكل رجل منكم من منبته فجمعكم في هذا المكان جمعاً لم تجتمعوا مثله، ثم نشركم في الأرض، وإنكم إن تمسكوا أيديكم تنكلوا عن عدوكم وتحولوا عن مصافّكم، ولا يرضى الرب فعلكم، ولا تعدموا معيّراً، يقول: فضحت ربيعة الذِّمار، وخامت عن القتال، وأُتيت من قِبلها العرب، فإياكم أن يتشاءم بكم المسلمون اليوم.[٣]

وإشتد القتال بين ربيعة من جهة وأهل اليمن والشام ومعهم عبيدالله ابن عمر من جهة ثانية، حتى كثرت القتلى فيما بينهم، ثم خرج نحو من خمسمائة فارس أم أكثر من أصحاب عليّ «من ربيعة»، وعلى رؤسهم البيض وهم غائصون في الحديد، لا يُرى منهم إلاّ الحَدَق، وخرج إليهم من أهل الشام نحوهم في العدد، فاقتتلوا بين الصفين والناس تحت

---

(١) والمحجف: لابس الحجفة، وهي ترس يتخذ من جلود الإبل يطارق بعضها ببعض، وكذلك ما تجلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح، وقد يلبسه الإنسان أيضاً.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩١.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٩٢.

راياتهم، فلم يرجع من هؤلاء ولا من هؤلاء مُخبِر، قتلوا جميعاً بين الصفين.

ثم تمادى الناس في القتال فاضطربوا بالسيوف حتى تعطّفت وصارت كالمناجل، وتطاعنوا بالرماح حتى تكسرت وتناثرت أسنتها، ثم جثوا على الركبات فتحاثوا بالتراب، ثم تعانقوا وتكادموا وتعاضوا بالأسنان، وتراموا بالصخر والحجارة، يقتتل الرجلان حتى يثخنا فيجلسا ليستريحا، وكل واحد منهما يتوعد صاحبه فإذا استراحا قاما يقتتلان كما كان، ثم تحاجزوا فجعل الرجل يمر على عدوه فيقول: من أين آخذ إلى رايات بني فلان؟ فيقولون له: هاهنا، لا هداك الله.

ثم إن أبا عرفاء قال للحضين: هل لك أن تعطيني رايتك أحملها فيكون لك ذكرها ويكون لي أجرها. فقال له الحضين: وما غناي يا عم عن أجرها مع ذكرها؟ فقال له: لا غنى بك عن ذلك، أعرها عمّك ساعة فما أسرع ما ترجع إليك.

فعلم أنه يريد أن يستقتل، قال: ما شئت. فأخذ الراية أبو عرفاء فقال: يا أهل هذه الراية، إن عمل الجنة كره كله، وإن عمل النار خِفّ كله، وإن الجنة لا يدخلها إلاّ الصابرون الذين صبروا أنفسهم على فرائض الله وأمره، وليس شيء مما افترض الله على العباد أشد من الجهاد. فإذا رأيتموني قد شددت فشُدّوا، ويحكم أما تشتاقون إلى الجنة.

فشدَّ وشدُّوا معه فإقتتلوا قتالاً شديداً، وأخذ الحضين يقول:

شـدُّوا إذا مـا شُـدّ بـاللـواءِ ذاك الـرقـاشـيُّ أبـو عـرفـاءِ

فقاتل أبو عرفاء حتى قُتِل، وشدّت ربيعة بعد شَدّة عظيمة على صفوف أهل الشام فنقضتها.[1]

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٠٥.

وفي ذلك يقول مُرّة بن جنادة العُليمي «وهو من جند معاوية»:

ألا سألت بنا غداةَ تبعثرت ... بكر العراق بكل عضبٍ مِقصلِ
برزوا إلينا بالرماح تهزها ... بين الخنادق مثل هزِّ الصيقلِ
والخيل تَضبِر[1] في الحديد كأنّها ... أُسدٌ أصابتها بَليلٌ شَمأل

عن مولى الأشتر قال: لمّا انهزمت ميمنة أهل العراق أقبل عليّ نحو الميسرة يستثيب الناس.

وقال شقيق بن ثور: لمّا كان يوم الخميس انهزم الناس، فجاءنا عليٌّ حتى انتهى إلينا ومعه بنوه، فنادى بصوتٍ عال جهير كغير المكترث لما فيه الناس، وقال: لمن هذه الرايات؟ قلنا رايات ربيعة. قال: بل هي رايات الله، عصم الله أهلها وصبّرهم وثبّت أقدامهم. ثم قال لي «وأنا حامل راية ربيعة يومئذ»: يا فتى، ألا تدني رايتك هذه ذراعاً؟ فقلت له: نعم والله، وعشرة أذرع، ثم ملت بها فأدنيتها، حتى قال لي: حسبك مكانك.

وحين رأى معاوية أن علياً مال إلى صفوف ربيعة، قال لعمرو بن العاص: أما ترى يا أبا عبدالله ما قد دفعنا فيه؟ إنا لبمعرض خطرٍ عظيم.

قال له عمرو: إن أصبحت ربيعة متعطفين حول عليٍّ تعطّف الإبل حول فحلها لقيت منهم جلاداً صادقاً، وبأساً شديداً، وكانت التي لا يُتعزّى لها.

فقال معاوية: أبخؤولتك تخوّفني يا أبا عبدالله؟ قال: إنك سألتني فأجبتك.

فلما أصبحوا في اليوم العاشر، أصبحوا وربيعةُ محدقةٌ بعليّ بن أبي طالب إحداق بياض العين بسوادها، ووجد أهل العراق لواءهم مركوزاً وليس حوله إلاّ ربيعة، وعلي بن أبي طالب بين ربيعة، وهم يحيطون

(١) تضبر: تثب، والحديد: السلاح، والبليل: الريح الندية. وفي البيت إقواء.

به، فقال رضي الله عنه: فخرٌ طويلٌ لكِ يا ربيعة.[١]

وقام خالد السدوسي فنادى: من يبايع نفسه على الموت ويشري نفسه لله؟ فبايعه سبعةُ آلافٍ ألاّ ينظر رجلٌ منهم خلفه حتى يردَ سُرادقَ معاوية.

قال عتّاب البكري: إن عليّاً حين انتهى إلى رايات ربيعة، قال ابن لقيط: إن أصيب عليّ فيكم افتضحتم، وقد لجأ إلى راياتكم.

وقال لهم شقيق بن ثور: يا معشر ربيعة، لكم عذرٌ في العرب إن أصيب عليٌّ فيكم ومنكم رجلٌ حيّ، إن منعتموه فحمدُ الحياة أُلبستُموه. فقاتَلُوا قتالاً شديداً لم يكن قبله مثله حين جاءهم عليّ. ففي ذلك تعاقدوا وتواصوا ألاّ ينظر رجلٌ منهم خلفه حتى يرد سُرادق معاوية، فلما نظر معاوية إليهم قد أقبلوا قال:

إذا قلت قد ولّت ربيعةُ، أقبلت كتائبُ منهم كالجبال تُجالِدُ

ثم قال معاوية لعمر بن العاص: ماذا ترى؟

فقال عمرو: أرى ألا تحنَثَ أخوالي اليوم. فترك معاوية سرادقه وخرج فارّاً عنه لائذاً إلى بعض مضارب العسكر فدخل فيه.[٢]

قال السدّيّ: أقبل الحضين بن المنذر ـ وهو يومئذٍ غلام ـ يزحف برايته وكانت حمراء، فأعجب علي بن أبي طالب زحفه وثباتُه فقال رضي الله عنه:

لمن رايةٌ حمراءُ يخفقُ ظلُّها إذا قيل قدِّمها حُضَينُ تَقَدّما[٣]
ويدنو بها في الصّفِ حتى يديرَها حِمامُ المنايا تقطُر الموتَ والدَما

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٣٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠٦.

(٣) وقد أورد ابن عبد ربه هذا البيت في العقد الفريد:

لمن الراية السوداء يخفق ظلها .....

تـراه إذا مـا كـان يـومُ عظيمـةٍ أَبـى فيـه إلاّ عِـزةً وتكـرمـا
جزى الله قوماً صابروا في لقائهم لدى البأس حُرّاً ما أعفَّ وأكرَما[١]
وأحزمَ صبراً حينَ تُدعى إلى الوغى إذا كان أصواتُ الكماةِ تغمغُما
ربيعةَ أعني، إنهم أهلُ نجدةٍ وبأسٍ إذا لاقوا خميساً عَرَمرَما
أذقنا ابن حربٍ طعننا وضِرَابنا بأسيافنا حتى تولى وأحجما
وفرَّ ينادي الزبرقانَ وظالماً ونادى كَلاعاً والكُريبَ وأنعمَا
وعمراً وسفياناً وجهماً ومالكاً وحَوشَبَ والغاوي شُريحاً وأظلَما
وكرز بن نبهان وعمرو بن جحدرٍ وصبّاحاً القينيّ يدعو وأسلما[٢]

عن الحضين بن المنذر قال: إن ناساً كانوا أتوا علياً قبل الوقعة في هذا اليوم، فقالوا: إنّا لا نرى خالد بن المعمر السدوسي إلاّ قد كاتب معاوية، وقد خشينا أن يتابعه. فبعث إليه عليّ وإلى رجال من أشرافهم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أمّا بعد يا معشر ربيعة فأنتم أنصاري، ومجيبوا دعوتي، ومن أوثق حيٍّ في العرب في نفسي، ولقد بلغني أن معاوية قد كاتب صاحبكم خالد بن المعمر، وقد أتيت به، وقد جمعتكم له لأشهدكم عليه وتسمعوا منّي ومنه. ثم أقبل عليه وقال: يا خالد إن كان ما بلغني عنك حقاً فإني أشهد الله ومن حضرني من المسلمين أنك آمن حتى تلحق بالعراق أو بالحجاز، أو أرضٍ لا سلطان لمعاوية فيها، وإن كنت مكذوباً عليك فأبرّ صدورنا بأيمان نطمئن إليها.

فحلف بالله ما فعل وحلف رجالٌ من ربيعة كثيراً وقالوا: والله لو نعلم

---

(١) وقد ورد هذا البيت في العقد الفريد:
جزى الله عني والجزاء يكفّه «ربيعة» خيراً ما أعف وأكرما

(٢) المرجع السابق، ص ٢٨٩.

أنه فعل لقتلناه.[١]

وحانت صلاة المغرب فصّلوا العشائين إيمائاً واستمر القتال واستشرى الشر، وكانت ليلة الجمعة، والناس يقتتلون في كل ناحية.

واستمر الحال على ذلك حتى أصبح الناس فصلّوا الصبح إيماء والقتال على أشده حتى أصبح النهار، وترجّح النصر لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

فلما رى معاوية رجحان كفة أمير المؤمنين، وتأكد أن النصر أصبح منه قاب قوسين أو أدنى، استشار عمرو بن العاص فأشار إليه برفع المصاحف، وطلب التحكيم إلى كتاب الله ـ عز وجل ـ، وكان الفريقان قد أنهكا، ومات منهما خلق كثير قدّره ابن سيرين بسبعين ألف قتيل، خمسة وأربعون ألفاً من جيش معاوية، وخمسة وعشرون ألفاً من جيش عليّ بن أبي طالب.

فلم تكد تعرض هذه الفكرة برفع المصاحف من جيش معاوية حتى إستحسنها الناس من الفريقين، ولكن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أدرك أن هذه حيلة لتثبيط همم المقاتلين الذين أوشكوا أن يحرزوا نصراً. وحاول أن يثني أصحابه عن قبول الفكرة، وباءت محاولاته بالفشل، وأصر جماعة القراء في جيشه على اللجوء للتحكيم، فعلم أن جماعة القراء قد أفسدوا عليه تدبيره وأنه إن لم يطعهم فإنها الفتنة قد وقعت بين أصحابه وعواقب ذلك خطيرة، فقد قالوا له: يا عليّ أجب إلى كتاب الله، وإلاّ دفعناك برمّتك إلى القوم، أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفان، إنه غلبنا أن يعمل بكتاب الله فقتلناه، والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك.[٢]

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٨٧.

(٢) د. محمود السيد الوكيل «جولة تاريخية في عصر الخلفاء الرشدين». جدة: دار المجتمع، ط ٤، ١٤١٣هـ، ص ٥٧٣.

وبعث أمير المؤمنين يزيد بن هانئ إلى الأشتر «وربيعة تقاتل القوم» ليوقف القتال وأخذ الأشتر يتململ ويقول: ويحك، ألا ترى ما نحن فيه من النصر ولم يبق إلاّ القليل؟

فقال يزيد للأشتر: أيهما أحب إليك أن تقبل أو يقتل أمير المؤمنين كما قتل عثمان.

فأقبل الأشتر وهو محنق، فلما وقف على القوم قال: يا أهل العراق، يا أهل الذل والوهن، أحين علوتم القوم، وظنوا أنكم لهم قاهرون، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها.. أمهلوني فإني قد أحسست بالفتح. فقالوا: لا. دعنا منك يا أشتر، قاتلناهم لله، وندع قتالهم لله.[1]

وانتهت موقعة صفين بالتحكيم في دومة الجندل كما هو معروف بين عمرو بن العاص من قِبل معاوية بن أبي سفيان، وبين أبي موسى الأشعري من قِبل علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

وكان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لا يعدل بربيعة أحداً من الناس، فشق ذلك على قبائل مضر وأظهروا لهم القبيح، وأبدوا ذات أنفسهم، فقال حضين بن المنذر شعراً أغضبهم، فيه:

رأت مضرٌ صارت ربيعةُ دونهم ... شعار أمير المؤمنين، وذا الفضلُ
فأبدوا إلينا ما تجنُّ صدورهم ... علينا من البغضا وذاك له أصل
فقلتُ لهم لما رأيتُ رجالهم ... بدت بهم قطوٌ كأنَّ بهم ثقلُ
إليكم أهيبوا لا أبا لأبيكم ... فإن لكم شِكلاً وإن لنا شِكلُ
ونحن أناسٌ خصَّنا الله بالتي ... رآنا لها أهلاً وأنتم لها أهلُ
فأبلوا بَلانا أو أقِروا بفضلنا ... ولن تلحقونا الدهرَ ما حنّت الإبلُ

(١) المرجع السابق، ص ٥٧٤.

ثم إنه بعد تلك الأحداث وبدخول سنة أربعين للهجرة، تمكن عبدالرحمن ابن ملجم من قتل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. ثم أن الحسن بن عليّ رضي الله عنه، بعد أن خذله أهل الكوفة، أرسل معاوية بن أبي سفيان «وكان قد سار بجيشه من الشام يريد قتال الحسن» واصطلح معه وسلمّه الخلافة وبايعه عليها، وسمي ذلك العام بعام الجماعة.

وكان زياد قد بعث إلى معاوية عدداً من الرجال ممن رفضوا سب أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، ومنهم كدام بن حيان العنزي وعبدالرحمن بن حسان العنزي، فعفا معاوية عن بعضهم ممن شفع فيهم قومهم، ولم يكن من ربيعة أحد ليشفع في العنزيان.

فقال معاوية لعبدالرحمن بن حسان العنزي: يا أخا ربيعة ما تقول في عليّ؟

فقال: دعني ولا تسألني فهو خير لك.

فقال معاوية: والله لا أدعك.

فقال العنزي: أشهد أنه كان من الذاكرين الله تعالى كثيراً، ومن الآمرين بالحق، والقائمين بالقسط، والعافين عن الناس.

فقال معاوية: قتلت نفسك.

فقال العنزي: بل إياك قتلت، ولا ربيعة بالوادي «يعني ليشفعوا له»، فردّه معاوية إلى زياد وأمره أن يقتله شر قتلة، فدفنه حيّاً، وقتل من أصحابه سبعة رجال.[1]

***

(١) ابن الأثير «الكامل في التاريخ» ج ٣، ص ٣٣٦.

رابعاً: المدينة المنورة خلال حكم أسرة الطيار

قتل محمد «الأكبر» بن جعفر الطيار في معركة صفين، أما محمد «الأصغر» بن جعفر الطيار فمات في فلسطين هارباً من معاوية، وقتل عون بن جعفر الطيار في أوم ألطف مع الحسين بن عليّ ولا عقب له.

أما عبدالله بن جعفر الطيار والذي ولد في الحبشة «في الهجرة الأولى» فقد شهد صفين مع عمه أمير المؤمنين، وقُتِل اثنان من أبنائه يوم ألطف، وكان يُضرب بجوده المثل، حتى يقال إنه لم يبلغ أحد في الإسلام مبلغه في الجود، وكان أهل المدينة يتداينون على قدومه[١]، وكان يسمى بحر الجود.[٢]

ومما يروى عن جود عبدالله بن جعفر الطيار رضي الله عنهما أنه خرج يوماً إلى ضيعةٍ له فنزل على نخيل قوم، فيها غلام يقوم عليها، فأتى بثلاثة أقراص، فدخل كلب فدنا منه، فرما إليه بقرصٍ فأكله، ثم رمى إليه بالثاني والثالث فأكلهما، وعبدالله ينظر إليه.

فقال: يا غلام، كم قوتك كلّ يوم؟

قال: ما رأيت.

قال عبدالله: فلم آثرت الكلب؟

قال: لأن أرضنا ليست بأرض كلاب، واخاله قد جاء من مسافةٍ بعيدة جائعاً، فكرهت درّه.

قال عبدالله: فما كنت صانعاً اليوم؟

قال الغلام: أطوي يومي هذا.

---

(١) القلقشندي، نهاية الإرب في معرفة أنساب العرب، مطبعة النجاح، بغداد، ١٩٥٨م، صفحة ١١٩.

(٢) موفق الدين عبدالله بن قدامة، التبيين في انساب العرب القرشيين، مكتبة النهضة العربية.

فقال عبدالله: والله إن هذا لأسخى مني. فاشترى عبدالله بن جعفر النخل والغلام، وأعتقه ووهب النخل له.

وخرج الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر الطيار حجاجاً، ففاتتهم أثقالهم، فجاعوا وعطشوا، فمرّوا بعجوزٍ في خباء لها، فقال أحدهم هل من شراب؟ قالت: نعم. فأناخوا إليها، وليس لها إلاّ شويهة فقالت لهم: احلبوها فاشربوا لبنها، ففعلوا.

ثم قالوا: هل من طعام؟

قالت: لا، إلاّ الشاة فليذبحها أحدكم حتى أهيء لكم ما تأكلون.

فقام إليها أحدهم فذبحها، ثم هيأت لهم طعاماً فأكلوا.

فلما ارتحلوا قالوا: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه، فإذا رجعنا سالمين، فألمّي بنا فإنا صانعون إليك خيراً، وارتحلوا.

وأقبل زوجها، فأخبرته بخبر القوم والشاة فغضب وقال: ويحك! تذبحين شاتي لقومٍ لا أعرفهم، ثم تقولين نفر من قريش!

ثم بعد مدة ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة المنورة فدخلاها، وجعلا يلتقطان «الجلّه» ويعيشان بثمنه، فمرّت العجوز ببعض سكك المدينة، فإذا الحسن بن عليّ واقف بباب داره، فبعث إليها غلامه، فدعا بها، وقال لها: يا أمة الله، أتعرفينني؟

قالت: لا، قال: أنا ضيفك يوم كذا وكذا!

قالت: بأبي أنت وأمي!

ثم اشترى لها من شياه الصدقة ألف شاة، وأمر لها بألف درهم، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين بن علي، فأمر لها بمثل ذلك، وبعث بها مع غلامه إلى عبدالله بن جعفر الطيار فقال لها: بكم وصلك الحسن والحسين؟

قالت: بألفي درهم وألفي شاة.

فقال لها: لو بدأت بي لأتعبتهما في العطاء، أعطوها عطيتها.

فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف درهم وأربعة آلاف شاة.

وقيل لها: إنها لا تعرفك وكان يرضيها اليسير.

فقال: إن كان يرضيها اليسير فإني لا أرضى إلاّ بالكثير وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي.

وقال الحسن والحسين لعبدالله بن جعفر رضي الله عنهما: إنك قد أسرفت في بذل المال.

فقال: بأبي وأمي أنتما، إن الله قد عوّدني أن يتفضّل علي، وعودته أن أتفضّل على عباده، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عنّي.

وقدم عبدالله بن جعفر على يزيد بن معاوية، فأعطاه أربعة آلاف ألف، فقيل ليزيد: أتعطي رجلاً واحداً أربعة آلاف ألف!

فقال: ويحكم إنما أعطيتها أهل المدينة أجمعين، فما يده فيها إلاّ عارية.

فما وصل عبدالله بن جعفر المدينة وأمضى شهراً إلاّ ولحقه الدين.

وكان عبدالله بن جعفر الطيار قد أمّن عبيدالله بن قيس الرقيات وسعى له بالعفو عند عبدالملك بن مروان، وكان يريد قتله لخروجه مع ابن الزبير وهجائه لبني أمية في قصيدة منها قوله:

كيف نومي على الفراش ولّما ... تشمل الشام غارة شعواءُ

تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي ... عند خدام[1] العقيلة العذراءُ

يقول عبيدالله بن قيس قدمت المدينة فجئت عبدالله بن جعفر الطيار عند المساء، وهو يعشي أصحابه، فجلست معهم، وجعلت أتعاجم وأقول: يا ريار[2] ابن طيّار! فلما خرج أصحابه كشفت له عن وجهي،

---

(١) الخدام: جمع خدمة وهي الخلخال.

(٢) ريار كلمة فارسية معناه الصاحب والشفيق والمعين.

فقال : ابن قيس؟ فقلت : ابن قيس، جئتك عائذاً بك. قال : ويحك؟ ما أجدّهم في طلبك! وأحرصهم على الظفر بك!

ثم كتب له عبدالله، حتى أمّنه عبدالملك بن مروان، وقال له : أما الأمان فقد سبق لك، ولكن لا تأخذ مع المسلمين عطاءً أبداً.

فذهب ابن قيس إلى عبدالله بن جعفر في المدينة، وقال له : ما نفعني أماني، تُركت حيّاً كميّتٍ، لا آخذ مع الناس عطاءً أبداً.

فقال له عبدالله : كم بلغت من السن؟

قال : ستين سنة.

قال عبدالله : فعمّر نفسك «أي كم تتوقع أن تعيش».

قال : عشرين سنة من ذي قبل، فذلك ثمانون سنة.

قال عبدالله : كم عطاؤك؟

قال : ألف درهم.

فأمر له بأربعين ألف درهم، وقال : ذلك عليَّ إلى أن تموت على تعميرك نفسك.

عند ذلك قال عبيدالله بن قيس الرقيات يمدح عبدالله بن جعفر الطيار :

تقدّت[1] بي الشهباءُ نحو ابن جعفرٍ ... سواء عليها ليلُها ونهارُها

تزور إمرأ قد يعلم الله أنه ... تجود له كفٌ قليلٌ غِرارُها

أتيناك نثني بالذي أنت أهلُهُ ... عليك كما يثني على الروض جارها

فواللهِ لولا أن تزور ابن جعفرٍ ... لكان قليلاً في دمشقَ قرارُها

إذ مُتَّ لم يوصَل صديق ولم تُقَم ... طريق من المعروف أنتَ منارُها

ذكرتك إن فاض الفراتُ بأرضنا ... وفاض بأعلى الرقّتَينِ[2] بحارُها[3]

---

(١) تقدّت : أي سارت سيراً بطيئاً ولا عجل.

(٢) الرقتان : يراد بهما الرقة والرائقة، وهما مدينتان في بلاد الشام.

(٣) محمد أحمد جاد المولى وآخرون «قصص العرب» بيروت : دار الجبل، ص ٤٠٧.

وكان عبدالله بن جعفر قد أضاق وأخلّ في آخر عمره، فأتاه رجل فسأله، فقال: إن حالي متغيرة لجفوة السلطان وحوادث الزمان، ولكني أعطيك ما أمكن، فأعطاه رداءً كان عليه، ثم دخل منزله ثم قال: اللهم استرني بالموت، فما مكث بعد ذلك إلا أياماً حتى مات.

وتوفي عبدالله بن جعفر الطيار رضي الله عنه في سنة ثمانين، وصلى عليه أبان بن عثمان بن عفان أمير المدينة يومئذٍ في عام الجحاف.

وله من العقب معاوية، وإسحاق وعلي «الزينبي» ولقب بالزينبي نسبة إلى أمه زينب بنت علي بن أبي طالب، من فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

ويتصل نسب أسرة الطيار الحالية بعليّ بن عبدالله بن جعفر الطيار ابن أبي طالب وهو الذي قال فيه «بن مخرمة» حين تكفل فقراء قريش:

أبا حسن إنّي رأيتُك واصلاً ... لهلكي قريش حينَ غيَّر حالُها
سعيت لهم سعي الكريم بن جعفرٍ ... أبيكَ وهل من غايةٍ لا تنالُها
فما أصبحت في ابني لؤيٍّ فقيرةٌ ... مُدَفعَةٌ إلا وأنتَ ثمالُها

ومن علي «الزينبي» محمد، ومن محمد إبراهيم، ومن إبراهيم جعفر، ومن جعفر يوسف الملقب «بأبي الأمراء»، ومن يوسف محمد، ومن محمد جاء إسحاق أمير المدينة المنورة عام ٢٦٦هـ وهو الذي بنى سورها، ووقعت بينه وبين بني علي الفتنة العظيمة.(١)

ومن محمد كذلك موسى أمير المدينة المنورة بعد وفاة شقيقه وسليمان أمير خيبر.(٢)

---

(١) ابن عتبة أحمد الحسيني. عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، صفحة ٦٦.

(٢) يذكر أن إسحاق خرج إلى وادي على إثر مقتل إثنان من اخوانه هناك، لتأديب أهل وادي القرى، وخلف أخاه موسى بن محمد نائباً عنه بالمدينة، ولكن المنية عاجلته فمات في الطريق، وهنا وجد بني علي الفرصة سانحة للإنقضاض على موسى فقادهم الحسن بن موسى بن جعفر فأعلن=

وهنا يجدر بنا التعليق على موضوع كثر تناوله في الآونة الأخيرة، حيث أخذ هذا التناول شكل المناظرات الصحفية. وتم تناول قبيلة عنزة وأسرة الطيار في سياق تلك المناظرات حتى أن أحد الكتّاب أشار إلى أن أحدى القبائل قد أجلت أسرة الطيار وقبائل عنزة إلى صعيد مصر، حيث جاء في أحد المقالات مايلي:

. . . ومما يؤكد صحة ما أورده الهمداني ما ذكره أبو زيد البلخي، وهو معاصر للهمداني، من الانتصار على بني جعفر بن أبي طالب «الطيار» وأخذهم ضياعهم في الفرع والسائرة، وانتهى الأمر ببني جعفر هؤلاء أن تم إجلاءهم من المنطقة بين مكة والمدينة إلى القرى والحصون، ويتأكد هذا بما أورده المقدسي (المتوفي نحو ٣٨٠هـ)، قال: «الجحفة مدينة عامرة يسكنها بنو جعفر عليها حصن ببابين وبها آبار يسيرة» وقال: «والمروة بلد حصين كثيرة النخيل جيدة التمور سقياهم من قناة غزيرة عليها خندق وأبواب حديد وهو معدن المقل والبردي، حارة في الصيف، الغالب عليها بنو جعفر» ثم كان أن أجيز بني جعفر إلى بلاد الصعيد ورافقهم مزينة وعنزة إلى بلاد الصعيد. . .[1]

وقبل أن نعلق على هذا السرد التاريخي الخاطئ، فإن لنا وقفة أخرى على ما جاء في مقال منشور، حيث جاء في المقال أن بني جعفر الطيار أثناء حكمهم في المدينة لم يكونوا ذوي سيرة حسنة مع باديتها، وجاء المقال:

= العصيان، وحاول انتزاع الإمارة من موسى بن محمد ولكن موسى فاوضه على التخلي عن ثورته، وكانت طموحات الحسن صغيرة، فرضي لقاء ثمانمائة دينار، ثم أسرع أحد الحسينين إلى جمع رجاله ومهاجمة موسى في دار الأمارة فقتله. وإنكسر آل جعفر الطيار بمقتل موسى وخرج بعضهم من المدينة. انظر في هذا د. عبدالباسط بدر، التاريخ الشامل للمدينة المنورة، الجزء ٢، صفحة ١١٨.

(١) مجلة العرب، عددي محرم وصفر ١٤١٦هـ.

. . . إنهم لم يحاولوا تأليف أبناء البادية، وجذبهم إليهم بوسائل من الترغيب والتأليف يتلاءمان مع طباع البادية، وهي طباع تتصف بالنقاء وسلامة النية، وشكر الصنيع. وبدون حسن معاملتهم بهذه الوسائل، من الصعب إن لم يكن من المستحيل السيطرة على حكم بلاد لا يزال للعادات والتقاليد الموروثة عن البادية أثرها القوي بين أهلها، ولهذا حدثت من بعض القبائل كبني سليم وغيرهم ما سبب لأولئك الولاة كثيراً من القلاقل والإخلال بالأمن، بحيث قتل بعض الأمراء في بعض المناطق، مما اضطرهم إلى الاستنجاد بالدولة العباسية، فبعثت حملة «بُغا» التركي المعروف بشراسته، وشدته وصرامته، فكان أن قدم المدينة، وقوام حملته من الجنود الأعاجم الذين لا يحملون للعرب في نفوسهم سوى الكراهية والبغض، ولا يحسنون الطرق التي يستطيعون بها إجتذابهم إليهم، ومحاولة علاج ما حدث منهم من سوء تصرف بطرق نافعة. وإنما اتخذوا من البطش والقوة والإرهاب أقوى وسيلة لإخضاعهم وإذلالهم، لا لمحاولة إصلاحهم، واستئصال بواعث الشر من طباعهم، بطرق يسهل تقبّلها في نفوسهم، بعد إدراكهم للغاية منها، من الحفاظ على كرامتهم وعدم كسر عزة نفوسهم، بأنواع الذل والإهانة.

ولقد كان لعميد بني جعفر الطيار محمد بن يوسف الذي كان مشاركاً في تلك الحملة، كان له تصرفات أحدثت أعمق الأثر بالإضرار بتلك القبائل، مما أوغر صدور أبنائها، وملأ نفوسهم بالحقد والبغضاء والضغينة له، ولأحفاده الذين تولّوا الأمر بعده. .[1]

ونود هنا لفت نظر الكاتب وكذلك القارئ الكريم إلى بعض النقاط الهامة التي وردت في المقال، وهي:

---

(١) المجلة العربية، رمضان ١٤١٧هـ.

١- ليس هناك ما يبرر إقحام تاريخ قبيلة عنزة، وأسرة الطيار ذات التاريخ المشرّف بهذا الشكل المشوه، في خلافٍ بعيدٍ عنها.

٢- أن بني جعفر الطيار كانوا من أكثر الأمراء «في القرون الهجرية الأولى» معرفة بأحوال البادية وطباع أبنائها لما لهم من علاقات التحالف والمصاهرة مع قبيلة عنزة، حيث امتدت تلك العلاقة منذ معارك صفين وما قبلها. ثم انسحبت قبيلة عنزة معهم إلى داخل الجزيرة العربية في الحجاز، بعد تولي بني أمية الأمر في دمشق، ثم إن بني جعفر الطيار حكموا المدينة المنورة بفضل مناصرة قبيلة عنزة لهم، وامتدت سيطرتهم حتى شمال العلا وأطراف نجد والمناطق الواقعة بين مكة والمدينة، وأقطعوا قبيلة عنزة المناطق المحيطة بخيبر ومن ثم سمي الطيار «أبو عنزة»، وكان أميراً لعنزة بأجمعها لفترة طويلة من الزمن إمتدت لقرون متأخرة.

وقد جاء في «بحر الأنساب» أن لبني جعفر الطيار السيادة والعز والمنعة والبأس والعدد ببادية الحجاز[١]، وبذلك لم يكونوا على جهل بطباع البادية وأبنائها.

٣- لقد أورد الكاتب للتدليل على صحة معلوماته أن أمراء المدينة من آل الطيار قد استنجدوا بالخلافة العباسية، والتي أرسلت لهم القائد التركي «بغا» حيث شاركه محمد الطيار في حملته.

ولنا هنا وقفة تصحيح لمعلومات الكاتب سلمه الله، وهو أن الذي أرسل بطلب النجدة من الخلافة العباسية هو والي المدينة آنئذٍ «محمد بن صالح بن العباس»[٢] ولم يكن آل الطيار قد تمكنوا من حكم المدينة المنورة بعد «بحسب ما جاء في الكامل لابن الأثير».

---

(١) الشيخ محمد بن أحمد بن عميد الدين «بحر الأنساب» مخطوط، جامعة الملك سعود، ص ٢٣٤.

(٢) عارف عبدالغني «تاريخ أمراء المدينة المنورة» دمشق: دار كنان، ص ١٧٧.

و(إذا كان الأمر قد التبس على الكاتب الكريم «وهذا هو الأرجح» فيكون المقصود هو: محمد بن يوسف بن إبراهيم بن عبدالله بن موسى بن عبدالله بن الحسن المثنّى بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وليس المقصود محمد بن يوسف بن جعفر من آل الطيار.

فمن المعروف أن محمد بن يوسف الحسني قد ولي المدينة سنة ٢٥٢هـ[١]، وقد ظهر أمره في الحجاز، وكان قد ظهر قبله أخوه إسماعيل بن يوسف واعترض الحاج فقتل منهم جمعاً كثيراً، ونهبهم ونال الناسَ بسببه بالحجاز جهد كثير، ثم مات على فراشه فجأة سنة اثنتين وخمسين ومائتين، وقام أخوه محمد بن يوسف بعد وفاته وأزرى على فعله في السفك والنهب والفساد، فأرسل المعتز بالسفاح الأسروشي في عسكر ضخم، فهرب محمد منهم وسار إلى اليمامة فملكها، وملكها أولاده بعده ويقال لهم الأخيضريون.[٢]

٤- ثم أن ما أحدثه بنو سليم من القلاقل وقطع الطريق والإخلال بالأمن، يجعل كل منصف لا يلوم السلطة القائمة، سواء في المدينة أو بغداد، في ردعهم ومقاومتهم سواء ببغا أو بسواه. فقد جاء في الكامل لابن الأثير حول أحداث سنة ثلاثين ومائتين للهجرة مايلي:

في هذه السنة وجّه الواثق «بغا الكبير» إلى الأعراب الذين أغاروا بنواحي المدينة وكان سبب ذلك أن بني سليم كانت تفسد حول المدينة ويأخذون ما أرادوا من الأسواق بالحجاز بأي سعر أرادوا وزاد الأمر بهم إلى أن وقعوا بناس من بني كنانة وباهلة فأصابوا وقتلوا بعضهم في جمادى الآخرة من سنة ثلاثين ومائتين، فوجّه محمد بن صالح عامل المدينة إليهم حماد

---

(١) عارف عبدالغني «أمراء المدينة المنورة» ص ١٨٧.

(٢) أحمد الحسيني «عمدة الطالب» ص ١٣٤. ويلاحظ أنه حتى محمد هذا لم يكن له علاقة بأحداث بغا.

ابن جرير الطبري وكان مسلحة لأهل المدينة في مائتي فارس وأضاف إليهم جنداً غيرهم وتبعهم متطوعه، فسار إليهم حماد فلقيهم بالرويثة[١] فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزمت سودان المدينة بالناس وثبت حماد وأصحابه وعدد صالح من قريش والأنصار، وأخذ بنو سليم الكراع والسلاح والثياب، فطمعوا ونهبوا القرى والمناهل ما بين مكة والمدينة وانقطع الطريق، فوجّه إليهم الواثقُ بغا الكبير أبا موسى في جمع من الجند، فقدم المدينة في شعبان فلقيهم ببعض مياه الحرّة من وراء السوارقية[٢] قريتهم التي يأوون إليها وبها حصون.

فقتل بغا منهم نحواً من خمسين رجل وأسر مثلهم وانهزم الباقون، وأقام بغا بالسوارقية، ودعاهم إلى الأمان على حكم الواثق فأتوه متفرقين فجمعهم وترك من يعرف بالفساد وهم زهاء ألف رجل وخلّى سبيل الباقين، وعاد بالأسرى إلى المدينة في ذي القعدة سنة ثلاثين وحبسهم.[٣]

٥- أما عن إجلاء قبيلة عنزة وأسرة الطيار إلى صعيد مصر، فيكفي أن يعلم القارئ الكريم أن قبائل عنزة وأسرة الطيار لايزال تواجدهما متواصلاً وممتداً في الحجاز ونجد وشمال الجزيرة العربية منذ القرون الهجرية الأولى وحتى يومنا هذا «وإن كان هناك فروع قد دخلت سيناء ومنها إلى وادي النيل بقيادة بعض أسرة الطيار، ولم يكن ذلك جلاءً وإنما سعياً وراء الكلأ بدليل بقاء الجزء الأعظم لهذه القبيلة في مناطقه التقليدية، كما أن من ارتحل إلى مصر من هذه الأسرة وهذه القبيلة قد ارتحل قوياً وحلّ عزيزاً بدليل حروبهم التاريخية مع مماليك مصر».

---

(١) الرويثة: ماء لبني عجل في طريق الكوفة والبصرة إلى مكة.

(٢) قرية أبي بكر بين مكة والمدينة، وهي نجدية وكانت لبني سليم.

(٣) ابن الأثير «الكامل في التاريخ». مراجعة الدكتور محمد الدقاق، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢، ج ٦، ص ٨١.

وأما عن سقوط حكم هذه الأسرة للمدينة المنورة، فقد كان ذلك على يد أشراف مكة الحسينيين ومن حالفهم من القبائل وبدعم من الخلافة العباسية، وليس قبيلة بني زبيد وحدها، كما أن نفوذ هذه الأسرة وقبائل عنزة على المناطق الواقعة شمال المدينة المنورة قد استمر حيناً طويلاً بعد تلك الأحداث الدامية «والمعروفة بالفتنة الكبرى».

وحتى تتضح الصورة للقارئ الكريم، فإننا نوجد ذلك «بحسب المتوفر من مصادر» فيمايلي:

فبعد أن بدأ نفوذ آل الطيار يتعاظم في الحجاز من المدينة المنورة حتى أطراف مكة، أخذ أشراف مكة من الحسينيين يعملون للقضاء عليهم، فاتصلوا بالعباسيين للعمل على ذلك كما استعانوا في سبيل ذلك بالقبائل المحيطة بمكة. وكان العباسيون قد نقموا على بني الطيار إثر خروج بعض بني جعفر[١]، في العراق سنة ٢٥٠هـ، وقد قام عمر بن الفرج الرخجي «أحد قادة بني العباس» بحمل العديد منهم من الحجاز إلى سرمن رأى في العراق، وكان على رأسهم علي بن عبدالله الطيار فحبسه المتوكل مع من حبس.[٢]

وأخذ العباسيون يتربصون بآل الطيار، حيث قاموا بإمداد الحسينيين، وأعطوا لمحمد بن الحسن «الثائر» إمارة الموسم من العراق إلى الحجاز، حيث دخل المدينة المنورة بمن معه وتمكنوا من قتل الأمير موسى بن محمد بن يوسف الطيار عقب قتل أخيه عام ٢٦٦هـ، وقتل آنذاك عدد كبير من آل الطيار وسميت تلك الأحداث بالفتنة الكبرى، وعقب ذلك

---

(١) وهو يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن عبدالله بن إسماعيل بن عبدالله بن جعفر الطيار بن أبي طالب كما نسبه المسعودي المتوفي سنة ٣٤٦هـ «في مروج الذهب»، ويبدو أن صاحب «الكامل» المتوفي سنة ٦٣٠هـ قد توهم في نسبته إلى بني الحسين.

(٢) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ج ٢٢، ص ٢٢٥.

سلم الحسينيون ولاية الحرمين الشريفين لأخي الخليفة العباسي «المعتمد» والذي بدوره عقد ولاية الحرمين لمحمد بن أبي الساج عام ٢٦٦هـ.[١]

وتفصيل ذلك، أن محمداً وعلياً بني الحسن بن جعفر بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، دخلا المدينة المنورة بمن معهما، وقتلوا جماعة من أهلها، وطالبوا أهلها بالأموال، حتى أن أهل المدينة لم يصّلوا في مسجد رسول الله ﷺ أربع جمع «لا جمعة ولا جماعة»، وقتل حين ذاك ثلاثة عشر رجلاً من بني جعفر الطيار رضي الله عنه ـ صبراً ـ، وفي ذلك قال أبو العباس بن الفضيل:

أُخربت دار هجرة المصطفى البرّ ... فـأبكـي إخـرابهـا المسلمينـا
عين فابكي مقام جبريل والقبر ... فبكـيّ المنبـر الميمـونـا
وعلى المجد الذي أسّه التقوى ... خـلاءً أضحـى مـن العـابـدينـا
وعلـى طيبـة التـي بـارك الله ... عليهـا بخـاتـم المـرسلينـا

ومحمد بن الحسن المذكور هو المليط الثائر بالمدينة، وكان بدوياً ينزل آثال «وهو منزل في طريق مكة»، وكان موصوفاً بالشجاعة البارعة والفروسية الحسنة، وكان يتعرض الحاج ويطالبهم بالخفارة، فإن أعطوه وإلاّ أغار عليهم.

ثم أنه طرح نفسه على أبي عبدالله بن الداعي في بغداد، وسأله مسألة معزّ الدولة في تقليد إمارة الموسم من مدينة السلام إلى الحرم، فأوجب ابن الداعي في قصده إياه وذمامه، وسأل معزّ الدولة، فقال له معزّ الدولة:

أنا أقلدك أنت ذلك وأسأل الخليفة أن يعقد لك ويخلع عليك، فإن شئت فاستخلف أنت هذا الرجل فأنا لا أعرفه، وهو رجل من أهل البادية، وبالأمس كان لصاً، فإن جنى جناية على القافلة إلى أي شيء نرجع منه؟

(١) انظر: الكامل لابن الأثير، ج ٦، ص ٢٨٩، كذلك ص ٢٩١.

فقال ابن الداعي :

أما أنا فلا أتقلد هذا، فإن رأى الأمير أن يجيب شفاعتي ويقلّد الرجل وأنا أضمن له دركه وجنايته .

فقلده ذلك وعقد له وخلع عليه .[١]

وعقب هزيمة آل الطيار وخروج من سلم من القتل من المدينة المنورة، أخذت الأعراب تغير على أملاكهم جنوب المدينة المنورة، حيث أغارت بنو زبيد على المدن الخاضعة لهم في المناطق بين مكة والمدينة «وكانت آنذاك مدناً عامرة» وقد أورد هذا الهمداني والبلخي كما سلف معنا، وتلك المناطق هي الفرع والجحفة والمروة .

أما المناطق التي في شمال المدينة المنورة ومن أبرزها خيبر، فقد بقيت خاضعة لنفوذ آل الطيار، حيث امتدت عليها قبائل عنزة التي تزايدت أعدادها ونمت فروعها، وهي المناطق التي لا تزال قبائل عنزة فيها حتى يومنا الحاضر .

أما ما ذهب إليه البعض من إجلاء الطيار وقبائل عنزة إلى صعيد مصر، فإن هذا الأمر فيه من التحريف التاريخي الشيء الكثير، ويحتاج بدوره إلى توضيح حتى لا يلتبس الأمر على القارئ اللبيب، ولنقطع الطريق على كل من يريد أن يلبس الباطل لباس الحق .

فمن المعروف تاريخياً أن ما سمي بالفتنة الكبرى في المدينة المنورة قد ذهب ضحيته خلق كثير من آل الطيار، ولم ينج منهم إلاّ عدد قليل جداً[٢]، كان على رأسهم أمراء خيبر فيما بعد «وهم مادة كتابنا هذا» وكذلك أعقاب

---

(١) أحمد الحسيني «عمدة الطالب» ص ٢٤٨ . كذلك عارف عبدالغني «تاريخ أمراء المدينة المنورة» ص ٢٠٠ .

(٢) انظر : ابن عتبة أحمد الحسيني «المرجع السابق» ص ٦٦ .

إبراهيم «المقتول» بن يوسف بن جعفر، وقد التجأوا جميعاً إلى خيبر والتفّت من حولهم قبيلة عنزة، وعقب فترة من الزمن ارتحل أبناء إبراهيم الطيار ومعهم بعض قبائل عنزة ومزينة وفزارة إلى سيناء ومنها إلى وادي النيل، وبقيت فروع عنزة الأساسية وبعض أسرة الطيار في الجزيرة العربية.

وقد جاء في «البيان والإعراب» للمقريزي (٨٤١هـ) أن بني جعفر الطيار في مصر ثلاثة عشر بطناً وعدّ في أحلافهم عنزة وفزارة وبني عثمان الأمويين من قريش وبني خالد وبني مسلمة وبني ضباب وبني عسكر وبني ندا..

وكان ثعلب بن علي الطيار أميراً على آل الطيار ورئيساً للقوم وقد أنف ومعه عربان مصر من سلطة المماليك وثار في زمن المعزّ أيبك التركماني أول ملوك الترك بديار مصر، وكاتب الملك الناصر يوسف بن عبدالعزيز صاحب دمشق، وجمع عربان مصر، فخرجت إليه كتائب الأتراك من المماليك وحاربوه فقبض عليه وسجن بالإسكندرية، ثم شنقه الظاهر بيبرس.[1]

وقد فصل ذلك علي مبارك حيث قال:

كان بقرب دهروط مساكن كثيرة للعربان، ومسكن أميرهم الأمير حصن الدولة ثعلب بن الأمير الكبير نجم الدين علي كمجد العرب، وفي عام ٦٥١هـ قام ذلك الأمير وقامت معه جميع العربان براً وبحراً، ثم كتب ذلك إلى الأمير الناصر صاحب حلب ودمشق أن يتجهز إلى مصر وهو يكون معه بجميع العربان، وكانت خيّالته ١٢ ألف فارس غير عدد لا يحصى من الرجال.

---

(١) أحمد بن علي المقريزي «البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب»، القاهرة: المطبعة المحمودية.

وقد علم الملك المعزّ أيبك التركماني بذلك فجيّش الجند وسيرهم إليه مع الأمير فارس الدين أقطاي، والتحمت الحرب عند دهروط فحدثت مقتلة عظيمة من طلوع الشمس إلى الزوال، وبينما الأمير حصن الدولة «ثعلب بن علي الطيار» يجول في المعركة، إذ سقط عن فرسه، فاحتاطت به ودافعت عنه أتراكه «الأتراك» فما أركبوه فرسه إلاّ وقد قتل من رجاله نحو أربعمائة، ثم رأى الغلبة عليه فتقهقر بجيشه، وتبعهم المماليك بالقتل والأسر إلى دخول الليل، ومن وقتئذٍ تفرقت العربان وخمدت جمرتهم في مصر.

ثم إن «ثعلب بن علي الطيار» بعد جمع من بقي من أصحابه اتفق مع المعز على الصلح والدخول تحت طاعته، ووعده المعز بإقطاعات له ولرجاله على أن يكونوا من ضمن الجيش ويحاربون معه الأعداء، فاغتر «الطيار» وظن المماليك الأتراك لا يستغنون عنه في محاربة الناصر، وقام وسار برجاله إلى بلبيس، فلما قرب منهم وكان معه ألف فارس وستمائة راجل، نصبت لهم المشانق ما بين بلبيس والقاهرة، وصلبوا جميعاً، إلاّ الأمير «الطيار» فإنه أرسل إلى الإسكندرية وسجن، وأمر الملك المعز بازدياد القطيعة المضروبة على العربان، وأن يزادوا في القود على المعتاد، وأن يعاملوا بالشدة والقسوة، فذلّت العربان في مصر، وانكسرت شوكتهم ونقص عددهم للغاية بعد وقعة سخا المذكورة.[1]

وهكذا كما قدمنا نجد أن السياق التاريخي لا يشير إلى إجلاء قبائل عنزة وأسرة الطيار، كما رأى البعض، وإنما حصلت بعض التحولات السياسية في الحجاز منذ تولي بني أمية، ثم العباسيين «فمن الواضح إن

(١) راجع في ذلك: البيان والإعراب للمقريزي، ص ٣٢، كذلك محمد الطيب «موسوعة القبائل العربية» القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤١٧هـ، ص٧٥٦.

بني أمية نقموا على عنزة بسبب دورهم المشهود في معركة صفين» ثم أن بني العباس قد لعبوا دوراً في إخراج الطيار من المدينة المنورة وما حولها، ولكن وجود أسرة الطيار وقبيلة عنزة في خيبر وما حولها استمر وامتد بامتداد السنين والقرون حتى يومنا الحاضر.

أما نجوع البعض من عنزة وأسرة الطيار إلى مصر، فقد كان في مرحلة لاحقة في أواخر الخلافة العباسية، وكانت نجعة طبيعية سعياً وراء المرعى والكلأ، وبقي السواد الأعظم من قبيلة عنزة في الحجاز ونجد، كما سيمر بنا في الفصل القادم.

***

خامساً: في ظلال خيبر

التحام أبدي بين قبيلة عنزة والطيار «أبو عنزة»

بعد أن اظلمت جزيرة العرب «إلاّ من نور النبوة في المدينة المنورة» نتيجة للظروف السياسية التي تعقدت في الدولة الإسلامية من الفوضى والاضطراب، وكنتيجة لإهمال العنصر العربي في حواضر الدولة الإسلامية وفي جيوشها بالاعتماد على العناصر الفارسية والتركية كما أسلفنا، عاد الكثير من رجال البادية إلى مناطقهم الداخلية.

وهذه العودة تتزامن مع ما أشار الكثير من المؤرخين عن نزوح قبيلة عنزة ومن التفَّ بها من بني ربيعة إلى مناطق خيبر حيث آل الطيار. فقد أشار القلقشندي في «قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان»: إلى أن بني عنزة بن أسد بن ربيعة كانت ديارهم عين التمر من برية العراق على ثلاث مراحل من الأنبار، ثم انتقلوا عنها إلى جهات خيبر، فأقاموا هناك.

ومع عودة القبائل، وفي ظل عدم الاهتمام من السلطة بتنظيم أوضاعهم وترتيب ضرورات الحياة وتأمينها «ولو أبسطها كحفر الآبار» عاد كثير من مظاهر الحياة السابقة إلى البروز، ولعل من أهمها الحاجة إلى التكتل من جديد في قبائلهم على مرجعية واحدة وقيادة قبلية توحد صفوفهم وتحقق لأفرادها ما لم تحققه لها دولة الخلافة، ألا وهو الأمن والحماية وتوفير وسائل الحياة الأساسية، في ظروف بيئيةٍ قاسية جداً، ويزيد من قسوتها سنواتُ القحط والجفاف وإنتشار الأوبئة والأمراض.

فاجتمعت البطون والعمائر وتحالفت لتشكل تجمعات قبلية قوية لبسط السيطرة والنفوذ على مراكز المياه والآبار «على قلتها» وحماية حقها في

هذه العيون ضد باقي الأحلاف والقبائل.[١]

ولاشك أنه في ظل تلك الحقائق التاريخية، كانت منطقة خيبر بما فيها من العيون والآبار والنخيل والأشجار، مطمعاً لكثير من القبائل، لما تمتاز به من وقوعها على أهم المناطق المطروقة في الجزيرة العربية وهو طريق الحج العراقي والشامي، وما تتمتع به من مياه وزروع.

لقد كانت خيبر داخلة في ملك آل جعفر الطيار، كما أن مناطق البادية المحيطة بخيبر من أطراف المدينة المنورة إلى جنوب تيماء كانت هي المناطق التي نزلتها عنزة بن أسد بعد رجوعها من العراق. وكان الاتصال المباشر بين آل الطيار وقبيلة عنزة في منتصف القرن الهجري الأول وبدايات الثاني على وجه التقريب. وذلك حين التفّت قبيلة عنزة ومن انضم إليها من بني ربيعة حول علي بن أبي طالب في معركة صفين وما تلاها من أحداث. وكان أبناء جعفر الطيار ضمن قيادات ذلك الجيش. ثم، وعلى إثر الأحداث السياسية اللاحقة، انسحبت جموع عنزة ومن التف حولها من بني ربيعة إلى المناطق المحيطة بخيبر.

ولما كانت الزعامات القبلية قبل الإسلام قد اندثرت إلى حد كبير مع بزوغ فجر الإسلام، لالتفاف أبناء القبائل على راية الإسلام، وخروجهم في الجيوش الإسلامية مجاهدين في سبيل الله، الأمر الذي أدى إلى عدم الحاجة إلى الزعامة القبلية. فإن عودة مظاهر التكتل القبلي إلى الظهور أدت إلى الحاجة لأن تتقلّد أمر القبيلة زعامة واحدة ترعى مصالحها وتوحد كلمتها. ومن هذه القبائل كانت قبيلة عنزة من ربيعة التي بسطت نفوذها آنذاك من المنطقة الممتدة من أطراف المدينة المنورة إلى شمال العلا وحتى شرقي الحناكية. وكانت المناطق المحيطة بخيبر تحت هذه

(١) مقدمة ابن خلدون، صفحة ١١٤.

السيطرة والنفوذ، حيث كان آل الطيار يملكون مناطق خيبر. وكانت آنذاك العلاقات متوطدة بين الطيار وقبيلة عنزة، حيث رحب آل الطيار بقبيلة عنزة حين قدمت معهم إلى تلك المناطق، إلاّ أن العلاقة توترت بعد فترة قصيرة من التحالف. يقول ابن خلدون في «العبر» وكذلك صاحب المنتخب في ذكر أنساب قبائل العرب: «كانت ديار عنزة عين التمر من برية العراق على ثلاث مراحل من الأنبار، ثم إنتقلوا عنها إلى جهات خيبر فأقاموا هناك. وكان أهل خيبر بنو جعفر الطيار رضي الله عنه، وكانت ذات نخيل وزروع وأنهار فقصدتهم عنزة، ثم جرى بينهم عدة حروب». (١)

ثم توطدت بعد حين العلاقة على أثر أخذ المعاهدة بين كل طرف وصاحبه بأن يذودا عن بعضهما، حيث أصبح الطيار يكيل لكل عنزي يقصده في خيبر من نخيلها. وفي ظل الحاجة للزعامة الواحدة، اجتمعت عنزة على الطيار بعد أن توطدت العلاقة على المصاهرة واختلاط الدماء التي رسخها عبدالعزيز الطيار المسمى «أبو عنزة» وهذا اللقب لا يزال متواتراً حتى وقتنا المعاصر في هذه الأسرة. وقد جاء في «بحر الأنساب» لابن عميد الدين أن «لآل الطيار (في ذلك الحين) السيادة والمنعة في بادية الحجاز ولهم البأس والعز والعدد». (٢)

ثم محمد بن عبدالعزيز الطيار الذي قاد أخواله متوغلاً، ومرتحلاً بهم إلى مناطق نفوذ جديدة بفضل التفافهم حوله، وكذلك لما تمتع به من روح قيادية.

---

(١) عبدالرحمن اللامي الطائي «المنتخب في ذكر أنساب قبائل العرب»، تحقيق: د. إبراهيم الزيد، صفحة ٤٣٠.

(٢) الشيخ محمد بن أحمد بن عميد الدين «بحر الأنساب» مخطوط في جامعة الملك سعود، ص ٢٣٤.

ولإلقاء الضوء على شكل العلاقة في بداياتها «في القرن الثاني الهجري وما تلاه» يحدثنا شارح ديوان «ابن المقرب» في الطبعة الهندية فيقول:

إن لُعيباً رجل من عنزة وابن ذكاء الصبُحُ، وخيبر بلد يسكنها بنو جعفر الطيار ابن أبي طالب، وكان الحديث أن قوماً من بني ربيعة ابن أسد ابن ربيعة أكثروا الغارات على خيبر، وهي أرض ذات أنهار ونخيل وزروع، وظهروا عليها لكثرتهم وقوتهم وملّ أهلها الحرب، ودخل عليهم خراب الثمار فصالحوهم على شطرين من ثمار نخلها، فصاروا ينزلون عليها مدة القيض وأقاموا على ذلك مدة مديدة، ثم صاروا كل عام يحولون بينهم وبين الثمار حتى لا يزيد لهم شيء، فما زال ذلك دأبهم حتى لم يبق لبني جعفر إلا القليل، ثم أنهم لم يرضوا منهم بذلك، فحاربوهم حرباً حالوا فيه بينهم وبين الثمار.

وصاروا يصبحونهم الحرب ويراوحونهم، فقالوا يا سبحان الله ماذا تطلبونه عندنا، فقالوا: نطلب عندكم أن نجعل فيها رجلاً يكون معكم من قبلنا، فاجتمع بعضهم على بعض وتشاوروا في أمرهم فلم يجدوا من ذلك بُداً، فبعثوا إليهم أن حُباً وكرامة لما دعوتهم إليه، فولّوها رجلاً منهم يقال له «لُعيب» وجعلوا معه أربعمائة رجل من مقاتلتهم وشجعانهم، ورحلوا حتى تباعدوا لطلب المرعى لمواشيهم، ثم أن بني جعفر مشى بعضهم إلى بعض وتشاكوا ذلك الأمر فيما بينهم، وقال بعضهم لبعض الموت أسهل وألذُ مما نحن فيه، وضربوا للقيام على لعيب وأصحابه فقبضوا عليهم فلم يفلت منهم إنسان، فصالحوهم ودفنوا ما كان بينهم ورجعوا إلى العادة الأولى.

وفي ذلك يقول ابن المقرب:

يـا للـرجـال ألا فتـى ذو نجـدةٍ يحمـي بمُنصَلـهِ علـى العليـاءِ

تا الله أُقسِمُ لو دَعَوتُ بنُدبَتي ... حيّاً للبّى دعوتي ونِدَائي
لكنني ناديتُ موتى لم تزَل ... أشباحهُمُ تمشي معَ الأحياءِ
أَلِفُوا الهوانَ فلو تناءى عنهُمُ ... لسعوا لبُغيتهِ إلى صنعاءِ
للَّه قومٌ من ذُؤَابةِ «جعفر» ... لم يُغمِضُوا جفناً على الأقذاءِ
لمّا رأوها أنها هيَ صمّمُوا ... تصميمَ تغلِبَ وائلِ الغلباءِ
حتى سقوا عَلَلاً صدُورَ سُيُوفِهِم ... عَلَقاً يُبَرِّدُ غُلَّةَ الشَّحناءِ
تركوا «لُعيباً» في مَئِينٍ أربعٍ ... جزراً قُبَيلَ تَنَوُّرِ ابنِ ذُكاءِ
فهُنَاكَ طابت خيبَرٌ واستبدَلَتْ ... من بعدها السَّرَّاءَ بالضَّرَّاءِ
ما ضَرَّ أشبَاهَ الرِّجَالِ لو أنَّهُم ... فعلُوا كفِعلِ أُولئك النُّجبَاءِ

هكذا كان التوتر، وهكذا كانت بعد ذلك العلاقة الحميمة، حيث وجدت قبيلة عنزة في هذه الأسرة إباءاً وكرماً، جربتهما في أختلاف وجه العلاقة، فوجدت طلبتها وبغيتها في هذه الأسرة، فكانت تلك اللُحمة والارتباط الذي امتد بامتداد مئات السنين إلى وقتنا الحاضر، حيث بقيت هذه الأسرة عنزية النسب والدم، هاشمية الأصل، ترقى إلى أشرف محتد في بيت النبوة، ولها في الأمجاد تاريخ طويل أمتد بامتداد زعامتها في قبيلة عنزة أكبر القبائل العربية وأوسعها على الإطلاق.

***

الفصل الثاني

في القرون الهجرية الوسطى

أولاً : الطيار يقود قبائل عنزة في نجد والحجاز

ثانياً : الشيخ كنعان الطيار

ثالثاً : امتداد قبائل عنزة شمالاً

أولاً: الطيار يقود قبائل عنزة في نجد والحجاز

تعود قبائل عنزة في جذورها القديمة إلى بني ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.[١]

قال صاحب «نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب»:

دخلت جزيرة العرب فسألت هل بقي في أقطارها أحد من بني ربيعة. فقالوا لم يبق من يركب الخيل وفيه عربية وحل وترحال غير عنزة، وهم بجهات خيبر.

أما الجزيري «من أهل القرن العاشر الهجري» فيقول في «الدرر الفوائد»[٢]:

إن عربان عنزة يأتون من حوالي المدينة الشريفة وحدودهم من طرف الحنك من الجهة القبلية إلى المدينة الشريفة إلى آبار علي إلى جبل مفرح، وربما يتبع الحاجَ منهم نفرٌ في بعض الأحيان من أكرى.

ثم قال:

وعنزة بدنات منهم حجاج وجبّارة والمصاليخ وبشر وولد علي والشملان والعمارات والسبعة «بسين مهملة بشدة مضمومة» والسحالين وبنو سليمان والطوالعة والجلاس «بفتح الجيم المعجمة» والحسنة والفدعان والشراعبة ووهب.[٣]

---

(١) راجع في تفصيل ذلك «أصدق الدلائل في أنساب بني وائل» ص ٤٢.

(٢) عبدالقادر الجزيري «الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة» ص ٢٣٠.

(٣) وهذا التقسيم فيه تداخل، فقد ذكر حجاج وهم الحجاج وهو لقب لبعض عشائر المنابهة ولا وجود لهذا الاسم حالياً، ثم ذكر جبّارة والطوالعة وولد علي، والأصح أن جبّارة والطوالعة من قبائل ولد علي. ولمزيد من الإيضاح يمكن الرجوع إلى «أصدق الدلائل في أنساب بني وائل» ص ٥٥.

وقد التحق من بقي على بداوته من بني ربيعة «بكر وتغلب وشيبان» إلى أبناء عمومتهم من عنزة، وذلك بعد أن انصهرت أغلب هذه القبائل في الحواضر الإسلامية على إثر الفتوحات الإسلامية، حيث تراجعت هذه القبائل إلى داخل الجزيرة العربية «كما مر بنا سابقاً» وسكنت شمال المدينة المنورة وأطراف خيبر، وأصبحت جميعها تعرف باسم «عنزة».

وقد وفدت وفود عنزة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة، فعن سلمة بن سعد أنه وفد إلى الرسول ﷺ هو وجماعة من أهل بيته وولده، فاستأذنوا عليه فدخلوا، فقال ﷺ: «**من هؤلاء؟**» فقيل له وفد عنزة.

فقال ﷺ: «**بخ بخ بخ نعم الحي عنزة مبغي عليهم منصورون، مرحباً بقوم شعيب وأختان موسى سل يا سلمة عن حاجتك**». (١)

فقال: جئت أسألك عما افترضت علي في الإبل والغنم والعنز، فأخبره. ثم جلس عنده قريباً، ثم استأذنه في الانصراف، فقال ﷺ: «**انصرف**». فما غدا أن قام، قال ﷺ: «**اللهم ارزق عنزة كفافاً قوت ولا إسراف**». (٢)

وعن حنظلة بن نعيم أن عمر بن عاصم جاءه فقال: يا أبا رباح ما الذي ذكر لك أمير المؤمنين عمر حين قدمت عليه في قومك.

قال: مررت عليه فقال من أنت وممن أنت؟

فقلت: يا أمير المؤمنين أنا حنضلة بن نعيم العنزي. فقال: عنزة؟

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٦٣٦٤)، وجاء في الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد (٥٠٨) كما جاء في المسند للإمام أحمد بن حنبل (١٤١) وقال إسناده صحيح وأورده صاحب كنز العمال (٣٨٠٠١) كما أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٥١).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٧/ ٦٣) والبزار في الزوائد (٢٦٨) كما جاء في مسند الإمام أحمد (١٤١) وقال إسناده صحيح كما جاء في الفتح الرباني (٥٠٨).

قلت: نعم. فقال: أما وإني سمعت رسول الله ﷺ يذكر قومك ذات يوم وأشار بيده نحو المشرق فقال: «**حيّ من ههنا مبغي عليهم منصورون**». (١)

ومما جاء في فضل ربيعة ما أورده الهندي في «كنز العمال ١٢/ ١٦» في بكر بن وائل عن أبي عمران محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن عن أبيه عن جده قوله ﷺ: «**اللهم أجبر كسيرهم وآو طريدهم ولا ترد منهم سائلًا**».

وقد ذكر هذا الحديث أبو العباس أحمد بن محمد بن حجر المكي الهيتمي في «مبلغ الإرب في فخر العرب»، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم أجبر كسيرهم وآو طريدهم ولا ترني فيهم سائلا**» وفي رواية: «**عائلًا**».

عن خالد بن معدان أن عمر بن الخطاب كتب إلى يزيد أن ابعث جيشاً وادفع لواءهم إلى رجلٍ من ربيعة، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يهزم جيشٌ لواءهم مع رجل من ربيعة**»(٢)، وقال في حديث آخر حسن: «**إن العدو لا يظفر على قومٍ لواؤهم، أو قال رايتهم، مع رجل من بني بكر بن وائل**». (٣)

وتنقسم قبائل عنزة في عصرنا الحالي إلى قسمين رئيسيين وهما ضنا مسلم، وضنا بشر. وينقسم كل ضنا بدوره إلى قسمين، حيث يتفرع من ضنا مسلم بني وهب والجلاس. أما ضنا بشر فيتفرع عنه العمارات وضنا عبيد. وذلك كما هو موضح في الرسم البياني المرفق لقبائل عنزة الرئيسية في عصرنا الحالي(٤):

---

(١) رواه أبو يعلى في الكبير والطبراني في الأوسط، وأورده الإمام أحمد بن حنبل في مسنده وقال إسناده صحيح (١٤١).

(٢) أبو أحمد الدهقاني في الثاني من حديثه، ورجاله ثقات. وأورده صاحب كنز العمال (٣٨٠٠٣).

(٣) مجمع الزوائد للحافظ الهيثمي (٥/ ٣٢٢).

(٤) انظر التفاصيل في «أصدق الدلائل في أنساب بني وائل».

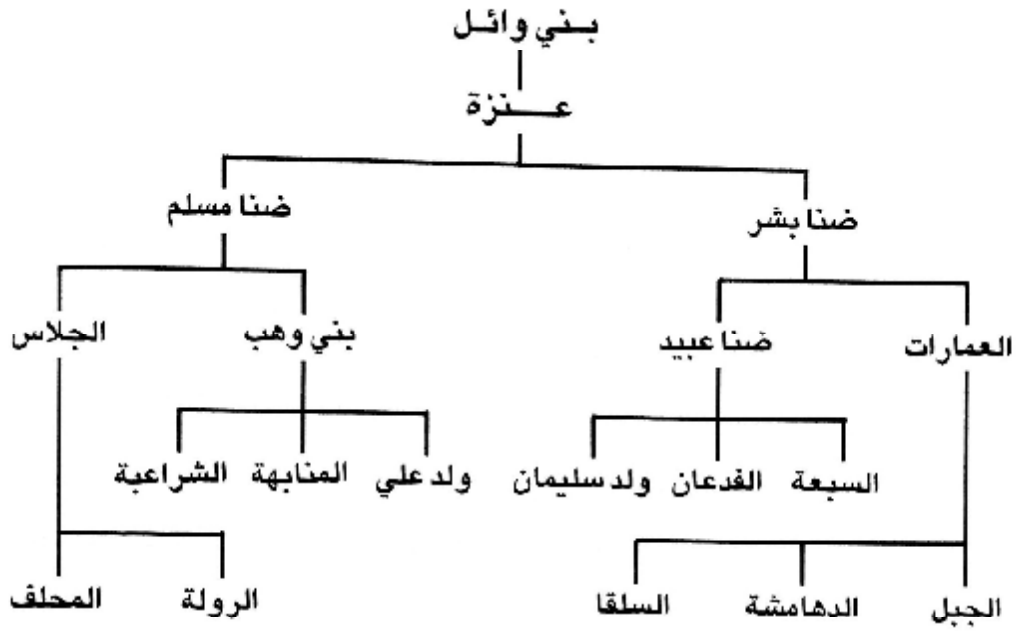

لقد تفردت أسرة «الطيار» بزعامة قبائل عنزة فترة طويلة من الزمن، فهي بلاشك أقدم أمارة زعامة في عنزة، وأمجادها ضاربة في أطناب التاريخ نقلتها بطون الكتب وحفظتها صدور الرجال وتواترت على ألسنة الرواة.

فبعد أن أقطع الطيار قبيلة عنزة ملك خيبر، سار بهم إلى المناطق الممتدة شرق الحجاز، حيث كان لعنزة برئاسة الطيار «في القرن التاسع الهجري» السيطرة والغلبة على منطقة ممتدة من وسط نجد وحتى جنوب العراق وإلى اطراف المدينة المنورة.

ومما جاء في «تحفة المشتاق من أخبار نجد والحجاز والعراق لابن بسام»، حول أحداث تلك الفترة، ومما ذكره عن أحداث عام ٨٥٣هـ: أن في هذه السنة تناوخت قبيلة عنزة من جهة وحلف لمجموعة من القبائل من جهة أخرى على منطقة «نفي» في نجد[1]، وكان رئيس عنزة حينئذٍ

(١) حرصنا على عدم التصريح بأسماء تلك القبائل لما قد يثيره ذلك من حساسية، ويمكن=

جاسر الطيار.

وأقاموا في مناخهم نحو عشرين يوماً، يغادون القتال ويراوحونه طراداً على الخيل، ثم إنه مشى بعضهم على بعض، وحصل بينهم قتال شديد قتل فيه عدة رجال من الفريقين.

ومن مشاهير القتلى في هذه الموقعة جاسر الطيار، ولاحم بن حصن من عنزة.

ثم دخلت سنة ٨٥٤هـ، وفي هذه السنة صمم الشيخ فهد بن جاسر الطيار أن يكيل للحلف السابق ثأراً لمقتل والده الأمير جاسر الطيار. وعن ذلك يحدثنا ابن بسام: في هذه السنة (٨٥٤هـ)، تناوخوا عنزة والحلف السابق على منطقة «الضلفعة» المعروفة في ناحية القصيم.. حيث تقاطرت فرسان عنزة والتفّت حول فهد بن جاسر الطيار.. وأقاموا في مناخهم أربعة وثلاثين يوماً، حتى أكلت الإبل أوبارها من الجوع، من طول المناخ..

وكانوا في مناخهم ذلك يغادون القتال ويراوحونه طراداً على الخيل، ثم إنه مشى بعضهم إلى بعض، واقتتلوا اقتتالاً شديداً، وصارت الهزيمة على القبائل المتحالفة، واستولوا عنزة على محلهم وأغنامهم وأخذوا كثيراً من إبلهم.. وقتل من الطرفين خلق كثير.

ثم يخبرنا ابن بسام أن زعيم احدى تلك القبائل المتحالفة استنجد عام ٨٦٠هـ بالقبائل الأخرى من الحلف المشار إليه، وباغتوا قبائل عنزة على «أوضاخ» وهزموهم، وقتل من الفريقين عدة رجال.

ثم أن قبائل عنزة حشدت رجالها عام ٨٦١هـ في منطقة «السر» وناوخوا

= للقارئ الكريم الرجوع في ذلك للمصادر الأساسية مثل كتاب الفاخري أو تحفة المشتاق لابن بسام أو أخبار القبائل في نجد للحربي.

ذلك الحلف من القبائل، وأقاموا في مناخهم نحو عشرين يوماً، وصارت الدائرة على تلك القبائل، وغنموا منهم عنزة من الإبل والأغنام والأمتعة والبيوت شيئاً كثيراً وقتل من الفريقين عدد كثير.

وممن قتل من مشاهير عنزة: صنيتان بن بكر، ونايف الديدب، وحصن آل قاعد.

ويشير ابن بسام إلى أنه في عام ٩٥٦هـ تناوخ عنزة من جهة، ونفس ذلك الحلف من جهة أخرى، وأقاموا في مناخهم عدة أيام، ثم أنهم مشى بعضهم على بعض، واقتتلوا قتالاً شديداً. وقتل من الطرفين عدة رجال، فمن مشاهير عنزة قتل: ضويحي الطيار وفهاد بن بكر.

وفي سنة ٩٦٦هـ تناوخوا عنزة من جهة، والحلف السابق من جهة أخرى «وكان قد دخل ذلك الحلف قبائل أخرى في مواجهة عنزة» أيام الربيع في «المستوي»، ومع عنزة فدغم آل مسعود وراجح بن ناشي من شمر.

وأقاموا في مناخهم نحو عشرة أيام يغادون القتال ويراوحونه طراداً على الخيل. ثم إنهم مشى بعضهم على بعض وإقتتلوا قتالاً شديداً.

وقتل من الفريقين عدة رجال: فمن مشاهير عنزة: ناصر الطيار وفهد ابن مجلاد.

ومن شمر: فدغم آل مسعود وحاضر بن مشهور وخلف بن عفنان.

وفي عام ١٠٣٢هـ موقعة لعنزة في «السر»، وهو مناخ عنزة واحدى القبائل، الذي أقاموا فيه عشرين يوماً يغادون القتال ويراوحونه طراداً على الخيل، ثم أنهم مشى بعضهم على بعض وحصل بينهم قتال شديد، حيث دارت الدائرة على تلك القبيلة وتركوا حلالهم فغنمتها عنزة.

ومن مشاهير عنزة في هذه الموقعة غنيمان الطيار ولطام بن مجلاد.

وجرت عام ١١٤٠هـ موقعة لعنزة في جلاجل وهي وقعة الساقي، وفيها تحالفت عنزة والشريف محسن بن عبدالله بن حسين، والأمير علي ابن محمد بن غرير آل حميد أمير بني خالد، وقد نتج عن هذه المعركة نصر مؤزر للحلف المشار إليه.

وفي هذه السنة إكتال الطيار من التويم.

وفي سنة ١١٤١هـ مناخ لعنزة في «منفوحة»، وفي نفس السنة حاصرت عنزة العارض وشيخ عنزة آنذاك الطيار.[١]

وفي السنة التي تلتها أخذ الطيار احدى القبائل في العرمة ومعهم شريداً غيرهم «أي بقايا من القبائل الأخرى»، كما أقبل الشريف محسن ومعه عنزة وناوخوا ابن حلاف والذي معه من على ساقي الخرج واقاموا عليه شهراً متناوخين وظهر عليهم علي بن محمد «آل حميد» من الحسا بعسكر كثير «متحالفاً مع عنزة والشريف محسن» فأخذوا بعض القبائل، وانهزم لتلك القبائل سبعون فرس وركاب ودبش وهي وقعة الساقي المشهورة.

وفي السنة التالية لها حاصر الطيار بعض القبائل في العارض وأخذ منهم إبلاً كثيرة.[٢]

---

(١) أصدق الدلائل، صفحة ١١٤.

(٢) المصادر:

* الفاخري، محمد بن عمر «الأخبار النجدية»، تحقيق د. عبدالله الشبل، صفحة ١٠٢.
* العصامي، عبدالملك «سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي».
* ابن بسام، أحمد وعبدالله «تحفة المشتاق من أخبار نجد والحجاز والعراق»، وهو من أقدم مؤرخي نجد، عالم نجدي تولى القضاء في سدير، وتوفي في العيينة سنة ١٠٤٠هـ. وقد قام حفيده عبدالله البسام بإكمال جهده، وقد توفي بدوره عام ١٣٤٦هـ، رحمهما الله.

وهكذا نجد أن قيادة الطيار ورئاسته لعنزة شهدت على مدى قرون من الزمن الكثير من الأحداث في سبيل السيطرة على مناطق النفوذ.

إلا أن الاتساع في مناطق النفوذ، وتضخم أعداد أفراد قبائل عنزة، نتج عنه بروز العديد من القيادات التي بدأت ببسط نفوذها على مناطق جديدة، فبرزت العديد من الأسر المشهورة في قبيلة عنزة في مختلف الأفخاذ والبطون، والتي لعبت دوراً كبيراً في التاريخ الحديث نسبياً لهذه القبيلة، حيث امتدّ نفوذ عنزة نتيجة لذلك إلى خارج شبه الجزيرة العربية، فبسطت سيطرتها على مناطق كبيرة في العراق وبلاد الشام، وبدأت بمزاحمة قبائل تلك المناطق والتصادم معها، إلى أن رسخت وجودها هناك امتداداً لوجودها داخل شبه جزيرة العرب.

وبقي لأسرة الطيار مكانتها السابقة، ممثلاً فيما تتمتع به هذه الأسرة من الإجلال والتقدير في كافة فروع قبائل عنزة على إمتداد مساحتها الجغرافية والبشرية، وبقيت أسرة الطيار تتزعم قبائل ولد علي من بني وهب حتى يومنا الحاضر.

وسنختار في الصفحات التالية نماذج من تاريخ بعض رجال هذه الأسرة، فكما كان لنا لقاء مع النموذج الأول في ماضي هذه الأسرة العريق وهو الصحابي الجليل وابن عم رسول الله ذو الجناحين جعفر الطيار «أبو المساكين» ثم «بحر الجود» عبدالله بن جعفر الطيار، فإننا سنلتقي بأحد نماذج هذه الأسرة في تاريخها الوسيط وهو **كنعان الطيار**، ثم بعض النماذج لتاريخها المعاصر نسبياً وهم الشيخ **صالح الطيار** «ممرور العيال»، والشيخ **سطام الطيار**، ثم الشيخ **سلطان بن سطام الطيار**، وذلك على النحو التالي:

***

ثانياً: الشيخ كنعان الطيار

كنعان بن شعيل الطيار من الرجال الذين يتمتعون باحترام وتقدير خاص لدى أبناء البادية لما لتاريخه وسيرته من نكهة خاصة، وذكرى عطرة حتى يومنا الحاضر، فشخصيته جمعت كل ما في الخيال الأسطوري للبادية في واقعٍ حقيقي لا خلاف عليه.

فهو الفارس المغوار في ساحات الوغى، وعند طراد الخيل، والذي لا يضاهيه، إلاّ القلائل من أبناء البادية عبر تاريخها عند الحديث عن فرسان البادية وسراتها وشجعانها، وهو الذي طوّف في أرجائها وحيداً في أغلب الأحيان.

وهو في جانب آخر من شخصيته، العاشق المتيم الذي يتداول قصصه شباب البادية في سمرهم وعند الحديث عن العشق العذري العفيف، فيندر ألاّ تجد ذكراً لهذا العاشق في بطون الكتب التي تناولت القصص الشعبي.

وهو الشاعر المفوّه ممن لا يزال شعره متداولاً حتى يومنا الحاضر بالتواتر، ولا نبالغ إن قلنا بأنّ شعره من شعر البادية الذي سيبقى خالداً.

ونحن لن نسهب في تقديم هذه الشخصية الفذّة، بل سنعايشها منطلقين رجوعاً بالسنين إلى الوراء حوالي مئتين وخمسين سنة حيث يحط بنا الزمان في حوالي عام ١١٦٠ هـ (١٧٤٠م) علة وجه التقريب.

أما المكان فهو بادية نجد، في مضارب قبيلة عنزة، والتي تمتد بيوت الشعر والخيام فيها بامتداد النظر لتعانق الأفق الرحيب.

وتأخذ أبصارَنا شمسٌ قد ودّعت بالمغيب، ناشرةً على الأرض الفضاء سنا نورها الأرجواني الأخير، صابغة وجنة الكون الرحيب بحمرتها الدافئة،

محتضنة خط الأفق البعيد برفقٍ وحنان.

ويشنف آذاننا حداء الرعاة وهم يدفعون قطعان إبلهم عائدين، وقد اختلط حدائهم الساحر برغاء الإبل مع بعض الثغاء من هنا أو هناك.

والقوم قد عقدوا مجالسهم وأشعلوا نيرانهم وفي كل مجلس نجر ينادي أو ربابة تُجرّ.

وبين الخيام المنتشرة اختلط الراكب بالراجل، فالراكب إمّا على ظهر جواد أو على أشدة النياق، والراجل حثّ خطاه إلى وجهةٍ ما، إلى بعض الخيام باحثاً عن مسامر أو طالباً لحاجة.

وهناك على سفح ضلعٍ مشرف، يزيّن المنظرَ الساحرَ بيتٌ يزدحم بالرجال ممن زيّنت ولوّنت وجوههم شمس الصحراء بسمرة تكاملت مع قسماتهم الحادة، التي تناسبت مع قسوة الصحراء وخشونة الحياة فيها.

وفي وسط هذا الجمع الحاشد جلس الشيخ «شعيل الطيار» متكئاً على أحد الأشدة، مسامراً الجمع. ومجاذباً إياهم أطراف الحديث عما سلف من أيامٍ خوالٍ.

وفي المدى البعيد.. وعلى ضوء الشمس المنكسرة والمؤذنة بالمغيب.. يلوح فارس يخبّ الأرض خباً على ظهر فرسه، وهي تضرب الأرض بقوائم ثلاث وقد علقت الرابعة، وكأنها تطرب فارسها بوقع حوافرها ذات الصوت الإيقاعي المتناغم فالتزمت بهذا الرتم الجميل.

وبعيون البدوي ذي النظر الحاد والثاقب يعلن الشيخ شعيل، بأن كنعان ابنه ووحيده قد أقبل بعد غياب أيام، جال فيها وحيداً في البادية، فيهنئه الجمع بسلامة وصوله..

وبعد هنيهة يصل الفارس الشاب، لنراه مقبلاً وقد أرسل ضفائره على

كتفيه «كعادة فرسان البادية» متمنطقاً سيفه ورمحه، وبقسماتٍ تتفجر بالرجولة، جال بنظره بمجلس أبيه، فالتزمت عيناه مكان أبيه، ثم حيّا مسلّماً. . فاستقبله الجمع بحفاوة وحب.

وينعقد المجلس من جديد. . ولكن الصمت يطبق على الجميع وقد شخصت أبصارهم بفارسهم متحفزين لسماع ما بجعبته من أنباءٍ وغرائب.

الأمير شعيل: إلى أين كان المسير هذه المرة يا كنعان؟

كنعان: إلى شمال نجد يا والدي. . وقد حصل لي أمر من أعجب ما يروى!!

الأب: وما ذاك يا كنعان؟

كنعان: حين انطلقت من هنا منذ أيام، مررت على الرعاة لأطمئن عليهم وأتفقد أحوالهم قبل مسيري، وقد وجدت أن كل شيء على أحسن ما يرام، وبعد أن طال بي المكوث هناك عزمت على إكمال مسيري، وعندما هممت بتوديعهم، لم ألمح «سالماً» بينهم. . وحين سألتهم عنه، لمحت في عيونهم ما يريب، فألححت عليهم بالسؤال، فذكروا لي بأنه مختفٍ بين الإبل لأمر جناه ويخشى عواقبه، فرفعت صوتي مستحلفاً إياه أن يظهر وله مني الأمان مهما كانت جنايته وما أتاه من ذنب. . إلاّ أن يكون خيانة. . فظهر مقبلاً يجرّ خطواته بتثاقل، حالفاً بأغلظ الأيمان أنه لم يتعمد قتل الناقة.

فقلت له: أي ناقةٍ تقصد، فأجاب بأن إحدى النياق الخلج حنّت على وليدها، وأزعجت كل من على المورد، وأنه رماها بحصاة على رأسها غير قاصد إيذاءها، فاخترقت رأسها من الجانب الآخر فسقطت الناقة من حينها.

حين ذاك أدركت بأن الحصاة التي ذكرها غير ما نعرف، فطلبت منه

أخذي إلى حيث الموقع، وحين وصلنا إلى هناك وجدت حفرة واسعة وبعمق قامة الرجل، وفي أسفلها قطعة صخر ثقيلة وكأنها معدن. فأمرته بكتمان الأمر وأنني لن أعاقبه إن هو كتمه، على أن يجهّز لي رحولاً من نجائب الإبل العمانية.

الأب: وما تلك القطعة يا كنعان؟

أحد الجلوس: ومن الذي وضعها في تلك الحفرة؟

كنعان ضاحكاً: هي حفرت لنفسها تلك الحفرة.

الأب: وهل يعقل ذلك يا بنّي، إن روايتك هذه مما يسفّهك في عيون الرجال..

كنعان جاداً: إن ما قلته هو الصدق بعينه يا والدي.

الأب باستنكار وحزم وقد بدت في محياه علامات الحرج من القوم: كنعان.. إنك تجعل من نفسك أحدوثة القوم، دعك من هذا الحديث وحدثنا بما يعقل أو دع عنك عناء الحديث.

كنعان: والله ما حدثتكم إلاّ حقاً يا والدي، فهذه القطعة المعدنية بنفسها حفرتها، فهي نيزك سقط من السماء على الأرض فأحدث سقوطه تلك الحفرة.

الأب: الآن أدركنا ما تعني.

أحد الحضور: ذلك ما جاء بالقرآن الكريم ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾.

اخر: وماذا فعلت بها يا كنعان؟

كنعان: حملتها معي على إحدى النجائب ويممت شمالاً إلى «المزيني» المعروف بجودة صناعته في «الكهفة» في «حائل». وطلبت منه أن يصنع لي منها مخرازاً وأنا عنده، فلما أتم صناعة المخراز، قلت له سآخذ

المخراز، وسأبقي لديك باقي القطعة لتصنع لي منه خنجراً وسيفاً أو أيهما ترى أن القطعة تكفيه، وسأعود إليك بعد مدة لآخذه منك.

أحد الحضور: وما شأنك بالمخراز يا كنعان مادمت تريد سيفاً وخنجراً.

كنعان: سأخبرك بذلك حين أعود في المرة القادمة ومعي السيف والخنجر.

الأب: وماذا قلت في ذلك من شعر، فلا أراك إلا وقد نظمت في ذلك قولاً، ونرغب في سماعه.

كنعان: نعم.. فقد قلت:

قم يالمزيني خنجري سوهالي ... وأنا عليّ أشراعه إن مهلّت لي
حقٍ علي أشراعها بالتوالي ... أقضي ديونٍ يالمزيني غدت لي
كفيت عيونك شر سود الليالي ... ويمينك اللي بالعدل انصحت لي
حديدها من مصنعة جان غالي ... من يوم شفته يالمزيني زهت لي
صناعها عمال فتل الكمالي ... بتقانها عورج مع النثر فتلي

وبعد عدة أيام من الإقامة في مضارب قومه، يزمع الفارس الشاب كنعان الطيار على الرحيل كعادته.. فهو ابن الصحراء.. الحاضر في عين شمسها دائماً، والمتلحف سواد ليلها وظلمته في قفرها الموحش ويقف في ربعة أبيه مودعاً والده والجمع الحاضر هناك. ثم ينطلق بين الخيام الممتدة على صهوة فرسه ومعه بعض رفاقه.. مودعاً هذا.. ومسلّماً على ذاك.

وأثناء مروره في الحي.. إذ به بمجموعة من فتيات الحي ممّن توعدن مقدمة، ووقفن في ذلك المكان لعلمهن أن هذا المكان سيمر به كنعان حين خروجه، وكان من بينهن فتاة هي آية في الحسن والجمال وممّن برعن في فنون الشعر.

هي ضبية الحي.. كانت مرسلة قذلة شعرها على مساحة وجنتها،

فزادها ذلك ألقاً وجمالاً.. بينما أخفت شفتيها بلثام تراخى عن أنفها الأشم، وعانقت أطرافه وجنتاها المضيئتان.. مما استوقف الفارس الشاب كنعان والذي علم بأنه المعني بكل هذا المهرجان الأنثوي الصامت.

فقال موجهاً الحديث لضبية الحي دون باقي الضباء لعلمه أنها قادرة على محاورته:

هـلا هـلا وحييّـت يـابـو قـذلّـي ألفِ صباحٍ لك وألفِ مساً لي
ألفِ فراشٍ لك مع ألفِ غطاً لي ما تسقي اللي يابساتٍ أشفيّه

فأجابته على الفور قائلة:

هلا هلا باللي كلامه يداوي فوق الكحيله مثل فرخ النداوي
يا شيخ ما حنّا لصيدك حراوي والشيخ مثلك ما يجي للرديه

وقد عنت بذلك أنها راغبة به بالحلال.

فأجابها كنعان:

أنا كما طيرٍ خفق بالجناحي شافك من الزرقا ورخّى عوانيه
تعـذري يـمّ الثمـان المـلاحـي العذر من مثلك نشوفه ونبغيه
من ذاق حب السلهمة ما استراحي لو كان عود وشاياتٍ نواصيه

فقالت: لو أنك تطلبني من والدي أو أحد أعمامي لكان أجدى..

فأخذ لفظها «أو» و «لو» وقال:

يا شوق ما مثلك لمثلي يقول أو وأنا على قربك كثير الحسايف
ما ينفع الهويان لو قلت له لو عطشان يشرب من قراح الشفايف
وجدي عليكم وجد من ضاع بالدوّ[1] بالقيض وأفخت موميات السفايف[2]

---

(١) الدوّ: الصحراء القاحلة المقفرة.

(٢) القيض: الصيف. موميات السفايف: الركائب.

أو وجد من له بكرةٍ عاسفة توّ ... صوابها بالقلب ما هو مسايف
أو وجد من له بكرتينٍ على بوّ[١] ... سرابهن مع تالي الليل حايف[٢]
أو وجد من له هجمتن طلعة الضو ... قفّوا بها الطماع صارت عرايف[٣]
أو وجد من له غرسة صابها نّو ... ضرب البرد خلاّ جناها نتايف

وأشار لها ولصويحباتها بالوداع إلى لقاءٍ قريب بعد هذه المداعبة من الطرفين، ولكز فرسه شمالاً إلى حيث المزيني، فقد حان موعده.

وفي سوق حائل كان المزيني يترقب كنعان وقد أضمر في نفسه ما أضمر.

وحين أقبل الشيخ كنعان ورفاقه إلى حيث المزيني.. اضطرب المزيني هيبةً وخوفاً من الفارس المقبل.

إلاّ أنه تمالك نفسه وسيطر على رباطة جأشه، وأقبل مرحبّاً بالشيخ كنعان، وحين ترجّل الفارس المهيب وصحبه عن صهوات جيادهم، طلب من المزيني علفاً وماء للجياد.. وجلس ومن معه بباب الدكان.

ثم طلب من المزيني أن يوافيه بسيفه وخنجره، فذهب الرجل إلى داخل الدكان ليعود له بسيفٍ طويل، رفيع الرأس حاد النصل جميل المنظر يعجب من يراه.

حين ذاك لمح الشيخ كنعان في عيني المزيني ما أرابه، فأخرج المخراز الذي سبق وأن صنعه له.

ثم وضع طرفه على صفحة السيف وضربه بقوة شديدة، فانفلق السيف، فوقف كنعان محتدّاً ساحباً سيفه من غمده حالفاً بأغلظ الأيمان بأنه سيقطع

---

(١) البوّ: جلد صغير الناقة «الحوار» بعد ذبحه يحشى ويوضع أمام أمه لتدرّ حليبها.
(٢) الحايف: السارق، والحيافة غالباً السرقة ليلاً.
(٣) العرايف: الحلال يبحث عنه صاحبه ليتعرف عليه.

رأس المزيني إن لم يخرج له سيفه الذي هو من نفس معدن هذا المخراز.

عند ذاك تبين للمزيني بأنه لن يستطيع خداع كنعان الذي احتاط منذ البداية لمثل هذه المكيدة.

فذهب مسرعاً إلى داخل حانوته وأخرج سيفاً عريضاً متوسط الطول لا يأبه به ناظره. فضرب به كنعان بمخرازه كما فعل بسابقه.. فانزلق المخراز عن السيف محدثاً صوتاً قوياً كالرنين أذهل كل من بالسوق.

فتأكد كنعان بأن هذا السيف هو من نفس مادة هذا المخراز، وأن هذا هو سيفه الذي راد. وقفل الشيخ كنعان عائداً بسيفه الذي أطلق عليه اسم «كافر النفس»[١]، ونزل بطريقه على بوادي قبيلة شمر فكان له الكثير من الأحداث مع هذه القبيلة العزيزة.

فقد نزل كنعان وصحبه على أحد شيوخ قبيلة الخرصة من شمر، وأمضى يومه عنده، كان بالمجلس رجل يقال له الوطيفي، يلمح همساً بأن كنعان قد نزل على هذه المناطق لنيةٍ سيئة يرومها من ابنة فلان.

فتناها إلى سمع أحد رفاق كنعان ما ألمح به الرجل، ولم يخبره بما سمع إلاّ حين ساروا عقب توديعهم للقوم فتوقف الشيخ كنعان صامتاً لبرهة ثم التفت لصحبه قائلاً:

يـا راكبيـن كـور حيـلٍ شـوملـن[٢]
كالربد وإلاّ ايدين النعام الهوارب[٣]

---

(١) وهو من أشهر سيوف البادية، وهو موجود الآن في دمشق، فقد توارثه أبناء أسرة الطيار إلى أن أودعته والدة الشيخ سلطان بن سطام الطيار «خزنة الملحم» كأمانة لدى إحدى الأسر الشامية على إثر مقتل الشيخ سطام الطيار يرحمه الله.

(٢) الكور: شداد الناقة من فرش، الحيل: جمع حائل وهي الناقة التي مر عليها الحول دون أن تلد، شوملن: أي اتجهن إلى الشمال.

(٣) الربد: جمع ربده وهي انثى النعام. والمقصود: أيها الراكبين النياق السريعة كسرعة النعام الهارب.

يـا راكبيـن الهجـن بـاللّـه ريّضـوا[١]
خـوذوا كـلامٍ مـن ضميـري غـرايـب
خـوذوا منـي لنـزل السيـافـا تحيـة[٢]
مقدمهم أخو جوزا عفيف الضرايب[٣]
يـا شبـه «هـداجٍ» ليـا كثـر وِرده[٤]
يـودع بجـال البيـت مثـل النهـايـب
أوا خريصاتٍ على الكود والكدى
غمقيـن الأريـا مغلقيـن الطـلايـب
قهّـارة المظهـور فـي وجـه ضـدهـم
إن هلهلن بالكون حمر العصايب[٥]
ياما قضوا من غزو مخفي عداوة
ياما اذهبوا من مرهبٍ بالحرايب
جـاراتهـم خـواتهـم لـو يمـرون
مـا يـدهلـون البيـت والجـار غـايـب[٦]
واللّـه هـي ابـرا مـن حمـام «بينبـا»
وأبرا من اللي بين صلب وترايب[٧]

---

(١) ريّضوا: تريثوا.
(٢) السيافا: هم الخرصة من شمر.
(٣) أخو جوزا: الجربا شيخ شمّر.
(٤) وِرده: أي من يرده من البادية. وهدّاج: عين هدّاج في تيماء، غزير المياه ويذكر أن دلائه التي يُسنى بها بلغت تسعين دلو.
(٥) الكون: الحرب، وحمر العصايب: النساء العاصبات رؤسهن بالعصائب الحمراء.
(٦) يدهلون: يدخلون.
(٧) أي أنها أبراء من حمام مكة، بل أنها أبراء من الإنسان قبل أن يتخلّق وقبل أن يكون جنيناً وهو بين الصلب والترائب «وهذه منتها البراءة».

أنـــا كنعـــان ليـــا صـــار الـــوغـــى
وان شبّـت الهيجـا ونـار الحـرايـب
وان صحت في خيل المعادي تذيرت
والخيل بالفرسان راحت حطايب
يشهـد لـي سيفـي ورمحـي وسـابقـي
ولا عـاش رجـلٍ يمتـدح بـالكـذايـب

وبعد حين توجه كنعان ومن معه إلى حيث قبيلة الأسلم من شمر، وبالتحديد للشيخ بن طواله، والذي كان لديه ابنة، خفق بالآفاق ذكرها لما جمعته من ذكاءٍ وجمال، وأصلٍ نبيل، فطلبها الشيخ كنعان حليلةً من والدها. . الذي وافق على تزويجها إياه.

ثم سار الشيخ كنعان إلى حيث قومه عنزة، ولما وصل إلى مشارف مناطقهم التفت إليها وهي في هودجها وقال:

قولي إن شاء الله.

فقالت له: إن شاء الله، ولكن على ماذا؟

فقال لها: إن شاء الله إن وصلنا إلى أهلنا نجدهم وقد أطبق عليهم غزواً وأخذ حلالهم؟

فقالت له: ولكن لِمَ يا كنعان؟

فقال لها: لتري فعلي وفعل سيفي هذا، فتطيب عيناك ويبهج قلبك بمن رضيتِ به حليلاً.

فقالت: ولكّني سمعت عن مكانتك وشجاعتك الكثير ولم أقبل بالاقتران بك وأرفض شجعان «شمر» إلاّ لما أعرفه عنك وأسمع به.

فقال لها: أياً كان الأمر فإن من سمع ليس كمن رأى.

فلما اقتربوا من الحي، وأصبحوا على مقربة من الرعاة، وجدوهم وقد

نُعِتَ شعثهم وفُرِّق شملهم وشُتِّتَ جمعهم. فقد تحقق لكنعان ما تمناه واستجابت الأقدار لمبتغاه.

حيث استقبله الرعاة بالضجيج والصراخ، وأخبروه بأنهم قد نهبوا منذ فترة وجيزة وأن الصائح قد ذهب منذ قليل ليفزّع الفرسان ليستنقذوا الإبل من الغارة.

فهدّأ كنعان من روعهم، ثم التفت لزوجته وقال لها: ها قد تحقق ما تمنيت، فسيري معي بإثر القوم حتى تري عينك.

وطلب من رفاق رحلته أن يكملوا مسيرهم إلى مضارب القوم ويطمئنوهم بأنه سيلحق بالغزاة ويرد الإبل المسلوبة.

ثم أدار عنق فرسه وجد بالمسير إلى حيث سار الغزاة وبرفقته زوجته وهي على هودجها.

وحين تراءى له غبار الإبل اعتلى فوق مرتفع من الأرض، وأناخ راحلة زوجته ولبس درعه واستلّ سيفه، ثم أخذت زوجته تهلهل وتزغرد له وتردد:

جاكم على قبّا قحوم ... يا هيه ياللي بالشعيب
حرٍ تنفّض مخلبه ... مجربٍ ضربه عطيب
اليوم يومٍ للهدد ... كنعان يا سقم الحريب

فانتبه الغزاة لهما، وعاد مجموعة منهم إليه يريدون قتله طامعين بفرسه، فما كان منه إلاّ وأن أغار عليهم من المرتفع وأطبق على مقدّمتهم وهو يردد بصوت يجلجل بالوادي:

لعينيك يا عذب اللمى ... أضرب وأنا ضربي عجيب
بنت ياللي تنظرين ... تكحّلي بفعلٍ غريب

قلـع الـرمـك كـار لنـا وملاعب حراب الحريب
إن زغرت «الكافر»[1] ذبح يـرحـم ولا اظنـه يعيـب

ثم إنه أخذ يناوشهم بأطراف رمحه فأخلى ظهور الخيل من فرسانها، فارتعد باقي الفرسان من فعله، وأخذوا بالهرب من أمامه، ثم أغار على فلولهم وأخذ يرمي الفرسان عن خيلهم حتى أقبل على من بقي منهم مع الإبل المنهوبة، فطلبوا منه أن يمنعهم وأن ينثني عن قتلهم، على أن يسلّموا له.

فوافقهم على ذلك على أن يترجّلوا عن ظهور جيادهم ويلقوا بأسلحتهم ودروعهم، فأسرعوا بفعل ذلك. وأخذ يسوقهم أمامه وزوجته في هودجها تسير جذلى خلفهم، وما هي إلاّ برهة من الزمن حتى أقبل عليهم فرسان عنزة وقد تأهب كلاً منهم للقتال حيث وجدوا أن الشيخ كنعان الطيار قد كفاهم مؤونته.

حيث استقبلوه وحليلته بما يليق وهذه المناسبة وأمضى لياليه هانئاً وادعاً في نومه.

***

وبعد مدةٍ من الإقامة، ومع حلول فصل الربيع، نوى على المسير إلى ما يعرف الآن بوادي السرحان، حيث ذكر له أن تلك المنطقة قد ارتوت من الأمطار حتى كساها الربيع حلته، وأن بها منطقة لا تطؤها قدم إنسان مما يعرف عند البدو «بالمخافة» لوحشتها فلم يرعها أحد قط.

فسار بإبله ومعه زوجته وبعض رعاته، بعد أن ودع والده وقومه «الذين حاولوا إثناءه عن عزمه لخطورة المنطقة»، وبعد مسير عدة أيام نزل في

---

(١) الكافر: سيفه كافر النفس.

تلك المنطقة. ومرت عليه عدة ليالٍ هادئةٍ.. إلى أن كانت إحدى الليالي التي أتت له بما أرابه..

ففي هجعة الليل.. أخذت فرسه تضرب بحوافرها الأرض، ناصبة ذيلها وأذنيها، وهي ترهم بصوتٍ له دلالته عند فارس مثل كنعان..

وكان هذا كافياً له لأن يعد عدته ليومٍ جديدٍ بكل ما فيه وما يحمله، فابتدر فرسه بالعلف ثم ساقها، وبلل مرشحتها بالماء ثم رمى بها على ظهر الفرس. وعقب ذلك أعدّ سيفه ودرعه، ثم تمدد في ربعته بانتظار ما سيسفر عنه فجر ذلك اليوم بعد أن نبّه رعاته لما ينتظرهم.

ومع بزوغ أو خيوط الصباح.. أطلّ على رعاته الغزو المنتظر «وهم قوم يقال لهم البواسل»، فاستاقوا الإبل، فقد طمعوا بها لمّا بلغهم بأنه «بيت وحيد» وأن كل تلك الإبل لهذا البيت الوحيد، فهي غنيمة جزلة لصيدٍ سهل، ولم يكونوا يعلمون بأن هذا البيت هو لكنعان الطيار، وإلاّ لغيّروا رأيهم ولما أقدموا على فعلتهم هذه، فهم كغيرهم من أبناء الصحراء يسمعون به ويعرفون مكانته في صحاراهم ويقدّرونها.

وعند ذاك أخذت زوجته تصيح بالويل والثبور، وهي ترى الرعاة وقد فزعوا إلى البيت.. فإلتفت إليها كنعان مبتسماً، وطالباً منها أن تهدئ من روعها، لأنه لا ينزل مثل هذا المكان الموحش بخلوته، والذي لم يجروء أحد على السكن به، إلاّ وهو واثق بنفسه، وأنه يجدر بالقوم السذّج الذين أغاروا عليه أن يعلموا ذلك.

ثم إنه امتشق سيفه «كافر النفس» وتمنطق درعه، وحمل رمحه بيمينه وامتطى صهوة فرسه.. ويمم إلى حيث الغزاة الذي جدّوا في استياق الإبل.

فلما اقترب منهم، صاح بصوتٍ ردّدت صداه الأرجاء، معلناً لهم الأمان إن هم خلّوا بينه وبين إبله.

فالتفت القوم إلى بعضهم البعض مستنكرين ذلك، فمن هو ليكون الأمر بهذه البساطة. . فما كان من بعضهم إلاّ وأن عادوا إليه متعاهدين على قتله وتقطيع أشلائه لذئاب الوادي.

فلكز فرسه إلى ضلعٍ مرتفع. . فلحق به مجموعة من فرسان «البواسل»، فلما تباعدت بينهم المسافات. . كّر بنحر فرسه عليهم، وأخذ يجندل كل من يلاقيه منهم، حتى قضى عليهم جميعاً. . وكان يصيح بهم قائلاً: خيّالة الستيتيات رجالٍ رجّع.[١]

ثم أغار بفرسه على من بقي منهم مع الإبل، فأخذ يناوشهم برمحه، فجندل بعضهم، وطلب البعض الآخر من كنعان الأمان، فما كان منه إلاّ أن أعطاهم الأمان، طالباً منهم أن يخبروا مَن وراءهم من قومهم بما رأت أعينهم، وأنه باقٍ في هذه المنطقة التي هي ممنوعة عن سواه ما شاء له البقاء. . فعاهدوه على ذلك.

ثم قفل عائداً بإبله، فاستقبلته زوجته بزغاريدها، وقد أثلج صدرها ما رأته من فعل زوجها.

فقال مفاخراً وموجهاً لها الحديث:

يقـــول الـــوايلـــي قيـــلٍ وكـــادي
معـــانـــي مـــا لهـــا شـــيٍ يشـــادي[٢]
تـــراهـــن يطـــربـــن صـــوت المغنّـــي
إلـــى مـــا ردهـــن ليـــا هـــن جـــدادي

---

(١) الستيتيات: الخيل بين يديها وقدميها ستة أذرع إذا إشتد ركضها، وهذا من الصفات الذميمة في الخيل. . ورجال الرجّع: أزواج النساء المطلقات الذين رغبن عنهم النساء وتركنهم.
(٢) يشادي: يشبه أو يماثل.

ألا يـا راكـبٍ مـن فـوق عـوصـي[١]
سنـامـه نـابـيٍ وسـط الشـدادي
سـراهـا «للبـواسـل» لا تقيـم
وبلّغهـم مـع البيضـا سـوادي[٢]
نـزلنـا بـالمخـافـه[٣] ممنيـن
أمنـا وغـدرونـا بـالعهـادي
أصبحنـا وصبّحنـا جمـوع
بخيـلٍ مثـل سيعـان الجـرادي[٤]
جـونـي عيلـةٍ يبغـون ذودي[٥]
وذودي كلهـا ورث الجـدادي[٦]
يبـون النـاقـة الملحـا «وضيـره»
عليهـا مثـل منكـوس الفـرادي[٧]
«وروده» نـاقـة الخطّـار تبهـل[٨]
تهجّـع كنهـا يّمـي تنـادي[٩]
تـراهـا كـل مـا تسمـع مـدوّه
تفجّـع مـن معـاليـق الفـوادِ

---

(١) عوصى: ناقة سابقة.
(٢) والمقصود هو: أيها الراكب تلك الناقة النجيب والتي سنامها من فرط قوتها رافعاً الشداد المشدود عليها إسر بها مسرعاً للبواسل وبلغهم مع حلول الفجر أن ليس لهم عندي غير السواد.
(٣) المخافة: المكان المخيف غير المطروق.
(٤) سيعان الجراد: أسراب الجراد.
(٥) الذود: الإبل، وسميت ذود لأن صاحبها مطالب بالذود عنها وبدون ذلك لن يكون صاحباً لها.
(٦) يقول بأن موروثة عن أجداده: أي لم يستطع أحد أن يسلبها طوال تلك السنين وهو بدوره لن يفرط بها.
(٧) منكوس الفراد: العدل المملوء.
(٨) تبهل: تدرّ. وناقة الخطّار: هي الناقة التي تخصص لتحلب للخطّار والضيوف.
(٩) أي أنها تحن بصوتٍ حزين ترجوني أن أخلّصها.

ألا . مـا هبلـك يـا بـاغـي نيـاقـي
وأنـا مـن دونهـن فـوق الجـوادي[١]
مغـــذاةٍ علـــى حـــب الشعيـــر
ودرّ الخلـف[٢] طلـقٍ مـا يـزادي[٣]
ظهـرهـا مـا يـزيـد عـن الـذراع
سـريعـة مـوج أبـاهـرهـا سنـادي[٤]
قـوايمهـا كمـا عمـد الحـديـد
ولـه صـدرٍ كمـا بـاب البـلادي
وحـاركهـا كمـا الـذيـب المـويـق
علـى الطليـان بـايـام الكـدادي[٥]
وأذانيهـا كمـا كـافـور غيـد
وعينـه نـار شبّـت بـالحمـادي[٦]
وذيـلٍ مثـل منقـوض الجعـود[٧]
يغـذيّ بـالشمطـري والـزبـادي[٨]
وجبهتهـا كمـا وصـف الطـلاحـي[٩]
ومنخـرهـا كمـا كيـر الستـادي[١٠]

---

(١) أي أنك يا من طمعت بنياقي مجنون وذلك لأنني سأكون بينك وبينها على جوادي الأصيلة «الجواد يطلق على الفرس والحصان وهذا يدل على الفطرة السليمة للغة البادية» .
(٢) الخلف : النياق الحلوبة وأحدها خلفة .
(٣) الطلق : الحليب الذي لم يزاد بماء ولم يخلط به .
(٤) أباهرها سنادي : صدرها مرتفع .
(٥) أيام الكداد : أيام طلوع العشب .
(٦) الحماد : منطقة صحراوية معروفة .
(٧) الجعود : الشعر المجدول .
(٨) الشمطري والزباد : مواد تضعها نساء البادية على شعورهن لتزيينها .
(٩) الطلاح : الورق العريض الأبيض .
(١٠) ما يشعل به الحداد ناره .

وتـــاطـــي بـــالثـــلاث مـــوثّقـــات
وعلى الأربع كما الادمي[١] تقادي
زمـالـت[٢] خيّـرٍ تـدنـا لسـرجـه
مـــدنّـــاتٍ كمـــا فحـــل الهـــدادي
ولا تـركـب علـى لعـب المصنّع[٣]
ولا هـــي للـــزز[٤] يـــوم العيـــادي
تـزهـا اللبـس[٥] بـاليـوم الكبيـر[٦]
نهـار الكـون[٧] تـذخـر للطـرادي
عليهـا فـارسٍ يـرخـص حيـاتـه
ينـوض[٨] إليـا سمـع حـس المنـادي
معـه سمـح الكعـوب مـن البلنـزا[٩]
الى اهوت تودع الصامل ابجادي[١٠]
وضـجّ نـزول زينـات العيـون[١١]
وخيـلٍ نـوِخـت لـي بـاحتشـادي

(١) الإدم: نوع من الغزلان التي كانت بأعداد كبيرة في الجزيرة العربية.
(٢) الزمالة: ما يركب من الإبل أو الجياد، وأساس التسمية من التزامل بين زميلين على ظهر الدابة.
(٣) المصنّع: مكان الإحتفال، أي لا تركب للتباهي بها في المناسبات.
(٤) اللزز: السباق والملز هو مكان سباق الخيل. أي أن فرسه ليست كذلك للسباق في الأعياد.
(٥) اللبس: هو الدرع الذي تدرّع به الفرس وقت الحرب.
(٦) اليوم الكبير: يوم المعركة.
(٧) الكون: الحرب.
(٨) ينوض: يستعد وينتبه. والمعنى ينهض مسرعاً.
(٩) البلنزا: نوع من الرماح التي كانت تستخدم ذلك الحين.
(١٠) البجاد: تمزيق القاسي وتقطيعه.
(١١) أخذت النساء والأطفال بالصياح والضجيج.

وعـرجـد نـزلهـن[١] وانـا ذراهـن
وصـاحـن مـا لهـن غيـري عضـادي[٢]
مخمـوصـات المـواطـي والبطـون
مـن المطعـوم مـا مـالحـن زادي[٣]
ومـريّـت الغـرو وضّـاح الجبيـن[٤]
تنخـى ولا نخـت غيـري سنـادي[٥]
نـور البيـت بـالمقـدم[٦] تصيـح
وتـرجـي فعـل حـرٍ[٧] بـالهـدادي
ونـا لعينـاك يـا نجـلا العيـون
تحلّـي فعلنـا وقـت الهجـادي[٨]
وعينـا بكـرةٍ حلـو لبنهـا[٩]
تـرعـى مـا نبـت نبـت العـرادي

---

(١) عرجد النزل: أي عمّت الفوضى بالنزل أو المخيم.
(٢) العضد: السند، أي أخذن بالصياح والعويل يطلب حمايتي لهن.
(٣) المقصود أنهن رشيقات وناعمات من فرط تدليله ورعايته لهن.
(٤) أي أنه مر من أمام زوجته.
(٥) تنخى: أي تثير نخوته وحماسه وتشجعه على مواجهة الغارة.
(٦) المقدم: هو العامود الأول في بيت الشعر «الخيمة» عند الدخول للبيت، والواسط هو عامود المنتصف، والدافع هو العامود الخلفي وذلك في قسم النساء أو المحرم. أما في الربعة أو قسم الرجال فالأول والخلفي يسمى يد والأوسط الطارف من أحد جوانب البيت يسمى كسر.
(٧) الحر: أجود أنواع الصقور، وهداد الصقر هو إنقضاضه على فريسته. ومعنى البيت أن زوجته وقفت في مقدمة الخيمة تشجعه على تخليص من معه وما معه.
(٨) أي لعينيك يا ذات العينين النجلاوين ما سأفعل.
(٩) وكذلك لعيني كل ناقة بكراء كانت ترعى آمنة من نبت العراد. «والبكرة هي الناقة التي تلد لأول مرة فيكون لبنها حلو المذاق».

رديـت الكميـن[١] علـى المغيـر
كمـا سيـلٍ حـدر مـن بطـن وادي
وخيـل الطهـر قـادن للهجيـج
ونخـوا «فـوزان» حمّـاي العـوادي[٢]
وقفّـن «البـواسـل» هـاربـات
وقـادوا عجّهـن غـوش الـردادي

كان الشيخ كنعان الطيار يحب زوجته بنت ابن طواله حباً لا يعدله حب، إلى الحد الذي أصبح فيه يغار عليها غيرة عمياء. . وكانت هي، كعادة نساء البادية، تحتفي بالصغير والكبير وبالقريب والبعيد، لطيفة المعشر كريمة العطاء «وكيف لا وهي سليلة أسرة الطوالة الكريمة».

الأمر الذي أدى إلى أن يفكر الشيخ كنعان باختبارها، فأعلن للجميع بأنه ينوي الغزو. . وعلى من أراد الاشتراك بمكاسب هذه الغزوة أن يستعد لذلك. . وكان هذا يعني عند الجميع الكسب الوفير، فهم في ركب كنعان.

ثم إنه سار بجمعه من الفرسان، حتى إذا ما ابتعدوا عن مضارب قومه، طلب من رجاله المبيت في مكانهم وأنه سيغيب عنهم هذه الليلة، على أن يلتحق بهم في الصباح الباكر.

ثم توجه إلى مضارب قومه، فلما انتصف ليلهم، أقبل بخفية إلى حيث خيمة زوجته وانسلّ من أسفل رواق الخيمة، وكانت تغط في نوم عميق.

---

(١) الكمين: المجموعة المكمنة. أي أنني فاجئتهم بأن أغرت على الغزاة المكمنين أولاً وليس كما توقعوا فأخذت أسوقهم في وجه المغيرين كالسيل حتى إضطربوا.

(٢) أي أن خيلهم تفرقت وأخذت تهرب بفرسانها، الذين أخذوا بإثارة نخوة قائدهم وعقيد غارتهم المسمى «فوزان». ولكن دون جدوى. وخيل الطهر: أي أن عليهم أن يطهروا ظهور خيلهم من عار الهزيمة «وتلك عادة كانت متّبعة في البادية إذا إنهزم الفارس يُلزم أن يغسل ظهر فرسه». العوادي: «جمع عودة» الناقة المسنّة.

فدفعها بيده بلطف لإيقاظها، فانتبهت على ذلك، فضربته بظاهر يدها على جبينه، وكان في أحد أصابعها خاتماً أسال دمه، وقد توثقت من ذلك، فانسلّ منسحباً وركب فرسه إلى حيث رجاله.

فلما كان الصباح طلبت زوجته من أحد الرجال أن يعلن للجميع بأن يحضروا وليمة غداء في بيت الشيخ كنعان، فلما اجتمع الجميع أخذت تتفرس وجوههم من خلف رواق المجلس، فلم تجد من بينهم من يحمل أثر تلك الضربة فزاد في نفسها ما تحمله من شك من أنه لا يمكن أن يجسر على محارم كنعان سوى كنعان نفسه.. فأخذ الغيظ منها كل مأخذ، إلاّ أنها آثرت الصبر والانتظار إلى حين عودته.. وبعد عدة أيام عاد كنعان ومن معه.

فلما سلّمت عليه، لفت انتباهها ندبةً في جبينه، فسألته عنها، فأجابها بأنه من غزالة الشداد حيث ضرب رأسه بها حينما غفا.

إلاّ أن جوابه لم يكن مقنعاً لها.. عند ذاك أرسلت إلى أحد الرعاة «وكان شمرياً من قومها»، فطلبت منه أن يصحبها إلى حيث قومها، دون أن يعلم أحد بذلك، وأخبرته بأنها ستجهّز عند المساء ناقتين قويتين لذلك..

وتم لها ما أرادت.. ووصلت إلى حيث أهلها.

ثم أن الشيخ كنعان أيقن بأنه قد أفرط بغيرته على زوجته، وندم على ذلك أشدّ الندم.. ثم ركب فرسه يريد اللحاق بزوجته قبل وصولها لقومها لاسترضائها، ومعه أحد رجاله «يقال له طراد»، فقال موجهاً الحديث لطراد وهو يحثه على المسير، ومودعاً باقي رجاله:

يـا راكـبٍ مـن فـوق حـرٍّ مشـذّر[1]
مـا دنّـق الـرقّـاع يـرقـع رفـوقـه[2]

(١) الحر هنا: الجمل الأصيل. والمشذر: النبيه الحذر.
(٢) رفوقه: خفافه.

أمـه لفتنـا مـن عمـان تـذكـر[١]
وابـوه تيهـيٌّ تعـددّ عمـوقـه[٢]
يشدي ظليمٍ[٣] مع جذيبٍ تحدّر[٤]
والاّ النـداوي[٥] يـوم تطلـق سبـوقـه
يـا راكبـه كـزّه لنجـعٍ بـالأجفـر[٦]
تلقـى عشيـري كنّـه البـدر فـوقـه
يكـد راسـه بـالشمطـريّ الأشقـر
عـود القـرنفـل والخظيـري نشـوقـه[٧]
يا طراد يا وجدي على اللي تودّر[٨]
شفت الزعل يا طراد بغظاي موقه[٩]
لا واعشيـري حـال دونـه مصطّـر
عيّيـل وعـزي لمـن دار شـوقـه[١٠]

---

(١) الإبل العمانية إشتهرت برشاقتها في السير وقوة تحملها.

(٢) التيهي: من السلالات النجيبة. أي أن هذا الجمل أصيل معروفة عموقه وأصوله كناية عن نجابته وسرعته.

(٣) يشدى: يشبه، والظليم: هو ذكر النعام، وأنثاه الربده.

(٤) الجذيب: المكان المرتفع.

(٥) النداوي: الصقر. أي أن هذا الجمل الذي عليه المرسول كذكر النعام المتحدر من مكان مرتفع، أو كالصقر حين يطلق جناحاه، وذلك كناية عن السرعة.

(٦) كزّه: أي إدفعه ووجهه. والنجع: المضارب أو النزول. والأجفر: منطقة قرب جبال حائل.

(٧) الشمطري والقرنفل والخظيري: من نباتات الصحراء العطرية والتي يستخرج منها مواد تتزين بها نساء البادية.

(٨) تودّر: أي إختباء وإختفى.

(٩) الموق: العين. أي أنه غض بعينه عني من الزعل.

(١٠) مصطّر أو مصاطير: المجموعة من الرجال الأشداء. عييل: أي أنهم من شدتهم يعيلون ولا يعال عليهم ويضلمون ولا يضلمون.

حامينها من فيدٍ الى حدّ الاقور
ومحرمينٍ ضدهم ما يذوقه[١]
وجدي عليها وجد مطعون الأبهر
أقفي يجر مسنجدٍ من عروقه[٢]
أو وجد من هو عن جواده تقنطر
أمسى صويبٍ يكفخ الطير فوقه[٣]
أو وجد مكتوفٍ تولوه عسكر
يتليه جلّادٍ بسيفه يسوقه
ونّيت ونّة من وقع وسط الأبحر
هله بعيد وقصّرت به سبوقه[٤]
يا لايمي عساك بالداب الابتر[٥]
يمسّك بعرش الساق حتى يعوقه
آخيل مزنٍ يم خلّي تحّدر[٦]
خلته ورا حايل تلاعج بروقه
جعله على دار الحبيبه يبذّر
والعشب بفياضه تغطرف عذوقه

وحين أتم أبيات قصيدته اعترضه أحد رجاله وهو «محمد الصياد»

---

(١) فيد، والأقور: مناطق بالقرب من جبال أجا وسلمى «جبال حائل». أي أن أهلها وإخوانها الأشداء، من قوتهم ومنعتهم حموا مناطقهم وحرموها على أضدادهم وأعدائهم أن يذوقوا ربيعها ومائها.
(٢) الأبهر: الشريان الأبهر بالقلب. مسنجد: أي ممزق. وهو هنا يتوجد عليها كما يتوجد على الشفاء الفارس المطعون في قلبه وهو يزحف جاراً أشلائه وعروقه المسنجدة والممزقة.
(٣) تقنطر: سقط، يكفخ: يحوم.
(٤) سبوقه: أطرافه.
(٥) الداب الابتر: أحد أنواع الثعابين.
(٦) آخيل مزن: أي ألمح سحاب ممطر.

وأمسك برسن الفرس موجهاً حديثه اللشيخ كنعان الطيار معاتباً بقوله :

يا أبا زيد أنت خلقت للخيل ونجائب الإبل فإن أردت أن تتوجد وتتمنى فالأجدر بك أن تتمنى فرساً أصيلة أو ذلولاً نجيبة ، لا أن تتوجد على امرأة رحلت باختيارها إلى أهلها .

كنعان :

يا محمد المرأة الصالحة الجميلة هي زينة الدنيا وبهجتها وهي أمنية كل لبيب لما تجلبه من السعادة لزوجها فهي إن نظر إليها أسّرته وإن غاب عنها حفظت غيبته ، وليس الفرس أو الذلول التي تبعد بك قاطعة الفيافي والقفار ضاعنة بك عن الأحبة والديار ، فإليك عني ودعني أرحل .

الصياد :

والله لن أدعك . . فإن ما تقوله يا كنعان لعجيب ، وما يزيد قولك عجباً أن تكون أنت قائله وأنت من لا يفارق ظهر فرسه . ولن أقنع بما تقول ولن أعذرك فيما نظمت من شعر . . ووالله لن أرضى بأن تتحدث عنك بوادي العرب بأنك رحلت في طلب امرأة .

كنعان :

وما قولك بعارفة البادية «الظريغط»[1] ، هل توافق على أن يدلي كلٌّ منّا بحجته عنده ليفصل بيننا ، وإن فصل لي ترحل معنا في طلبها مرغماً؟

الصياد واثقاً :

ولن أقبل بغيره من العوارف ، فهلم بنا إليه ، وإن فصل لك سأكون في أول الركب .

---

(١) العرافة : هو قاضي البادية ، و «الظريغط» من أشهر عوارف البادية وقضاتها وهو من قبيلة «جبّارة» إحدى قبائل «ولد علي» .

وتحرك الجميع إلى خيمة «الظريغط»، ودخلوا مجلسه بعد أن سلموا على الحضور، وابتدره محمد الصياد قائلاً:

جيناك يا القرم الظريغط بقاله ... والكـل منـا عـانـي بطـلابـه
وانشدك بالله، يا الظريغط نشده ... حيثـك تخلّـص قـالـةٍ تبلـي بـه
حيث إنت قرم ما تعد إلاّ الصدق ... وحكي الكذب والزور ما تشقى به
أي الـركـاب متيهـاتٍ بـالخـلا ... اللـي تجيـب مـن الفـلا غيـابـه
حيـلٍ يقطّعـن الفيـافـي ضمّـر ... كـلٍ تـورد لا وقـع مجـدابـه
وايّا البنات العطر بايام الرخا ... اللـي يشققـن النهـود ثيـابـه

فقال الظريغط: وما لديك يا أبا زيد؟

كنعان:

جيناك يالقرم الظريغط بقاله ... والكـل منـا عـانـي بطـلابـه
وأنشدك بالله يالظريغط نشده ... حيثـك تخلّـص قـالـةٍ تبلـى بـه
حيث إنت قرم ما تعد إلاّ الصدق ... وحكي الكذب والزور ما تشقى به
أي البنـات العفـر حلـوات النبـا ... أللـي سكـن كـل الحـلا بثيـابـه
أرقاب المها مدلّهات الساهر ... كن العسل يدهك بروس نيابه
هن اللي يجبن العوارف مثلك ... وغوشٍ تفك الخيل من طلاّبه
أي.. البنات الدعج غنجٍ ليا إنثنن ... أيـاتهـن.. وأي الخـلا وذيـابـه
وإلاّ الركاب.. متهياتٍ بالفلا ... لولا العذارى عازنا ركّابه[1]
أطلـب مـن الله حجتـي مقبـولـه ... وحجتـك يـا الصيـاد ينلـدّ بـابـه

(١) يقصد أن النساء هن اللاتي ينجبن الرجال الذين يركبون الخيل والإبل، ولولاهن لم يأتِ الرجال فلهن يعود الفضل بعد الله.

فقال الظريغط :

عند الحليله ما تباطا نومك والهجن تعرضك العطش وذيابه
حجتك يا الطيار عندي تقبل وحجتك يا الصياد نقفل بابه

وهكذا فصل العارفة للشيخ كنعان الطيار، فهبّ واقفاً وطلب من محمد الصياد أن يمتطي فرسه أمامه ليرحل معه كما اتفقا.

وحين أقبل الشيخ كنعان الطيار على منازل شمر استقبله الجميع بحفاوة وتكريم ومكث هناك هو ورفاقه عدة أيام مسترضياً زوجته، وفي إحدى ليالي مسامراتهم رفع رأسه للسماء متمثلاً بأبيات منها :

يا الله يا فراج يا والي الأفراج
إنت الغني والناس عندك محاويج
تفرج لمن كنّه بحقٍ من العاج
متحيّرٍ ضاقت عليه المناهيج
يا من يعاونّي على الطرس والزاج
أكتب بصفح سجلةٍ ما بعد زيج[١]
ويا من يعاونّي على القاف محتاج
عن كثر سجّات القدم والسواهيج
كل يوم لي من صحصح الدوّ مسهاج[٢]
وكثر السرى يحفي خفاف الهجاجيج[٣]
كم ليلةٍ مبرك ذلولي على ثاج[٤]
ونومي على غر الثنايا هماليج

(١) الزاج : مسحوق أخضر يصنع منه الحبر «كبريتات الحديدوز». زيج : صُبغ.
(٢) صحصح الدو : الصحراء.
(٣) خفاف الهجاهيج : أخفة النياق.
(٤) ثاج : مورد ماء مشهور.

سميّهـا مـع وجهـت الغصـن ينعـاج
بـاج الشمـال ولا لقـى لـه مخـاريـج[١]
مقيضها عن واهج القيض فرتاج[٢]
بخشوم (سلمى) صافيات الصهاريج[٣]
ماكولها الحنطه على صالي الصاج
ومشـروبهـا در البكـار اللـواهيـج
واليا هنف ينباج عن مثل الافلاج
غـر يشـابهـن اللـوالـي مفـاليـج[٤]
الـردف طعـس ولبّـده رشّ ودّاج[٥]
ينقـل علـى سـاقيـن مثـل الـدراريـج
وتنسف على المتنين مثل الدجى داج[٦]
واليا انتقض يشبه لسدو المناسيج
لجّت خلاخيله مثل لجّت (. . .)
على أبيض الذرعان تزهي الدماليج[٧]
جتنـا تخطّـي كنهّـا ضبـي الأفجـاج
تخضع لها سود العيون الخداليج[٨]

---

(١) ينعاج: يميل.
(٢) مقيضها: أي مكان قضاء فترة القيض والصيف. فرتاج: مورد مياه جنوب غرب مدينة حائل.
(٣) خشوم سلمى: جبال سلمى وهي أجا وسلمى أو جبال طي. أي أن مقيضها في جبال سلمى ذات المياه الصافية والعذبة الصهاريج: أماكن تجمّع المياه في تجاويف الصخور الضخمة.
(٤) هنف: ابتسم، أي أنها إذا ابتسمت تظهر أسنانها كالثلج أو حبات اللؤلؤ.
(٥) لبد: أي تماسك، والوداج هو المطر الخفيف الدراريج جمع دراجة وهي بكرة سانية البئر.
(٦) تنسف: ترمي. أي أنها ترمي شعرها الأسود الكثيف على متنيها كالدجى في ضلمته، وإذا نقضته يشبه نسيج السدو الأسود الفاحم.
(٧) أي أن خلاخيلها تلج بصوت عذب، ودماليجها، أي حليها، تزهى بذراعيها الأبيضين فهي التي تجمل الحلي وليس الحلي التي تجملها.
(٨) أي حين أقبلت كأنها ضبية الوادي خضعت لها كل الجميلات بعيونهن النواعس السوداء من=

عنـود ريـم وريحهـا عنبـر أنفـاج[١]
تقـود غـزلان الخشـوف الـدواريـج
يـا عـود ريحـانٍ علـى منقعـه راج[٢]
مالت بغضات الغصون العواريج[٣]
خمس الخناصر فيهن الشرك ما لاج
وعيـون يقتلـن الهـواوي مـداعيـج[٤]

وحين بلغت قصيدته تلك للشاعر المعروف «بصري الوضيحي» جاوبه من فوره بقصيدته المشهورة والتي يمدح بها الشيخ كنعان الطيار ومنها:

يـا راكـبٍ سـوهـاجـةٍ بنـت سـوهـاج
مأمونةٍ من ساس هجنٍ سواهيج[٥]
يا من يودي لي من العفص والزاج
قيـلٍ بصفحـة سجـلٍ تـوّ مـا سيـج[٦]
سـلام أحلـى مـن حليـب اللهـاج
وأحلى من العنبر بسوق الحواويج
لكنعـان أللـي بـاللقـاي يلبـس التـاج
الخيـل مـن حسـه تقـافـت مـزاعيـج[٧]

= فرط جمالها.

(١) عنود الريم: هي قائدة قطيع الغزلان «أو جميلة الغزلان» والتي يؤخذ منها مادة العنبر، والخشوف الغزلان الفتية الرشيقة.

(٢) أي أن رائحتها كرائحة عود الريحان الذي يفوح ويعطر ليس مكانه فقط وإنما كل ما حوله.

(٣) الغض: الناعم المقصود أنها تمايلت بعودٍ وقدٍ متعرج كعود الريحان ذو العطر المنتشر.

(٤) أي أن خناصرها الخمس لم يشركن أو يشبكن بأصابع أخرى وعيونها دعج، أي شديدة سوادهما وبياضهما، يسلبن قلب صاحب الهوى المغرم بهما.

(٥) أي أيها الراكب الناقة الأصيلة ذات الأب المعروف.

(٦) أي هل توصل لي رسالة من الشعر مكتوبة بجلد لم يكتب به قبل الآن.

(٧) أي تأخذ رسالتي إلى كنعان الطيار الذي يكون دائماً في مقدمة الفرسان في وقت اللقاء والحرب=

حامي عقاب الخيل من طلبة أمراج[١]
ليا نسفّوا فوق الحوارك مزاريج[٢]

يا جود مدّاته على كل محتاج
سخي كفٍ بالعطا والمخاريج

ثم بعد أن لمس الشيخ كنعان إصرار أهل زوجته ورفضهم لعودتها معه، غادرهم وهو أكثر إصراراً على عودتها معه، فهي الزوجة التي لا يمكن التفريط بها، هي العفيفة.. وهي الحسناء.. وهي ذات الأصل الطيب والمنبت الأصيل.

وكان قد سمع أثناء إقامته لدى أنسابه أن والد زوجته ينوي الحج وأهله معه، فاختار رجلاً يثق به من رفاقه وأطلعه على عزمه بألا يعود إلاّ وزوجته معه، وأطلعه على تدبيرٍ يسترجعها به، وهو تدبير رتبته له امرأة عجوز من قوم زوجته كانت تجّل الشيخ كنعان، حيث ستخرج معهم للحج وستساعده فيما عزم عليه.

ثم كمن هو ورفيقه على طريق الحاج، حتى مرت بهما قافلة والد زوجته فجلس كنعان تحت سدرة في الطريق بينما ذهب رفيقه إلى الركب وادّعى أن معه امرأة قد جاءها المخاض تحت شجرة السدر، وطلب مساعدة النساء، فتطوعت المرأة العجوز لذلك وطلبت من زوجة كنعان المساعدة فوافقت على ذلك وتوجهتا على عجل إلى السدرة، حيث كان كنعان

= لابساً التاج، وحين يصرخ بالخيل تهرب منه منزعجة.

(١) وهو الذي يحمي عقاب الخيل أي راية المعركة ممن يطلبها، وذلك حين تنسّف الأبطال زرايجها أو رماحها فوق حوارك الخيل.

(٢) وقد أدخل في العصر الحالي الكثير من التحريف والنحل على هذه القصيدة، ووضع لهذا التحريف قصة مختلقه وليست صحيحة يتناقلها الكثير من الجهلة، كما نشرت في عدد من كتب التراث الشعبي.

بانتظار زوجته، وتمكن من لقائها والحديث معها بعد أن يئس من ذلك، وأصلح الله سبحانه ما بينهما من خلاف ولا يزال يعرف ذلك المكان باسم سدرة الطيار وهو في منطقة تسمى الأبّيض.

***

ثم إن كنعان بعد فترة من الزمن قرر الرحيل بعربان وِلد علي للمقيض في سهول الشام «وكان هو أول من نجع خارج الجزيرة العربية من أسرة الطيّار».

وبعد أن وصل إلى البلقاء، جائه النذير بأن أحد الزعماء قد جيّش له عربان منطقة البلقاء لمنع وِلد علي من التوغل في أراضيهم[1]، فما كان من الشيخ كنعان إلاّ أن أمر فرسان وِلد علي بالاستعداد لمناجزتهم، والمسير لمكان تجمّعهم لمباغتتهم فيه.

وكانت تلك القبائل قد اختارت منطقة «سوح ذياب بالقرب من الزرقاء في الأردن» كمكان تجمّع لها.

وفي الصباح الباكر فوجئت الجموع بخيل عنزة وقد أطبقت متراصّة وفي مقدّمتها كنعان الطيار. فاعتلى فرسان البلقاء صهوات جيادهم استعداداً للنزال.

فبرز أحد فرسان عنزة بين الجمعين وأخذ يهرج:

يا من يبشّر لي (. . .) بكنعان الشيخ جاه يزرفل الخيل غاير
من فوق ضامر من سلايل كحيلان اليوم بالبلقا تدور الدواير

عند ذلك صاح ذلك الزعيم من بين فرسانه «وكان مشهوداً له بالفروسية

(١) ويبدو أن هذه المعركة قد وقعت عام ١١٦٠هـ كما ورد في مخطوط «حوادث دمشق اليومية» جمع أحمد البديري، كما أشار أحمد وصفي زكريا لهذه المعركة في كتابه «عشائر الشام» ص ١٠٨.

والشجاعة العظيمة»، وأخذ ينادي معيّراً ذلك الفارس قائلاً: بأن هذا وقت اللقاء وليس وقت الشعر، والسيف هو الذي يجب أن يتكلم لا سواه.

فخرج كنعان الطيار بين الجمعين ونادى ذلك الزعيم للبروز له لمبارزته ليشهد كل سيف على صاحبه. فبرز له دون إبطاء، وما هي إلاّ جولتان حتى تمكن كنعان الطيار من إسقاطه قتيلاً بين الصفوف. ثم التحم الجمعان، وتمكن وِلد علي من هزيمة تلك القبائل ومن معهم من قبائل البلقاء، وكان من نتيجة ذلك أن انحدرت تلك القبائل إلى منطقة الغور.[١]

وهكذا فُتح الطريق لامتداد قبائل عنزة شمالاً، وجاءت هذه المعركة، عقب معركة ميقوع بالقرب من دومة الجندل، وكانت قد ارتادت بادية الشام بعض فروع عنزة كالمشطة من وِلد علي، والمنابهة من بني وهب.

***

(١) هذه الرواية رواها الشيخ حديثه الخريشة رحمه الله، وهذا يدل على رجولة متناهية منه رحمه الله وثقته بنفسه، مع عدم إخفاء ما يخص الآخرين من أفعال مما ابتلينا به في وقتنا الحاضر، أما الأبيات السابقة فهي مستقاة من رواة عنزة.

ثالثاً: إمتداد قبائل عنزة شمالاً

خلال الفترة (١١٣٥هـ حتى ١١٨٢هـ) كانت شبه جزيرة العرب تمر بسنّي قحط لم تشهد لها المنطقة مثيلاً منذ فترات طويلة، حيث شح المطر، وأجدبت الأرض، وانتشرت المجاعات والأوبئة، وعانى أبناء البادية وأبناء الحاضرة معاناة قاسية من جراء ذلك «وذلك على فترات متتالية».

وقد جاء في موسوعة «التاريخ الإسلامي» أنه وقع في نجد سنة (١١٣٥هـ) قحط عظيم يسمى «سحي» وبلغ قسوته حينما غارت الآبار حتى هلك الناس عطشاً وجوعاً وتشرداً، وفي سنة (١١٣٧هـ) عدمت الأقوات تقريباً، وفي هذا القحط أكلت جيف الحمير ومات كثير من الناس جوعاً وزاد البلاء عندما اشتدّ البرد فماتت الزروع، ثم جاء جراد أكل ما تبقّى من الثمار، وفي عام (١١٣٩هـ) وقع وباء توفي فيه خلق كثير.[١]

كما تحدث «ابن غنّام» عن أحداث عام (١١٨١هـ) بقوله: هذه السنة هي أول القحط المعروف والمشهور غارت فيه الآبار وغلت الأسعار، ومات كثير من الناس جوعاً ومرضاً وجلا أكثر الناس في هذه السنة، وعام (١١٨٢هـ) استمر الغلاء وزاد ما كان يلقاه الناس من مشقة وضيق، وتسمى هذه السنة «سنة سوقه» أو قحط «سوقه».[٢]

الأمر الذي حدا ببعض الأفخاذ من قبيلة «عنزة» للارتحال شمالاً طلباً للنجاة بحالها وحلالها، وقد كانت طلائع عنزة قد ارتادت مراعي الشمال في بلاد الشام قبل تلك الأحداث بفترة، فقد جاء في كتاب «لبنان في عهد الأمراء الشهابيين» للأمير حيدر أحمد الشهابي «وهو يكاد أن

---

(١) د. أحمد شلبي: «موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية» ج ٧، ط ٢، القاهرة: النهضة المصرية ١٩٨٢م، ص ٥٠.

(٢) حسين بن غنّام «تاريخ نجد». تحقيق: ناصر الدين الأسد، ص ١٣٢.

يكون المرجع الوحيد لوقائع بلاد الشام خلال القرن الثالث عشر» حول أحداث سنة (١٢٣٠/ ١٨١٤م) أن جموعاً عظيمة من عشائر عنزة قدمت من نجد هرباً من الجدب والضيق، وهذه العشائر هي الفدعان والسبعة والعمارات، وأنها زاحمت عشائر عنزة التي سبقتها من «ضنا مسلم»، الأمر الذي أدى إلى اصطدامها ببعضها[١]، مما يعني أن عشائر ضنا مسلم «ولد علي، والمنابهة، والجلاس» قد سبقتها بزمن.

وقد أورد كتاب «تاريخ الأمير فخر الدين» اسم عنزة في سياق حوادث سنة (١٠٣٠هـ). كما أن المستشرق الدنماركي «نيبور» الذي زار بلاد الشام سنة (١١٨٠هـ) قد أشار إلى قبيلة عنزة بقوله: هي أكبر قبائل البادية كلها، وهي تأخذ أموالاً نظير حماية ركب الحج الشامي، وهذه القبيلة في قتال دائم مع حكام هذه البلاد ولاسيما والي دمشق.

ولما جاء المستشرق «بركهارت» سنة (١٢٢٤هـ) وجد عشائر عنزة منبسطة في بلاد الشام منذ زمنٍ بعيد لم يستطع تحديده.[٢]

فقد انطلق المنابهة من بني وهب كأول الموجات الممتدة شمالاً، وكطلائع لمن سيلونهم من أبناء عمومتهم.

وقد استأذنت طلائعهم والي دمشق التركي في النزول في تلك المناطق من بلاد الشام، حتى هالهم ما رأته أعينهم من بساتين غنّاء، وأنهار جارية وأرض لم يألفوا مثل خضرتها في جزيرتهم.

فأذن لهم والي دمشق بذلك، جهلاً منه بأن هذه ليست إلاّ طلائع القادمين، وأن هؤلاء سيلحق بهم موجات بشرية من البدو الرحّل..

وبدأت تتقاطر الجموع بقضها وقضيضها بأعداد هائلة. عندئذٍ تنبه

(١) الأمير حيدر أحمد الشهابي «لبنان في عهد الأمراء الشهابيين»، بيروت ١٩٣٣م.
(٢) أحمد وصفي زكريا: «عشائر الشام»، ص ٣٦١.

الوالي لما ظنه مصدر خطرٍ كبير عليه وعلى سلطة الباب العالي. فما رأته عيناه، أمر يدعو للقلق، فهؤلاء القوم «المقاتلون بطبيعتهم» بأسلحتهم الفتاكة، وبأعدادهم الكبيرة، ونزعتهم القتالية وولائهم اللامحدود لزعمائهم. هم بلاشك خطر ما بعده خطر، خصوصاً وأنهم من العنصر العربي الخالص وأنهم لم يألفوا الخضوع لأي سلطة مدنية. وهو الذي يرى لنفسه الحق بذلك، فهو صاحب الأمر والنهي وصاحب الجند والعسكر الوحيد، وبيده وبأمره أعطى الإذن لرجال صحراء العرب للنزول حوله ظناً منه بأن الأمر لا يتجاوز بعض المئات منهم، وأنهم لا يمثلون خطراً حقيقاً عليه، وإذا به يجد نفسه تحت رحمة سيوفهم وفي متناول أطراف رماحهم.

عند ذاك قرر الوالي أن يباغت القوم قبل أن يستفحل أمرهم، وخصوصاً أن الأنباء جاءت بأن من وصل لا يعدو عن كونه أعداداً قليلة بالقياس بباقي قبيلة عنزة، وأن الباقين بدأوا يتقاطرون، وقد يجد نفسه في صباح أحد الأيام وقد سدّوا عليه الآفاق.

كان الوالي يعلم بأن قبيلة «المنابهة» قد احتكّت في مسيرها إلى بلاد الشام ببعض القبائل المحلية، وأن وصولهم قد أوغر صدور تلك القبائل لتوجسها منهم لما عرف عنهم من صلابة في القتال «وقد شكلت تلك القبائل حلفاً أطلق عليه حلف أهل الشام».

فبدأ الوالي بتحفيز تلك القبائل للتصدي للقوم وإجلائهم من تلك المناطق «وكأنه أراد أن يختبر مبلغ قوتهم»، وتوتر الموقف وبدأت المناوشات المتبادلة. إلاّ أنها لم تفلح في إجلاء القوم، فما كان من الوالي إلا وأن أرسل إلى زعماء المنابهة طالباً منهم العودة من حيث أتوا، متوعداً إياهم إن لم يفعلوا.

عند ذاك اجتمع زعماء المنابهة من عنزة وتشاوروا في أمرهم، ولم يكن لهم إلا أحد خيارين، فإما أن يرضخوا لطلب ممثل السلطة العثمانية ووالیها في دمشق، ويرتحلون إلى داخل شبه الجزيرة العربية، بما تعانيه من قحط وجدب وأمراض، ويزاحموا من بها من جوعى على جوعهم وعطش على عطشهم وظمئهم إلى قطرة الماء، وما ذلك إلاّ الفناء لهم ولإبلهم وحلالهم.

وإما أن يرفضوا ما أمرهم به ذلك الوالي، ويبقوا حيث الجنان الغنّاء والأنهار الجارية والأرض الخضراء والسحب المترادمة والأمطار الغزيرة، وذاك يعني القتال والحرب من أجله، ومقارعة الإرادة العثمانية، فإما الموت جوعاً وظمأً، وإما الموت على ظهور الخيل وفي ميادين الوغى.

وكان القرار المرّ والصعب.. فليس لهم إلاّ الخيار الثاني، حرب من أجل البقاء..

فهم مقاتلون بطبيعتهم، نشؤوا على المجالدة والكر والفر. وهم أبناء الأرض فهم العرب أبناء العرب، وما بلاد الشام إلاّ للعرب، وما هي إلاّ إمتداد طبيعي لجزيرة العرب، وليس الوالي التركي بأحق منهم في هذه الأرض.

حينئذٍ بدأ زعماؤهم الإعداد وبسرعة لمعركة الحياة، فأرسلوا لأبناء عمومتهم من قبيلة عنزة بطلب النجدة والنصرة وإمدادهم بالمقاتلين.

فأرسلوا للطيار يستحثونه على سرعة التلبية، وكذلك إلى باقي الفرسان من قبائل وِلد علي من بني وهب مثل باروخ بن خليل ودوخي بن سمير، وكذلك الشيخ بن غبين من ضنا بشر، والقعقاع شيخ الرولة آنذاك.

وكما هي العادة في البادية كان إعلان الحرب يصدر «كالبيان العسكري»

منظوماً في قصيدة تستحث الهمم، فكانت قصيدة النجيدي من المصاليخ والتي جاء بها:

قال النجيدي من عذيات النبا ... ألـذّ مـن در البكـار العسـايـف
وخلاف ذا يا راكب فوق عوصى ... ما فوقها إلاّ كورها والسفايف
فـوقـه غـلامٍ للفيـافـي مضـرّا ... يبي السرا وعن نومة الليل عايف
قـم يـا نـديبـي فـوقهـا لا تـونّـا ... إزبن على أللي زبنوا كل خايف
أولاد وايل وين ربعي نخيتكم ... مروين مصقول السيوف الرهايف

إلى أن قال:

باروخ وابن سمير ما يتركوننا ... وقعقاع والطيار والشيخ نايف
ويلان وين إنتم ترى اليوم يومكم ... ولاّ مع الأجناب ننهج عرايف[1]

***

وكانت المعركة.. وقد حشد لها الوالي التركي قواته وفرسانه من الأتراك وغيرهم واستنفر المحفوظ وقبائله بالإضافة إلى قبائل البلقاء وحوران ذات المصلحة في طرد قبائل عنزة، حيث تقاطرت تلك القبائل بشجعانها وفرسانها، تحدوهم الرغبة في كسر شوكة هذه القبيلة ودحرها إلى داخل صحرائها.

وفي الجانب الآخر تحاشد المنابهة ومن معهم من ولد علي وباقي قبيلة عنزة في منطقة «ميقوع»، وقد تبايعوا على الموت تحت أسنة الرماح وعلى صهوات الجياد في ساحة الوغى، وقد أخذ هذا الصدام طابعاً جديداً لم يكن مألوفاً، فهذا هو أول صدام بين جانب عربي وآخر تركي، ثم أنه أول تمرد على سلطة بني عثمان في الأستانة.

---

(١) ينظر في تفصيل ذلك «أصدق الدلائل» ص ١٠٠. كذلك وصفي زكريا «عشائر الشام».

ومن الناحية الأخرى كان الصدام يمثل معركة الحياة لعنزة التي قررت أن تخوضها وحشدت من أجلها خلاصة فرسانها وأشجع مقاتليها. كما أن أنباء الحشود من الطرفين من المؤكد أن أصداءها قد ترددت في أرجاء شبه الجزيرة العربية والعراق والشام، وكان الناس في شوق لمعرفة ما سوف تسفر عنه من نتائج.

كل ذلك زاد من حماس الطرفين، وإصرار كل جانب على حسم المعركة لصالحه. ثم كان الالتحام واحتدم القتال.. إلى أن دارت الدائرة على الوالي وحشوده، ومالت الكفة لصالح الجانب العنزي، وحمل الفرسان من عنزة حملة قوية شتت الكتائب التركية وحلفائها «والتي بلغت عشرين بيرقاً»، وقتل «المحفوظ»، وتفرقت حشود القبائل كمجموعات تطلب النجاة. وإنتهت المعركة «وتسمى معركة ميقوع» بانتصار مؤزّر لقبيلة عنزة، وكان هذا النصر يعني الكثير، فقد صدحت بأنبائه الآفاق وتناقلته الركبان، وفي ذلك يقول «النجيدي».[١]

الله لـو تـدري بيـوم جـرا لنـا ... جمـوع كثيـرة واغلبتهـا ردايـف
خيل المعادي يوم تشلا بخيلنا ... تشلا بها مثل السباع ألهوايف
ينخن (الصاعديات) في صيحةٍ لهن ... ينخننا عن عايزات الكلايف
جونا هل (البلقا) جموع يجرّها ... شيخ يبي يوفّي ديون وحلايف
جونا على (ميقوع) عشرين بيرق ... وأقفوا يجرّون الندم والحسايف

***

وكان لهذا الانتصار أثره الكبير على أيلكوجية المنطقة برمّتها، وعلى مدى مئات السنين[٢]، وخصوصاً أن الشيخ كنعان الطيار قد تمم هذا

(١) ينظر في تفصيل ذلك «أصدق الدلائل» ص ١٠٠. كذلك وصفي زكريا «عشائر الشام».
(٢) راجع أحمد وصفي زكريا، «المرجع السابق»، ص ٣٦١.

النصر بمعركته مع قبائل البلقاء في «سوح ذياب» ممتداً إلى داخل البلقاء.

فمن نتائج تلك المعركة وآثارها المباشرة وغير المباشرة مايلي:

أولاً: النتائج المباشرة:

(١) دحر الوالي التركي وقتل المحفوظ، وما يحمله هذا من معانٍ.

(٢) رضوخ السلطة العثمانية للواقع الجديد وركونها إلى عدم إستنزاف قواها وإمكاناتها في حروب تعتبرها جانبية، وهي المشغولة عن ذلك في أمور أكثر أهمية، ذلك أنها كانت تعمل آنئذٍ على ترسيخ سلطانها وفرض هيمنتها على بلاد القوقاز وأوروبا، وهي بغنى عن خلق عداوات ومعارك جديدة في جنوب البلاد مع العرب.

(٣) فرض الأمر الواقع على القبائل المنافسة في مناطق البلقاء ولجوءها إلى مهادنة هذه القوة الجديدة ومعايشتها سلمياً «ولو أن ما يسمى بحلف الشمال ضد عنزة كان إلى وقت قريب باقياً».

(٤) نزوح أعداد كبيرة من قبائل عنزة إلى المناطق التي تم فرض السيطرة عليها، فقد فرضت قبائل «ولد علي» بزعامة «الطيار» وقيادة «ابن سمير» نفوذها وسلطانها على المناطق المحيطة بدمشق، ومن المنطقة المعروفة بنقرة الشام والجولان غرباً إلى منطقة ضمير شرقاً، ومن منطقة إربد في شمال الأردن وحتى أواسط «القلمون» شمالاً، بالإضافة إلى مناطقهم السابقة في شمالي غرب نجد وفي الحجاز[1] وفرض «الحسنة» بزعامة ابن ملحم سيطرتهم على المناطق المحيطة بحمص وحتى أواسط

(١) من الجدير بالذكر في هذا السياق بأن قبائل «ولد علي» لم تتحرك بكاملها شمالاً، فقد تبقت منها عشائر كبيرة في منطقة غرب نجد وأواسط الحجاز، ليمثل كل جناح منها رافداً للآخر في مراحل قادمة. حيث بقي «آل منصور من أسرة الطيار»، وبقي «الأيدا»، ومن كل عشيرة تبقى قسم في مناطقهم التقليدية.

القلمون جنوباً.

وكان هذان الفرعان من عنزة يتمتعان بعلاقات حميمة وطيبة فيما بينهما، فهم يمثلون أحد أكبر البطون في قبيلة عنزة وهي «بني وهب»، وعلاقات النسب بين الأمير الطيار والأمير ابن ملحم ممتدة ومتشعبة، وقد مثل كل طرف للآخر رافداً ومدداً.

ثانياً: النتائج غير المباشرة:

(١) كان لامتداد بعض فروع قبيلة عنزة أثره الإيجابي على الوضع السيء في شبه الجزيرة العربية المجدبة، فقد تركت بنزوحها المجال لبعض القبائل الجنوبية لترتاد بعض مواطن الكلأ على قلتها في نجد، وخصوصاً أن ذلك الامتداد قد تبعه امتدادٌ «ضنا بشر» من عنزة «العمارات وضنا عبيد» باتجاه العراق والجزيرة العربية الفراتية، وكذلك الرولة وبعض القبائل المجاورة لعنزة مثل شمر وبني خالد والذين بدورهم ارتادوا تلك المناطق، وهذا بلاشك قد غيّر وأثّر على التركيبة السكانية في مناطق عدة من شبه الجزيرة العربية «كما أثّر على التركيبة السكانية في المناطق الجديدة» حيث برزت وبشدة، قوى جديدة فرضت نفسها من قبائل جنوب الجزيرة العربية وسدّت بعض الفراغ الذي أحدثه امتداد فروع من عنزة شمالاً. وفي ذلك يقول ابن هذال شيخ العمارات:

كتاب من حيّف على البيض بالغار[١]

يقـول حـل بـداركـم حـرب ومطيـر

(٢) احتدام الصراع، وعلى مدى عقود طويلة، بين هذه القوى العنزية ذاتها «بتشجيع السلطة التركية ومن بعدها السلطة الاستعمارية الغربية

(١) المقصود ابن عريعر أمير بني خالد.

وسعي السلطات الرسمية لخلق حالات الشقاق والفرقة، كما حصل في «معركة كوم الزياتين» لفرض السيطرة على أوسع منطقة من المناطق الجديدة، حيث لم يتمم تقاسم مناطق النفوذ بشكل منظّم. الأمر الذي أدى إلى تشكّل الأحلاف وأفرز النزاعات «التي كانت تغذّى من قبل السلطة». فكان هذا مظهرَ تشتُّتٍ وفرقة لم يكن معهوداً برز عقب انتهاء هذه الأطراف من أمر القوى المحلية القديمة، ومحاولة كل طرف فرض إرادته على الطرف الآخر. ونسوق هنا مثالاً على ذلك:

فما كاد الأمر يستقر للقادمين الجدد عقب إنتهائهم من الخطر الأساسي «السلطة العثمانية وحلفائها» ومهادنة هذه السلطة لهم، من خلال الهبات والمنح والأعطيات[١]، حتى برزت على الساحة المحاولات لبعض العشائر للتمدد على حساب العشائر الأخرى، ومنع بعض العشائر لأخوانهم من العشائر العنزية الأخرى من النزول في مناطق نفوذهم. فقد كانت عشائر الرولة ترغب في أن تشارك عشائر ولد علي في مناطقهم لوفرة المراعي فيها، إلاّ أن ولد علي كانوا يرفضون مزاحمة الرولة لهم في مناطقهم. الأمر الذي ألجأ الرولة بقيادة الدريعي للمسير في حملة الإمام «سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود» والتي جردها لقتال ولد علي في نقرة الشام[٢]. وقد أشار ابن غنّام في تاريخه إلى مسير الإمام سعود عند حديثه عن أحداث عام ١٢٢٥هـ، وقد برز نجم دوخي بن سمير في هذه الأحداث، يقول ابن غنّام ما نصّه: (عام ١٢٢٥هـ) وفيها سار سعود بالجنود المنصورة والخيل والجياد المسوّمة المشهورة، واستنفر جميع

(١) الصرّ الذي كان يمنح للشيوخ، وقد أشار المستشرق «موزيل» إلى أن الحكومة التركية كانت تمنح للطيار شيخ قبائل ولد علي مبلغ (٢٨٠) جنيه تركي، أي ما يعادل (١٢٦٠) دولار أمريكي في حينه، وهو في تلك الفترة مبلغ هائل، نظير حمايته للحجاج. راجع «موزيل» ص ٣٩٠.

(٢) راجع بيركهارت: «ملاحظات حول البدو الوهابيين» تعريب الأسيوطي، ص ٤.

النواحي من جميع الحاضر والباد، من وادي الدواسر إلى مكة والمدينة إلى جبل طي والجوف وما بين ذلك نحو ثمانية آلاف خرج من الدرعية وقصد نقرة الشام يريد «ولد علي» من عنزة، فسار سعود في تلك الناحية وأقبل وأدبر، واجتاز بالقرى التي حول المزيريب وبصرى، ثم رجع قافلاً إلى وطنه، وحصل في الشام رجفة ورعب عظيم بهذه الغزوة في دمشق وغيرها من بلدانه.[١]. وهكذا لم يتواجه الفريقان، لأسباب لم يوضحها لنا ابن غنّام أو ابن بشر.

وهكذا كانت العلاقات تتوتر بين الرولة وولد علي بين الحين والآخر وجرى بينهما معارك عديدة على أثر هذه الحادثة، منها معركة «كوم الزياتين» عام (١٢٧٧هـ) وهي المعركة التي قادها محمد بن دوخي من جهة «بتحريض من الوالي التركي» وفيصل الشعلان من الجهة الأخرى ونتج عنها مقتل فيصل الشعلان.

ومن أمثلة ذلك أيضاً احتدام الصراع بين الفدعان والسبعة والعمارات وشمر من جهة، والحسنة والجلاس من جهة أخرى بتحريض من والي دمشق «سليمان باشا السلحدار» سنة ١٢٣٠هـ (١٨١٤م) في منطقة سلمية[٢] كما تجدد هذا الصراع بين نفس هذه العشائر عام ١٣٤٦هـ (١٩٢٨م)، وامتدت آثاره إلى سنوات عديدة إلى أن تم الصلح بينها في مرحلة لاحقة.

(٣) توزع القبائل المحلية في بلاد الشام بين قبائل عنزة كأحلاف

---

(١) ابن غنّام، ص: أحداث عام ١٢٢٥هـ، كذلك عثمان بن بشر «عنوان المجد في تاريخ نجد». القاهرة: دار بنة، ص ١٥٥.

(٢) انظر في تفصيل ذلك: الأمير حيدر الشهابي: «لبنان في عهد الأمراء الشهابيين»، كذلك أحمد وصفي زكريا: «عشائر الشام»، ص ٥٩٣، كذلك جون لويس بيركهارت: «ملاحظات حول البدو والوهابيين» تعريب الأسيوطي، ص ١٢٩.

لهذه أو لتلك، مما أدى إلى زيادة عوامل ومسببات الفرقة عند كل اصطدام بين القبائل الحليفة وبعضها البعض، الأمر الذي كاد يقود إلى دخول قبائل عنزة الصراع فيما بينها كنتيجة للصراع بين القبائل المحلية. كما حصل عندما لجأت قبيلة الموالي إلى قبيلة الفدعان العنزية هرباً من قبيلة الحسنة العنزية، حيث ثار صراع عنيف بين الفدعان والحسنة ودخلت فيه أطراف عديدة.[١]

وبالإضافة لكل ما سبق كان لغياب المرجعية الواحدة دوره الكبير في إذكاء عوامل الصراع واستفحال نتائجها المؤسفة، ذلك الصراع الذي لم تكن قبائل عنزة تعرفه فيما بينها قبل أن تتمدد إلى خارج شبه الجزيرة العربية.

***

(١) راجع في ذلك أحمد وصفي زكريا «المرجع السابق»، ص ١٠٠.

رابعاً: قبائل عنزة بعيون غربية

«الرحالة السويسري بيركهارت»

كان من المفيد لنا أن نورد في هذا الكتاب بعضاً من المشاهدات الحية لما هو عليه الحال لدى قبائل عنزة عقب امتداد بعض فروعها إلى بوادي الشام والعراق. ولما كنا بحاجة إلى شاهد عيانٍ محايد عاصر قبائل عنزة إبان تلك الحقبة، فقد كان في مقدمة من توضع مشاهداته قيد البحث، الرحالة السويسري الشهير «جون لويس بيركهارت»، وذلك لعدة أسباب من أهمها:

أنه وبإجماع كل المختصين، يعتبر من أفضل من كتب عن المنطقة، لما يمتاز به منهجه من الدقة والحرص على تدوين كل التفاصيل في مشاهداته. ثم إنه كان من الرواد في مجاله وممّن كانت كتاباتهم هي الأساس الذي بني عليه من تلاه من الرحالة والمستشرقين. ومن ناحية أخرى فإن بيركهارت تنقل في قبائل عنزة فترة طويلة وخص عنزة بالكثير من كتابه «ملاحظات على البدو والوهابيين».

وقد بدأ رحلته في «حلب» عام (١٨٠٩م) وانهمك في دراسة اللغة العربية، حتى برع فيها، وقد شغف بالبدو إلى الحد الذي كتب يقول عنهم: «إنهم أحد أنبل الأمم التي أتيح لي التعرف عليهم وأفضل من أوروبيين كثيرين» كما كتب يقول: «لقد عشت مع البدو أسعد أيام حياتي» ثم إنه في مرحلة لاحقة أسلم وطلب قبل وفاته أن يدفن في مقابر المسلمين، وكانت وفاته عام (١٨١٧م) في القاهرة وكتب على شاهد قبره «هذا قبر المرحوم إلى رحمة الله تعالى الشيخ حاج إبراهيم المهدي بن عبدالله بركهرت اللوزاني. تاريخ ولادته ١١٩٩هـ، وتاريخ وفاته إلى رحمة الله تعالى بمصر المحروسة في ١٦ ذي الحجة ١٢٣٢هـ».

○ ملاحظات بيركهارت حول قبائل عنزة عام ١٩٠٩م:

قال بيركهارت في كتابه :

تعتبر «عنزة» نجد وبادية الشام أقوى القبائل العربية والكيانات البدوية في الصحاري العربية .

وبالنسبة لعنزة الذين يعيشون في القسم الشمالي من الصحراء العربية ، فإنهم في العادة يقضون فصل الشتاء في صحراء الحماد أو السهل الواقع بين حوران غرباً وهيت على الفرات شرقاً .

ولا تعرف صحراء الحماد فصل الربيع ، ولكن تتجمع المياه هناك في الأراضي المنخفضة في فصل الشتاء ، ومن ثم توفر نباتات وشجيرات الصحراء الكلأ لماشية العرب ، ولذلك عرف عن عنزة اجتياز الفرات والتخييم في العراق بالقرب من بغداد .

وهم يقتربون في الربيع من تخوم سوريا ويقيمون خطاً من الخيام يمتد من أجواء حلب إلى مسافة ثمانية أيام جنوب دمشق بيد أن مقرهم الرئيسي في ذلك الوقت يكون في حوران ونواحيها حيث يخيمون بالقرب من القرى وحواليها ، بينما في شمال البلاد ـ أي باتجاه حمص وحماة ـ يخيمون في الغالب على مسافة محددة من المناطق المأهولة ، ويقضون فصل الصيف بأكمله في هذه المناطق سعياً وراء الكلأ والماء .

وفي الخريف يشترون مخزونهم الشتوي من القمح والشعير ، وبمجرد بدء موسم الأمطار يعودون إلى جوف الصحراء . وقد ساعدتهم قوتهم الكبيرة على فرض أتاوة سنوية على معظم القرى القريبة من الحدود الشرقية لسوريا ، وقد اعتنقت قبائل عنزة العقيدة الوهابية[١] منذ ما يزيد على

---

(١) ليست هناك عقيدة تسمى بالوهابية ، وإنما هو مذهب وعقيدة السلف الصالح ، والشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله كان مجدداً ومصلحاً .

(١٥) عاماً، وقد مكنتهم العوائد التي يحصلون عليها من قوافل الحجيج إلى مكة من الاحتفاظ بموقع جيد إزاء الحكام الأتراك، ويحتل «الطيّار» المكانة الأولى بين شيوخهم، ومن ثم يطلق عليه «أبو عنزة». (١)

ومن الصعوبة بمكان تحديد أعداد قبائل عنزة، وذلك بسبب معتقداتهم التي تمنعهم من حصر فرسانهم، مثلهم في ذلك مثل تجار الشرق الذين يعتقدون أن من يعرف حجم ثروته على وجه الدقة، لابد وأن يفقد في الحال جزءاً منها.

وقد حصلت على معلومات من بعض تجّار دمشق الذين قضوا مجمل حياتهم وسط البدو، ما يجعلني أقدّرُ قوّةَ قبائلِ عنزة في الشمال «بدون أشقائهم في نجد» بحوالي عشرة آلاف فارس، وحوالي من ٩٠ إلى ١٠٠ ألف راكب جمل «هجّان»، وعدد آخر أكبر من الرجال الأقل درجة، ويقدّر مجمل قبائل عنزة في الشمال «بدون أشقائهم في نجد» بما يتراوح بين ٣٠٠ إلى ٣٥٠ ألف نسمة ينتشرون فوق مساحة لا تقل عن ٤٠ ألف ميل مربع. (٢)

وأقسام عنزة هي: (٣)

أولاً: ولد علي:

ويقضون فصل الشتاء عموماً على طريق الحج حتى قلعة الزرقاء ويدعى شيخهم «الطيّار»، وينقسمون بدورهم إلى خمس قبائل هي:

---

(١) بيركهارت، ص ٢.

(٢) نفس المرجع، ص ٤.

(٣) تجدر ملاحظة أن هذا التقسيم هو بحسب ما ورد في كتاب بيركهارت، علماً بأن عنزة لها أقسام وفروع ضخمة جداً والفروع التي ذكرها بيركهارت لها بدورها تفرعات كبيرة وضخمة. انظر التفاصيل في «أصدق الدلائل في أنساب بني وائل».

(١) **المشادقة**: ويتكونون من عرب الطيار وهي قبيلة الشيخ الكبير نفسه والمريخات واللحاوين.

(٢) **المشطة**: وشيخهم «ابن سمير» وهو في الوقت الراهن أقوى شيوخ عنزة رغم أنه يلي الطيار في المنزلة، وهو يستمد نفوذه من صلته الوثيقة مع باشا دمشق حيث يجهز له كل عام عدد كبير من الإبل اللازمة لقافلة الحج، وقد اتّخذَ يوسف باشا «والي دمشق» من مخيمه ملجأ له بعد أن هرب من دمشق عام (١٨١٠م).

(٣) **الحمامدة**: وتوجد أساساً على طريق مكة حتى معان ولها شيخان ينحدران من عائلة واحدة سالم ومبارك الأيدا.[١]

(٤) **القذالمة**: وتتكون من قبيلتين رئيسيتين.

(٥) **الطلوح**: ولكل قبائل ولد علي نصيب من الصرة أو الأتاوة على قوافل الحج تتسلمها من باشا دمشق أو أمير الحج.. أما الطلوح فهي القبيلة الوحيدة التي تحصل على الصرة الخاصة بها من القسطنطينية مباشرة.

ثانياً: الحسنة:[٢]

وتتكون من قبيلتين أساسيتين:

(١) **الحسنة**: أي الأسم نفسه، ويخيم شيخهم مهنا «الملحم» عادة في الصحراء شرق الطريق الواصل من دمشق إلى حمص، وهم مشهورون بالشجاعة والأنفة وإكرام الضيف.

---

(١) هكذا ورد سالم ومبارك. ومعروف أن سالم جد الهندي من أبناء حمدان الأيداء أما مبارك فهو جد المبارك مشايخ الفقرا، فمن المرجح أن بيركهارت يعني هذان الرجلان، والمؤكد أن مشيخة الأيدا في فرع المسعد من اليديان.

(٢) والصحيح أنهم المنابهة.

(٢) **المصاليخ**: وتحصل من الحسنة على أتاوة من قافلة البصرة وبغداد التي تعبر الصحراء في طريقها إلى حلب ودمشق، ومن القرى الواقعة على الطريق.

ثالثا: الرولة:

ويطلق عليهم الجلاس[١]، وقد هزموا في عام (١٨٠٩م) جيشاً قوامه ستة آلاف رجل أرسله باشا بغداد لتأديبهم، وقد رافقوا قوات ابن سعود إلى حوران في يوليو ١٨١٠م وقادوه إلى أكثر القرى ثراءً. ويقوم الرولة بزيارة ابن سمير كل ربيع ليحصلوا من خلال وساطته على تصريح الباشا لهم بشراء القمح والشعير من منطقته، ولا يحصل الرولة على نصيب من صرة الحج، أو أي أتاوة أخرى من قوافل بغداد والبصرة.

رابعاً: بشر:

وشيخهم الكبير «ابن هذال» وهو يخيم مع قبيلته في نجد، وبدأت بشر منذ حوالي خمسين سنة يطالبون قوافل بغداد والبصرة بأتاوة مرور، ومن شيوخهم ابن غبين وابن مهيد والقعيشيش، وهذا مدى معرفتي بقبائل عنزة. أما بالنسبة لتفصيل فروعهم الصغرى فإن هذا قد يعني وضع قائمة بكل عائلاتهم، حيث تشكل كل عائلة وقراباتها قبيلة صغيرة بحد ذاتها.[٢]

○ نمط الحياة لدى قبائل عنزة:

عنزة هي القبيلة البدوية الوحيدة حقاً في بوادي الشام، بينما القبائل

---

(١) والصحيح أن الرولة من الجلاس.

(٢) لمراجعة تفرعات عنزة انظر الفصل الثاني، ولمزيد من التفاصيل راجع «أصدق الدلائل في أنساب بني وائل».

الأخرى في هذه النواحي تعد أقل تمثيلاً بدرجة أو بأخرى للحياة البدوية، والكثير من هذه القبائل تم إخضاعه، بينما لاتزال قبائل عنزة حرة تحكمها ذات القواعد التي انتشرت وعمّت الصحراء بعد بدء العصر الإسلامي.[١]

إن رجال عنزة رعاة بأكثر معاني الكلمة دقة وصرامة، فهم في حالة تنقل دائم طوال العام تقريباً، حيث يقضون الصيف بالقرب من الحدود السورية، وفي الشتاء يقبعون في الصحراء أو بالقرب من نهر الفرات. وهم يخيمون صيفاً بجوار الأقنية والآبار التي تزخر بها المناطق القريبة من الصحراء، ولكنهم نادراً ما يمكثون أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام في مكان واحد، فبمجرد أن تستنفذ ماشيتهم الكلأ بجوار مورد المياه ترحل القبيلة سعياً وراء المزيد من الكلأ، ومن ثم يخيمون ثانية بالقرب من مورد مياه آخر.

وتختلف المخيمات من حيث عدد الخيام، فهي تتراوح بين عشر وثمانمائة. وحينما يكون عدد الخيام قليلاً فإنها تنتظم في صورة دائرة، وفي حالة زيادة العدد فإنها تأخذ شكل الخط المستقيم ـ أي صف من الخيام المتفردة ـ وأحياناً تأخذ صورة ثلاثة أو أربعة صفوف في حالة الأعداد الكبيرة من الخيام وفي هذه الحالة يسمى المخيم «النزل»، أما في الشتاء وحيث لا تنعدم المياه والكلأ تأخذ المخيمات شكلاً مختلفاً، إذ تنتشر القبيلة نفسها في صورة تجمعات يتشكل كل منها من ثلاث أو أربع خيام مع وجود مسافة بين كل تجمعين مقدارها مسيرة نصف ساعة، وفي هذه الحالة يسمى كل مخيم «الفريق».

وتكون خيمة الشيخ في الجانب الغربي[٢] من النزل، وذلك لأن

(١) هذا الرأي مجافي للواقع ففي بداية العصر الإسلامي كانت الشريعة الإسلامية بعدالة قواعدها هي السائدة، إلا أن إهمال جزيرة العرب في مراحل لاحقة قد يكون أدى لسيادة القواعد التي أشار إليها بيركهارت، راجع مقدمة مؤلفنا هذا.

(٢) قد يكون هناك خطأ في الترجمة أو الطباعة فيبدو أن المقصود الجانب الشرقي.

العرب يتوقعون مجيء الأعداد والضيوف على السواء من هذا الاتجاه، وواجب الشيخ الأساسي هو التصدي للأعداء وإكرام الضيف، ومن المعتاد بالنسبة للضيف أن يهبط على أول خيمة تتقدم المخيم، وينبغي على الشيخ أن يكون في الموضع الذي يتوقع أن يأتي الأغراب منه.

ويثّبت رب الأسرة رمحه في الأرض بجانب خيمته، أما في مقدمتها فيربط حصانه، وهنا أيضاً ترقد جماله في الليل، بينما تمكث الأغنام ليل نهار في حراسة راعٍ يعود بها كل مساء إلى البيت.

وحينما كنت عائداً من «تدمر»، صادفت في اليوم نفسه أهل مخيمين قويين يتحركون ببطء على السهل الرملي سعياً وراء الماء والكلأ، وكان نظامهم في التحرك كالآتي:

تتقدم القبيلة بمسافة حوالي (٤) أميال جماعة من خمسة أو ستة فرسان كفصيلة استطلاع أمامية وتسمى «السلف»، بينما شكّل الجسم الرئيسي للقافلة خطّاً طوله ثلاثة أميال على الأقل وكان في مقدمتها الفرسان وراكبوا الجمال المسلحون، يبعد كل منهم عن الآخر حوالي ١٠٠-١٥٠ خطوة وينتشرون بعرض المقدمة، ثم يتبعهم النوق وأطفالهم يرعون في صفوف عريضة الكلأ البري أثناء السير، وخلفهم سارت الجمال المحملة بالخيام والمؤن، وفي المؤخرة كانت النساء والأطفال محمولين على جمال ذات لجام عليها مهد، ومزودة بستائر للحماية من الشمس. وكان الرجال جميعاً راكبين دون تفرقة بين من في المقدمة أو من في صلب القافلة، وبعضهم يقود الخيول وذلك على مسافة حوالي ميلين ونصف.

ويمكن من أول نظرة تمييز بدو عنزة عن بدو سورية، وذلك بفضل جدائل شعرهم الطويلة، فهم لا يحلقون قط شعرهم الأسود، ويحتفظون به منذ الطفولة، ويمكن أن يضفرونه في جديلتين تسميان قروناً.

كما يمكن تمييزه عن عرب الشمال بواسطة أحجامهم الدقيقة وملامحهم الحسنة، وليسوا مهزولين أو نحفاء كما أخبر بعض الرحاله، وتبرق عيونهم عميقة السواد من تحت حواجبهم الكثيفة ببريق غير معروف في أجوائنا الشمالية، ولحاهم قصيرة ودقيقة ولكن شعر رأسهم الفاحم كثيف طويل للغاية.[١]

وفيما يتعلق بالتربية فيمكن أن يقال إن الطفل العنزي الصغير يمكن أن يلقب حقاً بـ «ابن الطبيعة» فالآباء يتركونه لإرادته الحرة، ونادراً ما يعاقبونه، وإنما يدربونه منذ نعومة أظفاره على مشاق الحياة الرعوية، وحدث أني شاهدت جماعات من الأطفال يلعبون في رابعة النهار فوق الرمال المحرقة في منتصف الصيف، ويعدون حتى أجهدوا أنفسهم، وحينما عادوا إلى خيام آبائهم جرى توبيخهم لأنهم لم يواصلوا التمرين.

○ السلاح عند قبائل عنزة:

الرمح هو أكثر الأسلحة شيوعاً عند البدو، ويوجد لدى عنزة نوعان من الرماح، أولهما يدعى «رماح زان» ويصنع من خشب يجلب من غزة بفلسطين، والآخر «رماح قناه» وهو الأغلى ثمناً ويجلب من بغداد، حيث يصنع من نوع من البامبو ذي عقل عديدة.

ويستخدم الذين يقاتلون راجلين رمحاً قصيراً يسمونه «قطعة» ويقذفونه إلى مسافات كبيرة، وأحياناً يحمل المقاتلون المترحلون ترساً «ودقة» وهي مستديرة يبلغ قطرها حوالي ١٨ بوصة وتصنع من جلد الثور الوحشي وتغطى بقضبان حديدية، ولاتزال القمصان الحديدية مستخدمة ويسمونها «الدرع» ويوجد منها نوعان أحدهما يغطي الجسم بكامله مثل عباءة

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣.

طويلة تنسدل من الكتفين والكوعين حتى الركبتين ويسمى «سرجة»، والنوع الآخر يسمى «قمباز» ويغطي الجسم حتى الوسط فقط، وتغطي الكوعان بقطعتين من الفولاذ تسميان «كلجك» وتثبتان بأصابع حديدية، ويستكمل العربي تدريعه هذا بأن يضع على رأسه «طاسه» حديدية، ويسمى الفارس المدرع هكذا «ملبّس» والجمع «ملابيس»، وإذا ارتدى عباءة فوق الدرع لإخفائه يطلق عليه «دافن»، ويجيد رجال عنزة استخدام الأسلحة النارية، ويوجد لدى عنزة نوع من الدروع لخيولهم يسمى «لبس» ويستخدم في الحروب، وهو يصنع في حلب وحدها، ويتكون من سبع قطع من الورق المقوي الغليظ تغطى بقماش أحمر، وتوضع قطعتان على كل من جانبي الحصان وقطعتان على كل من جانبي مؤخرته وقطعة على صدره، وتحاك القطع الجانبية تحت الركاب وتوصل بقطع الصدر والخلفية بكلابات من الصلب، ويقوم بعض الرجال من محبي الأناقة بزخرفة هذا الدرع.[١]

○ الحروب والغارات:

من المعتاد رؤية قبائل عنزة يخيمون في حوران «بوادي الشام» ويقومون بغارات في منطقة مكة أو بغداد[٢]، وحينما يعقد العزم على القيام بحملة بعيدة يتزامل كل فارس مع زميل له يركب جملاً شاباً وقوياً، وهو ما يسمى «الزماله» على الجمل حتى لا يرهق فرسه قبل أن تأتي ساعة الكسب، وحينما يقترب الغزو ـ أي الحمله ـ من العدو يحدد رئيسهم «عقيد الغزو» ثلاثة أماكن للقاء حيث يجب على الزمل الانتظار، حتى يعود الفارس المشترك في الهجوم. ويكون المكان الأول على مسافة تبعد أكثر من

(١) المرجع السابق، ص ٢٣.
(٢) المرجع السابق، ص ٥٧.

نصف ساعة عن مخيم العدو، وإذا مر الوقت المحدد ولم يعد الفارس، ينتقل الزمل إلى المحطة الثانية حيث يقبع هناك ثلاثة أو أربعة أيام، ويكون الميعاد الثالث دائما على مسافة يوم من منطقة الهجوم، وعندما ينفذ الوقت ولا يعود المهاجمون ينطلق الزمَّال عائداً إلى موطنه بأقصى ما يمكنه من سرعة، وإذا توجت الحملة بالنجاح يحصل الزمل على ناقة، وبالطبع لا يحصل الزمال على أي مكافأة إذا هزم الفارس. ويحدث أحياناً في بعض الحملات البعيدة أن يتم القضاء على كل الفرسان، وإذا عادوا ولم يتمكنوا من اللحاق بالزمل الذي يحملون معهم الطعام والماء فليس أمامهم إلا الهلاك في الصحراء الجرداء، أو التعرض للسلب والنهب.[١]

وحينما يأتي الغزو من مسافة بعيدة للهجوم على مخيم ما، فإنه لا يكترث بالممتلكات داخل الخيام، وإنما يسوقون الخيول والإبل معهم، وفي هذه الحالة قد تنجح امرأة شجاعة في استعادة جمل زوجها أذا عَدَت خلف الغزو المنسحب وخاطبت الشيخ قائلة: يا عقيد القوم، أريد من الله ثم منك الأكل نحن مقطوعون.

ولا تغير قبائل عنزة في الليل مطلقاً ويعتبرون ذلك بوقاً ـ أي خيانة وفضيحة ـ لأنهم أثناء الاضطراب الناجم عن الهجوم قد يدخلون أقسام الحريم في الليل «المحرم».[٢]

ويستخدم بعض شيوخ عنزة في وقت الحرب ما يمكن أن نطلق عليه «راية المعركة»، وتأخذ هيه الراية أو الشعار صورتين: الأولى تسمى «المركب» وتتكون من سنادتين خشبيتين يبلغ طولها ٦-٧ أقدام ويغطي الجزء الأعلى للمركب بريش النعام الأسود.

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٥٨.

أما الصورة الأخرى فتسمى «العطفه» وهي تتكون من لوحين جانبيين لهما شكل المستطيل وارتفاعها حوالي خمسة أقدام، ويتم تزيينها أيضاً بريش النعام، وهذا النوع مستخدم الآن لدى «الطيّار».

ولا يحدث أبداً أن يكون دليل الجمل «حامل المركب أو العطفه» رجلاً عربياً حراً، حيث من المشين لكرامة الرجل أن يغني أو يطلق الزغاريد، فالدليل إما أن يكون صبياً أو امرأة عجوز. ويلتف حول هذا الجمل كل الفرسان، ويتركز المجهود الرئيسي عليه حيث يعد الاستيلاء عليه نصراً ويحمل إلى الشيخ المنتصر.

وهناك ثلاثة أيام على الأقل في كل شهر قمري لا تقاتل فيها عنزة أبداً، وهي اليوم السادس واليوم السادس عشر وليلة الحادي والعشرين، وهم يعبرون عن ذلك بقولهم «كفى الله شر الست مع ست العشر وواحد العشرين يكفيك الكدى» كما تمتنع عنزة عن القتال يوم الأربعاء اعتقاداً بأنهم لابد أن يخسروا المعركة.[١]

إن البدوي يرتبط بقبيلته ويفخر بها ويهتم بمصلحتها وقوتها وشهرتها، ويضحي بكل غالٍ ورخيص ويستعد للعمل على رخائها، ولا تعتمل مثل تلك الأحاسيس بنفس القوة في أي أمة أخرى.

إن وعي البدوي بالقبيلة لا يقل نبلاً عما كان في تاريخ الجمهوريات الإغريقية والهيلينية، لو تعرض واحد من عنزة إلى هجوم مفاجئ فإنه يستلّ رمحه ويضعه فوق رأسه ويصيح «أنا العنزي».[٢]

الضيف يعتبر عند عنزة ذا حق مقدس، ويحمي شخصه، ولا تحمل

---

(١) المرجع السابق، ص ٦١، ولا يعني كبار السن من عنزة مثل ذلك ولم يسمعوا به فلا صحة لذلك.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٠.

ذاكرتي أي حدث يتعلق بانتهاك الضيافة أو خيانة الضيف، ومن يكن له حام واحد في قبيلة ما، يصبح صديق كل القبائل المتعاهدة معها. وتضمن له عنزة الحماية الكاملة لروحه وممتلكاته، فأينما ذهب يتبعه أحد رجالهم.

ويمثل عنزة كل الرسل المتنقلين بين بغداد وحلب والبصرة، وفي يونيو ١٨١٠م خرجت من حلب برفقة شيخ من الفدعان تم نهبه بالقرب من «حماة» على أيدي بعض عرب «الموالي» الذين كانوا في حالة حرب مع عنزة، وقد استعيدت أغلب ممتلكاته ودواب رفاقه بفعل نفوذه متسلم «حماة»، وقد استقبلنا كل العرب الذي قابلناهم بكرم الضيافة.[١]

○ مكانة عنزة في بوادي العرب:

تحصل قبائل عنزة على «الخوه» من القرى السورية الشرقية التي تخيم في نواحيها خلال فصل الصيف، ويدفع مبلغ «الخوة» لرجل واحد من القبيلة «شيخ القبيلة» أو أحد رجالها، وبالتالي تحصل القرية على التأمين ضد أي سلب من جانب أفراد القبيلة، وبذلك يصبح الشيخ أخاً لسكان القرية، ومن هنا جاءت تسمية خوّة «الأخوة»، وينطبق الأمر نفسه على الصرة التي تدفعها حملة الحج إلى عنزة، والتي تراوحت في العام الماضي بين ٥٠-٦٠ ألف جنيه[٢]، ويأخذ الطيّار ريالاً عن كل خيمة مارة.[٣]

وإنه لما يثير الدهشة حقاً أن تجد لدى عنزة معلومات دقيقة عما يحدث في نجد والحجاز والدرعية والعراق، رغم أن هذه البلاد لا تعرف تقريباً التراسل بالخطابات، وقد علمت أثناء إقامتي في حوران - عن طريق

(١) المرجع السابق، ص ٧٢.
(٢) المرجع السابق، ص ٧٨.
(٣) المرجع السابق، ص ١١.

شيخ درزي ـ أن عنزة قد حصلت على معلومات منذ بضعة شهور بأن الإنجليز قد قاموا بإنزال على الساحل العربي للخليج واستولوا على حصن رأس الخيمة وقتلوا الكثيرين من العرب، وفي البداية لم يصدق سكان حوران هذه الأنباء وقالوا: نحن نعرف أن الإنجليز جاؤوا إلى «عكا» من الغرب فكيف يمكن أن يظهروا هذه المرة من ذلك الجانب الشرقي البعيد عنا؟ ولما شرحت لهم الأمر أجابوا: نحن نعرف أنه لابد أن يكون هناك شيء من الحقيقة في هذه الأخبار لأن عنزة لا يذيعون خبراً في الصحراء دون أن يكون له أساس قوي.[١]

○ الحكم ونمط القضاء:

لا يمكن للشيخ أن يعلن الحرب أو يعقد السلام دون استشارة الشخصيات الرئيسية في القبيلة، وإذا أراد أن يفض المخيم فيجب عليه أن يستطلع قبل ذلك آراء قومه فيما يتعلق بأمن الطريق، ومدى توافر الكلأ والماء في المكان الذي يرى الانتقال إليه. وهو لا يعطي أوامر لتطاع، وإنما يمثل نموذجاً يتبعه الآخرون، ومن ثم فهو يفك خيمته ويحمل جماله دون أن يطلب من أحد أن يفعل مثله، بيد أنه بمجرد علم الآخرين أن الشيخ راحل يسرعون إلى الالتحاق به، ولا يحصل الشيخ على أي دخل سنوي من قبيلته، بل على العكس هو مضطر إلى دعم لقبه ونشر نفوذه، فينتظر منه أن يرحب بالضيوف ترحيباً أفضل من أي شخص آخر في القبيلة، وأن يساعد الفقراء، وأن يقتسم مع أقرانه أي هدايا يتلقاها. ووسيلة للاضطلاع بهذه النفقات هي «الخوة» التي يجبيها من القرى السورية والعوائد التي يحصل عليها من حملات الحج.

وحين يموت الشيخ يخلفه أحد أبنائه أو أشقائه أو أي قريب آخر يتسم

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٧.

بالشجاعة والسخاء، وإذا توفرت هذه المزايا بدرجة أكبر لدى شخص آخر يتم اختياره، وحينئذٍ تنقسم القبيلة في الغالب بين من يناصرون أسرة الشيخ الراحل ومن يدعون إلى تنصيب شيخ آخر.

والشكل الوحيد فيما يتعلق بتنصيب الشيخ ينحصر في إعلانه بأنه يعتبر من الآن فصاعداً شيخ القبيلة، كما يعتبر من الشيوخ أولئك الأفراد من عنزة الذين يشتغلون بأعمال باشا دمشق أو بغداد، والأرباح التي تعود عليهم من ذلك تفوق بكثير ما يمكن أن يحصلوا عليه من خلال النهب في الحرب، وإذا سمح وكيل الباشا لأصدقائه باقتسام الأرباح معه فإنه بذلك يؤكد تعيينه شيخاً.[١]

أما عن التقاضي فقد تحدث المؤرخون العرب كثيراً عن قاضي العرب، ولا يوجد الآن ممن يتمتع بهذه الصفة بين البدو إلاّ عدد قليل فيوجد لدى ولد علي ثلاثة، وواحد لدى كل من الرولة وضنا بشر، ويتميز هؤلاء القضاة ببصيرتهم النافذة وحبهم للعدل ودرايتهم بعادات وقوانين هذه الأقوام، وتدفع للقاضي نفقات كبيرة لنظر الدعوى القضائية، فإذا كان الخلاف على مبلغ من المال، تكون رسول التقاضي بقيمة ٢٠٪ من هذا المبلغ، ويدفع هذه الأتعاب من يكسب الدعوى وليس من يخسرها.

وفي حالة صعوبة الفصل في القضية، يقوم القاضي بإرسال الطرفين إلى «المبشّع»، ولا يعرف البدو العقوبات البدنية، وتبنى أحكام الشيخ أو القاضي على قواعد عتيقة للغرامات المالية، مهما كانت الجريمة المتهم بها الإنسان.

***

(١) المرجع السابق، ص ٥٠.

○ الأعياد والاحتفالات:

من بين أكبر الاحتفالات الاحتفال بختان الأولاد، وتجري هذه العملية للولد في سن السادسة أو السابعة، وينحر والد الطفل ذبيحة صباح اليوم المحدد للختان.

وبعد انتهاء الوليمة يغادر الرجال الخيمة ويأخذ كلٌّ منهم حربته ويركب حصانه، ويلف حول مكان الحفل «المصنّع» ثلاث دورات ثم يصطفون في صفين على جانبي الخيمة على مبعدة مائتي ياردة ويبدؤون تمثيل التحركات الحربية، ويبرز فارس من أحد الجانبين ويتحدى آخر من الجانب المقابل، فيقترب منه الأخير في الحال ويجتهد لتجاوز حصان الخصم وبمجرد الوصول إلى خط العدو يتحدى بدوره شخصاً آخر، وهكذا تستمر الرياضة بين الصفين كرّاً وفرّاً لمدة تزيد على الساعة، وطوال وقت هذه المواجهة تصيح النساء بغناء السامري ويمتدحن أحسن الفرسان.

وخلال شهر رمضان يتم تسييج مربع كبير من الأرض بأحجار مفككة، ويسمون هذا المكان مسجداً حيث يمارسون عباداتهم، وهم يمارسون نفس الرياضة سابقة الذكر بخيولهم بعد صلاة الفجر أو العشاء، وذلك على مسطح الأرض المواجهة للمسجد. كما يبنى مسجدٌ مماثل استعداداً لعيد الأضحى، ويتم الركض بالخيول بعد الصلاة لمدة ساعة، ويكون الطعام طوال هذا العيد أفضل من المعتاد.

ولا تعرف قبائل عنزة أي احتفالات أخرى غير السابق ذكره، إلاّ أنهم يحتلفون بقدوم كل غريب بإقامة مأدبة يدعى إليها كل قرناء الضيف. وإذا طال غياب أحد أفراد الأسرة عن الوقت المعقول، أو علم أنه تعرض لخطر، تنذر أسرته نذراً إذا عاد. ولدى رؤية الغائب قادماً من بعيد يزين «مِقدم الخيمة[1]» بريش النعام ابتهاجاً بعودته وهو ما يسمى «الراية».

---

(١) مقدم البيت هو العمود الأول لبيت الشعر.

○ الخيل عند قبائل عنزة:

أغلب الخيول العربية صغيرة الحجم، ولا يتجاوز ارتفاعها (١٤) يداً «أي حوالي ٥٦ بوصة» إلا في حالات قليلة، وجميعها تتمتع بجمال يميزها عن أي سلالة أخرى.

ويعدد البدو خمس سلالات من الخيول العربية، وهي: الطويسة، والمعنقية، والكحيلة، والصقلاوية، وجفلة. وتنقسم هذه السلالات الرئيسية إلى أنواع لا حدود لها.

ويركب العرب الأفراس في معظم الأحوال، بينما يبيعون الأحصنة للفلاحين وسكان المدن، وإذا كان لدى «العنزي» فرس من سلالة ممتازة فإنه لا يبيعها، وإذا اضطر لذلك يحتجز لنفسه ملكية نصفها أو ثلثيها، وإذا باع نصفها يأخذ المشتري الفرس معه بشرط أن يلتزم بأن يترك للبائع المهرة الوليدة، وإذا باع ثلث فرسه فقط، يأخذ المشتري الفرس معه ويتعهد بأن يعطي البائع ما تلده في السنتين القادمتين، أو يعطيه واحدة منها بالإضافة للفرس ذاتها، بينما يحصل المشتري على المهور التي تولد في السنة الثالثة وما بعدها، وكذلك يحصل على الذكور التي تولد في أي سنة من السنوات، ويطلق على هذا العقد «بيع نصف أو ثلث الفرس»[١]، ولهذا فإن معظم الأفراس العربية مملوكة ملكية مشتركة لشخصين أو ثلاثة، بل قد يصل إلى ستة أشخاص إذا كان ثمن الفرس مرتفعاً جداً. وقد تباع الفرس على أن تقسم كل الأسلاب التي يحصل عليها راكبها بين البائع والمشتري.

وتسمى أنثى الفرس الوليدة «طريح» خلال العام الأول من عمرها وفي الثاني «حولية» وفي الثالث «جذع» في الرابع «رباع»، أما الذكر

(١) ويسمى هذا البيع بيع المثاني أي يستثنى من انجاب الفرس البطن الأول أو الثاني.

فيسمى «مهر» أو «فلو». وبمجرد ولادة الفرس الصغير تربط أذنيه بحبل فوق الرأس حتى يتم توجيههما في اتجاه سليم. كما يرفعون ذيل الحصان إلى أعلى في وقت ما، أما العناية الوحيدة التي تعطى للفرس بعد أن تضع وليدها فهو لف قطعة من القماش أو الكتان حول بطنها، وتزال هذه القطعة في اليوم الثاني. وإذا كانت الفرس مملوكة جزئياً للعربي فإنه ملزم في اليوم التاسع بعد ولادتها بأن يجمع شهوداً ويعلن أمامهم نيته تسليم الأنثى الوليدة إلى بائع الفرس، أو أنه سيحتفظ بالوليدة ويتعهد بإرجاع الفرس إلى مالكها الأصلي، ويقال عندئذٍ أنه قسم وشهّد وتظل الوليدة مع أمها ثلاثين يوماً.

وخلال فترة مائة يوم بعد الفطام لا يسمح بأن تتغذى الصغار على غير لبن النوق، حتى الماء لا يسمح به، وبعد مرور هذه الفترة يتلقى الصغير يومياً حصة من القمح المخفف بالماء.

ومن المعروف جيداً أن العرب لا يكترثون كثيراً باختيار الفحل اللازم للتلقيح، وذلك على العكس من المربين الأوربيين، حيث إنهم يرجعون الصفات الجيدة عند الصغير إلى أمه وليس أبيه، بيد أني سمعت أن العرب قد يأخذون أفراسهم في رحلة لأيام عديدة لتحقيق الجماع مع حصان مميز، ويدفع ثمناً مقابلَ هذه العملية قد يكون دولاراً أو رأس غنم.[١]

وتمتلك قبائل عنزة ما بين ثمانية آلاف إلى عشرة آلاف جواد، وتمتلك عنزة أيضاً نصف هذا العدد تقريباً مع القبائل الأخرى، وتمتلك قبائل الظفير وشمر ثروة كبيرة نسبياً من الخيل، بينما لا تمتلك القبائل الموجودة في أقاليم نجد وجبل شمر والقصيم ومحاذاة الخليج وحتى المدينة المنورة أكثر من عشرة آلاف جواد.[٢]

---

(١) المرجع السابق، ص ٨٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٨٣.

ولا يعلّم العرب خيولهم بعلامات مميزة كما يتصور البعض، ولكن الحديد الساخن الذي يستخدمونه كثيراً في العلاج بالكي يترك أثراً على الجلد يظهر كما لو كان علامة مقصودة.

ويطلق على الحصان الأبيض: الأشهب أو الخضر. ويقال للحصان الرمادي: أزرق. وللرمادي الغامق: أصفر. وللأسود: أدهم. وللكستنائي: أحمر. وللأحمر الذي لا توجد به علامات: أحمر صحة. وللبني المحمر: أشقر. وللكستنائي الغامق: أحمر محروق. وللحصان المبقع بألوان مختلفة: حبش. وللأحمر ذي القوائم الأربع البيضاء: محجّل. أما الحصان الأحمر الذي يملك ثلاثة قوائم بيضاء والقدم الرابعة من نفس لون الجسم فيقال له: محجّل الثلاث ومطلوق اليمين.[١]

○ الشخصية العامة للبدو:

كانت رؤيتي الأولى للبدو في أماكنهم بالصحراء حديثة العهد للغاية بعد وصولي من أوروبا، وكانت آرائي التي جئت بها لاتزال قوية للغاية.

وأياً كانت الأفضلية التي أمنحها للشخصية الأوروبية، إلاّ أنني اضطررت على الفور إلى الاعتراف بأن البدو.. من أنبل الأقوام التي أتيح لي التعرف عليها.

ومنذ ذلك الحين خبت الانطباعات الأوروبية عنهم بعد الإقامة لمدة سبع سنوات في الشرق، وبدلاً من أن أقوم بعمل مقارنات بين البدو والأوروبيين، وإن قمت بذلك فيما بعد، قمت بمقارنة حال البدو مع جيرانهم الأتراك، وظهر البدو من هذه الوجهة أعظم في مزاياهم ولا يمكن أن يتجسد أثر الحرية أو العبودية في السلوك مثلما يتضح في شخصية هاتين الأمتين.

---

(١) المرجع السابق، ص ٨٦.

يتهم البدوي بالجشع ولكن فضائله الأخرى تخفف من غلواء أخطائه، بينما الأتراك لا يحوزون أي خصلة أو صفة حسنة.[١]

إن من يقارن بين حرية البدو المشوشة، وبين الطغيان التركي، سوف يعترف بأن من الأفضل أن تكون عربياً في الصحراء، وتمتلك بعض الفضائل الخشنة، عن أن تكون عبداً متحضراً ولا تمتلك أية فضائل.

لقد تمكن البدو بفضل الاستقلالية الكاملة من الحفاظ على شخصيتهم، وحين تضيع هذه الاستقلالية أو تتعرض للخطر بسبب الاختلاط مع المدن والمناطق الزراعية، فإن شخصية البدو تعاني قدراً كبيراً من الضياع والتضاؤل.

ويدرك البدوي إدراكاً تاماً بأن ظروفه أفضل من أي شخص آخر وأن ذلك هو نصيبه، ويبتهج البدوي بما يتمتع به من مزايا.

ويمكن القول دون أدنى مبالغة، إن البدو الفقراء أبناء القبيلة المستقلة كانوا يضحكون على الأبهة والفخامة التي يبدو عليها أي باشا تركي، ودون أية مبادئ فلسفية معقدة، وإنطلاقاً من الإحساس العام بقومه، يفضّل البدوي حياة الخيمة البائسة على الحياة في قصر.

إن وعي البدوي بالقبيلة لا يقل نبلاً عما كان في تاريخ الجمهوريات الإغريقية والهيلينية، فلو تعرض واحد من «عنزة» إلى هجوم مباغت فإنه يستلّ رمحه ويضعه فوق رأسه ويصيح «أنا العنزي».[٢]

***

(١) هذه وجهة نظر خاصة ببيركهارت نقتبسها بأمانة ودون تصرف مع تحفظنا على مراميها من منطلق أخوة الإسلام فقط.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤٩.

الفصل الثالث

قبائل وِلد علي

أولاً : أقسام قبائل وِلد علي

ثانياً : الامتداد الجغرافي لقبائل وِلد علي

ثالثاً : جانب من تاريخ قبائل وِلد علي

رابعاً : الطيار في بوادي الشام والعراق

أولاً: قبائل وِلد علي

تشكّل قبائل وِلد علي أحد خمس بطون تمثل مجتمعة قبائل عنزة الوائلية الربيعية. فهي تعود إلى بني وهب من ضنا مسلم من عنزة.

وقد أطلق على أعقاب علي بن وهب ولد علي «وتلفظ كلمة ولد بكسر الواو وسكون اللام»، وبذلك فإن قبائل ولد علي تعود في مجملها إلى جدهم الأعلى علي بن وهب.

وهناك قول يذهب إلى أن تسميتهم ولد علي كانت نسبة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد أطلق عليهم ولد علي تمييزاً لهم عن أبناء جعفر ابن أبي طالب «الطيّار» الذين سكنوا معهم في خيبر، وهم من ذرية الحسن ابن علي بن أبي طالب.[١]

وليس هناك من دليل على هذا القول إلاّ ما ورد في كتاب «عمدة الطالب» لابن عتبه، حيث جاء فيه: قال الشيخ العمري: ومن ولده محمد بن الحسن بن عبدالله بن الحسن، كان بدوياً له أولاد إلى يومنا بادية منهم: موسى، ركاب، محمد، بنو محمد بن الحسن، ولهم ذيل إلى وقتنا بادية.

ومما يذكر في هذا السياق أن جيش علي بن أبي طالب كان معظمه من قبيلة عنزة والبعض الآخر من أبناء علي بن أبي طالب وآخرون من أبناء جعفر الطيار. فاختلط هذا الجيش مع بعضه في معركة صفين وما بعدها حتى غلب اسم ولد علي على بطن من عنزة وعلى أبناء علي بن أبي طالب وأبناء جعفر الطيار، حتى أن زعامة عنزة آلت لآل جعفر الطيار فيما بعد وسمي «بأبو عنزة».[٢]

---

(١) ولا صحة لهذه الدعوى فهي دعوة إحتمال باطلة ليس لها ما يسندها وتعارض ما تواتر، فلا صحة لهذه النسبة والصحيح أن علياً من وهب من بني عنزة بن أسد بن ربيعة.

(٢) راجع عمدة الطالب صفحة ٢١١، وكذلك د. سليمان أحمد عبيدات «التطور الحضاري=

وقد أبلى بنو ربيعة في معركة صفين بلاءً حسناً «كما مر معنا» وكانت رايتهم حمراء وسمّي جيش علي «بالزحزحة» وذلك لشدّة حركته، ومما جاء في كتاب «معركة صفين» أنه اشترك مع علي بن أبي طالب أربعة آلاف محجّف من عنزة.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه يثني على بني ربيعة: [١]

لمن الراية الحمراء يخفق ضلّها ... إذا قيل قدمها حضين تقدما
يقدّمها في الصف حتى يزيرها ... حياض المنايا تقطر السم والدما
جزى الله عني والجزاء بكفّه ... «ربيعة» خيراً ما أعفّ وأكرما

وقد قدّر أعداد ولد علي في بادية الشام فتح الله صايغ «والذي زارهم خلال عامي ١٨٣٢م-١٨٣٣م» بحوالي خمسة آلاف خيمة، وقد أورد هذا الرقم على أساس عشرة أشخاص للخيمة الواحدة[٢]، بينما قدر أعداد فروعهم الأخرى في نجد والحجاز، الرحالة السويسري بيركهارت والذي مر بهم وهو في طريقه إلى مكة عام ١٨١٤م حين ذكر أن قبائل ولد علي في الحجاز «فقط» بإمكانها حشد ثلاثمائة فارس. [٣]

ونخوة ولد علي العامة «راعي الملحا»، وتنقسم ولد علي إلى الأقسام الآتية: القسم الأول: ضنا مفرّج، القسم الثاني: ضنا ذري:

أولاً: ضنا مفرّج:

وينقسمون إلى:

= لقضاء بني كنانة» عمان: جمعية عمال المطابع، ١٩٨٤م، ص ١١٠.

(١) ابن عبد ربه «العقد الفريد» الجزء الرابع، بيروت: دار الكتاب العربي، ص ٣١١.

(٢) د. مسعود ظاهر «المشرق العربي المعاصر من البداوة إلى الدولة الحديثة»، معهد الإنماء العربي، ص ٦٢.

(٣) جون لويس بيركهارت «رحلات في شبه جزيرة العرب»، ترجمة د. عبدالعزيز الهلابي، د. عبدالرحمن الشيخ، بيروت: مؤسسة الرسالة، ص ٤٣١.

(١) المشادقة (٢) الطلوح (٣) جبّاره (٤) الحمامدة.[١]

(١) **المشادقة:** ومنهم:

أ- **الطيار**: وفيهم رئاسة القبيلة ووسم الطيارة «الباكورة».

ب- **المحمد**: وهم ١- اللحاوين ٢- الحموان ٣- الرشيد ٤- البراك ٥- الشطّي ٦- الزواي مع قبيلة السبعة ٧- المشادقة مع قبيلة جهينة.

ج- **المريخات**: وهم ١- الطرقي ٢- الرمّان ٣- الجليدان ٤- السعيد ٥- المثقال ٦- وارد ٧- المريخات في قبيلة مطير وكبيرهم المريخي.

د- **العبيدات**: ويقطنون منطقة أربد في شمال الأردن. وهم البكّار والإبراهيم.

(٢) **الطلوح:**

ونخوتهم العامة «راعي الحرشا» وشيخهم قديماً ابن خليل ومن كبارهم ابن شميط وابن سعدي ومن وسومهم العرقاه والبرثن على الفخذ، وفروعهم: أ- العيد، ب- الدواس، ج- الوهوب:

أ- **العيد**: ١- الجبر ٢- العمرو ومن الجبر ١- الذوالفة ٢- الزبنه ٣- الخلاوية، ومن العمر العايش ومن العايش ١- العفنان ٢- المضحي ٣- الفياض ٤- المحيسن ٥- الفساحيل.

ب- **الدواس**: ١- المحفوظ ٢- المسعر، ومن المحفوظ ١- الضاهر ٢- العيادات ٣- الدليمان.

ج- **الوهوب**: «مع قبيلة حرب»: ١- المذيخ ٢- المذكور وشيخهم ابن سعدي.

---

(١) ينظر للحمامدة في نجد كفرع مستقل، وهم في الشمال من ضنا مفرج.

(٣) جبّارة:

ومن كبارهم ابن مغنم وابن ظريغط . وأفخاذ جبّارة هي :

أ- **الظريغط** : ووسمهم الحية ومطرق على الرقبة ومنهم عوارف في قضاء البادية مشهورين، ومنهم ١- الفرج ٢- الحافظ، ٣- الربايعة ٤- البدون ٥- السدرات ٦- القبلان ٧- الخلايله .

ب- **التواجرة**: ووسمهم المغزل على الرقبة ومنهم ١- الوحادين ووسمهم العرقاه والهلال ٢- الصلاحه ٣- الحمران ٤- النضي ٥- الزقاليب .

ج- **الرموم**: ومنهم ١- العبار ٢- الحمدان ٣- القرعان ٤- العبيدان .

هـ- **العِليان**: ومنهم ١- القطيفان ٢- المعايز «المعاز» ٣- السيحان ٤- الحميدان .

و- **الشماط**: ووسمهم باب ومطرق على الفخذ ومنهم ١- العوده ٢- السيف وهم الحويظان ٣- التوامة ومن العودة ١- الغيظان ٢- المغنم .

(٤) الحمامدة:

وشيخهم الأيدا ويتفرع من الحمامدة العشائر التالية: أ- اليديان، ب- الطوالعة، ج- الركاب، د- القرشة، هـ- الظمين، و- الوسامة وهم السالم، ز- الخرشان، ح- البداونة، ط- الإسماعيل .

أ- **اليديان**: وهم أبناء حمدان الأيدا ونخوتهم «أخو بقشة» ويقال لهم خزامة[١] القيل ووسمهم البرثن على الرقبة وينقسمون إلى ١- المسعد ٢- السند ٣- المريخان ٤- الهندي ٥- الخلف ٦/ ٧- العماش ٨- الهواجسه .

---

(١) هذه الألقاب خزامة الفيل وأخو بقشه تخص فرع المطلق خاصة وهم الذين بهم رئاسة القبيلة .

ومن المسعد ١- الضيف الله ٢- الغصية ٣- العيد ٤- الموسى ٥- العفنان، ومن الضيف الله ١- الرجا ومنهم رؤساء القبيلة ٢- الغانم ومن الرجا مطلق ويتفرع من مطلق الفرحان والهايس والبركات ومن الغانم يتفرع النهار والعبدالله.

القسم الثاني من اليديان: السند، وهم أبناء علي ويتفرع من السند ١- السليم ٢- المزاوم ٣- العقلا ٤- الموسى ٥- الشعف.

القسم الثالث من اليديان: المريخان وكان لهم سابق أمارة ومن المريخان ١- الزبن ٢- المحمد ٣- المحفوظ ٤- الفالح ٥- الباقي، ومن الزبن الغريب والجواسرة.

القسم الرابع من اليديان: الهندي.

القسم الخامس من اليديان: الخلف ومن الخلف ١- العمير ٢- العمر.

القسم السادس من اليديان: العماميش وهم الدبل.

القسم السابع من اليديان: الهاجس وهم الهواجسة.

ب- **الطوالعة**: وشيخهم ابن كحيل ومن الطوالعة ١- السهلة وشيخهم ابن كحيل ٢- المشرف وكبيرهم ابن زهوة ٣- ذويبة وكبيرهم ابن شداد.

١- السهلة ومنهم ١- السنيد ٢- المسند ٣- السند.

القسم الأول من السهلة: السنيد ويعرفون باسم الكحيل ووسمهم مطارق على مدق الرقبة ويتفرع من الكحيل أبناء سنيد قسمان ١- سعود ٢- سعيدان، ومن سعود السعيد وهم الكحيل ١- المسلم ٢- السليمان، ومن مسلم ١- العامر ٢- العلي ٣- العويمر، ومن العامر الحجيرف - الجازي، ومن العلي البسام ـ المعجل ـ الصماعرة ـ العافص، ومن العويمر الفاضل ـ السالم ـ الهواجسة، ومن السليمان ١- السعود ٢- العمر

٣- المحارب، ومن السعود المثري ـ الدباس ـ الشفق، ومن العمر المحمد ـ المحمود ـ الحمدان، ومن المحارب الحمادا ـ الفاضل ـ الضوافرة ـ العيد، ومن السعيدان ١- المحمد ٢- المسعد.

القسم الثاني من السهلة: المسند ويطلق عليهم مع السند لقب الوسامة ومن المسند: قسمان ١- المقنان ٢- الزحمان، ومن المقنان ١- العودة وهم الخراقية وكبيرهم ابن عودة ووسمهم مشط على الخد ٢- الشهاوين، ومن الزحمان ١- المنير ٢- المعقل ٣- النهبات ٤- العمير.

القسم الثالث من السهلة: السند ويطلق عليهم هم والمسند لقب الوسامة، ومن السند الأقسام الآتية: ١- السعيد ٢- الزبار ٣- الشارخ ٤- السلوم.

٢- المشرف وهو القسم الثاني من الطوالعة وكبيرهم ابن زهوة ووسم الزهوة مطرق وثلاث ردعات ومن المشرف ١- الجعارير ٢- الحريرات ٣- الذعتة ٤- الصرايعة.

القسم الأول من المشرف: الجعارير ومن الجعارير ١- الزهوة وهم المسعد ٢- الجعارير ٣- اليبس.

القسم الثاني من المشرف: الحريرات ومن كبارهم جهاد الحريري، ونخوة الجهاد «أخو سلمى» ووسمهم مطرقان، ومن الحريرات ١- الخضر ٢- الشيوي ٣- الوديعات، ومن الخضر ١- البخيت ٢- الربيعّ ٣- الغافل، ومن البخيت ١- الصالح ٢- الجاسر ٣- الدغيمّ، ومن الصالح الجهاد ـ الزبنات ـ الزيد، ومن الجاسر الرشاشات، ومن الدغيمّ الموسى، ومن الربيعّ الخلايفة ـ العليق، ومن الغافل الخلف، ومن الشتيوي ١- المسعد ٢- الشريدات، ومن المسعد العلي ـ السطام، ومن الشريدات العايد، ومن الوديعات ١- الفرحان ٢- المحمد ومن كبار الحريرات ابن رشاش.

القسم الثالث من المشرف: الذعته، ومن الذعته ١- الذعته ٢- الحطبان ووسمهم عرقاة تحت العين وثلاث أهلة على الرقبة.

القسم الرابع من المشرف: الصرايعة ووسمهم مطرقان وباب على الرقبة.

٣- ذويبة وهم القسم الثالث من الطوالعة وكبيرهم ابن شداد، ومن ذويبة ١- الزهري ٢- العامر ٣- الحساميل ووسمهم باب ومطرق على الرقبة ٤- الشقران ومن الزهري ١- الشداد ٢- القهدة ٣- القريان وهم الحموان، ومن العامر ١- المغير ٢- الغوينم ٣- العجلة ٤- الجعاضرة ووسمهم مطارق على الرقبة، ومن الحساميل ١- الفلاح ٢- الحامد ٣- العلوي ٤- الثاني، ومن الشقران ١- الثامر ٢- الدحلان ٣- الدقيش ٤- الحويشان.[١]

ج- **الركاب**: «الجمده، الجحيش، الرفيع، القطيان، العفنان، الباقي، العراجين، الهلاّت، السعيد، العمار».

د- **القرشة**: «الحماد، القبلان، اليحيا».

هـ- **الظمين**: «العطالله، العبدالله، المسعد، المطلق».

و- **الوسامة**: وهم أبناء سالم ومن السالم قسمان ١- المحمد ٢- العويمر، ومن المحمد «الوحير، الحمد« الحماد» ومن العويمر «الخالد، الهويدف، الفروك» ويعرف الوحير باسم الجريدة كما يعرف الحمد باسم الربيلات.

ز- **الخرشان**.

ح- **البداونة**: «العفرا، الجرادان».

ط- **الإسماعيل**.

---

(١) راجع التفاصيل في الطبعة الرابعة، أصدق الدلائل في أنساب بني وائل.

ثانياً: ضنا ذري:

وشيخهم ابن سمير ونخوة السمير إخوان عذرا، وينقسمون إلى:

١- المشطة «العواض، المقيبل» المسلّم».

٢- الدمجان «المصبح، السنان، الرواحلة».

٣- العطيفان «العتيق، الحرب».

٤- القذالمة «الطلاع، الوسامة، العرفة».

***

شجرة نسب قبائل ولد علي من بني وهب من ضنا مسلم من عنزة من بني وائل من عمرو (عنزة) بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان:

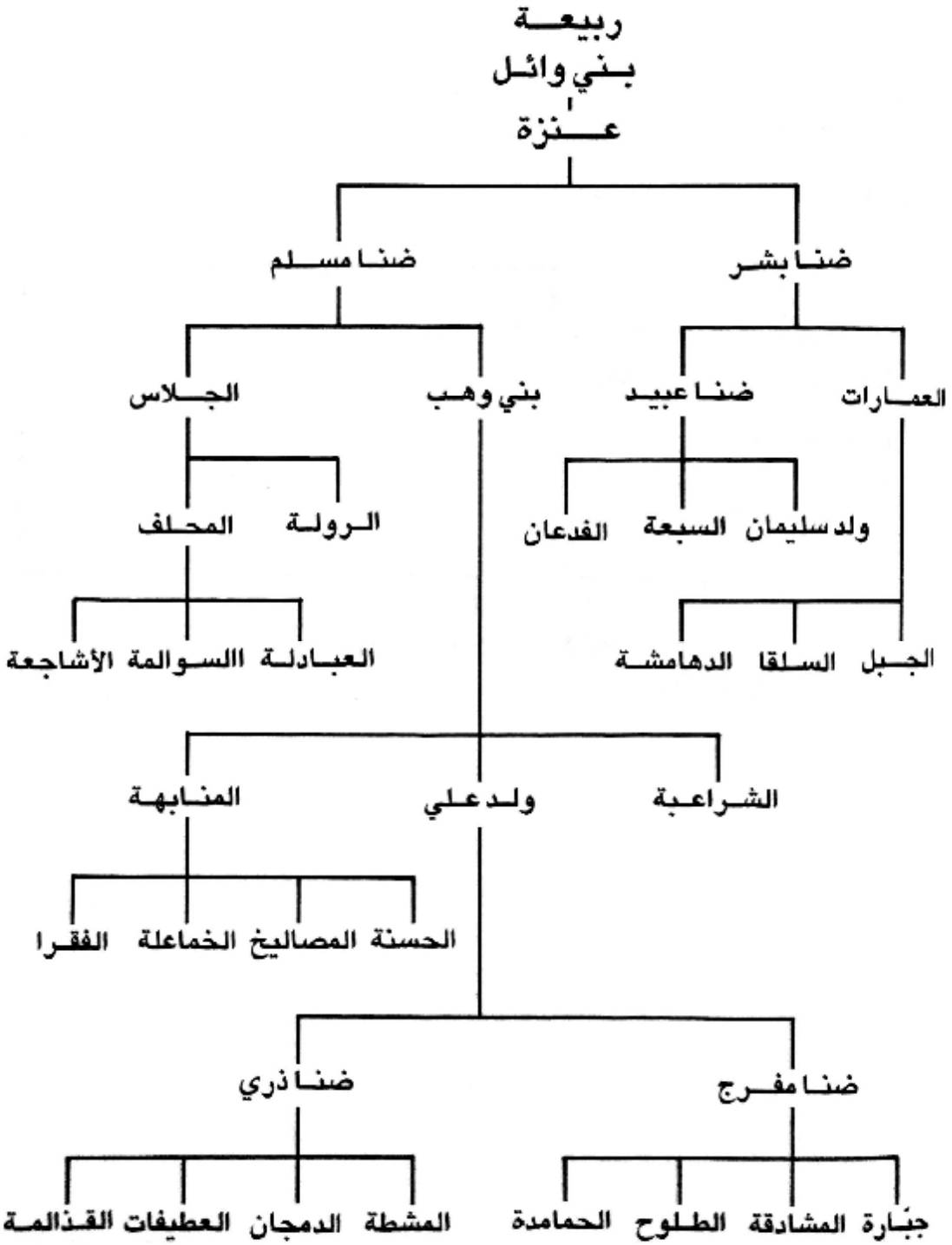

شجرة نسب المشادقةمن ضنا مفرج من قبيلة ولد علي من بني وهب من ضنا مسلم من عنزة من بني وائل:

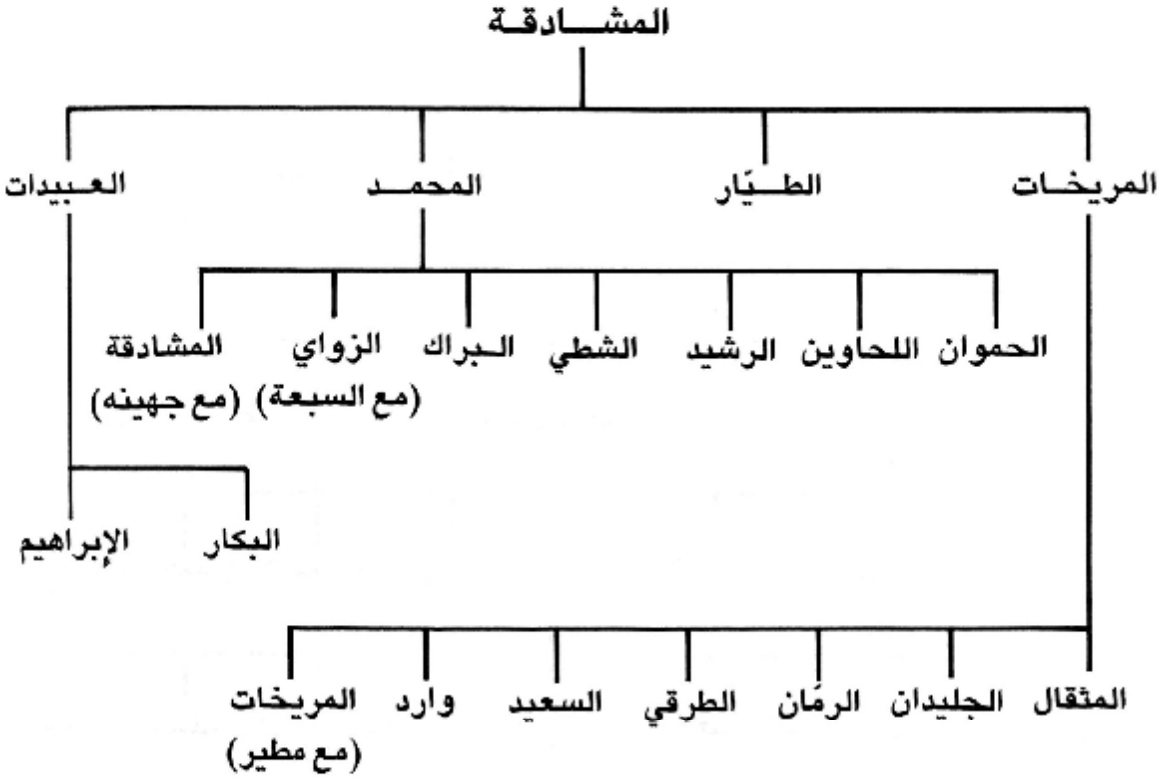

* أما عن مشجر أسرة الطيار التفصيلي فقد يضاف في الطبعة الثانية بحول الله بعد اكتماله .

شجرة نسب الطلوح من ضنا مفرج من ولد علي من بني وهب من ضنا مسلم من عنزة:

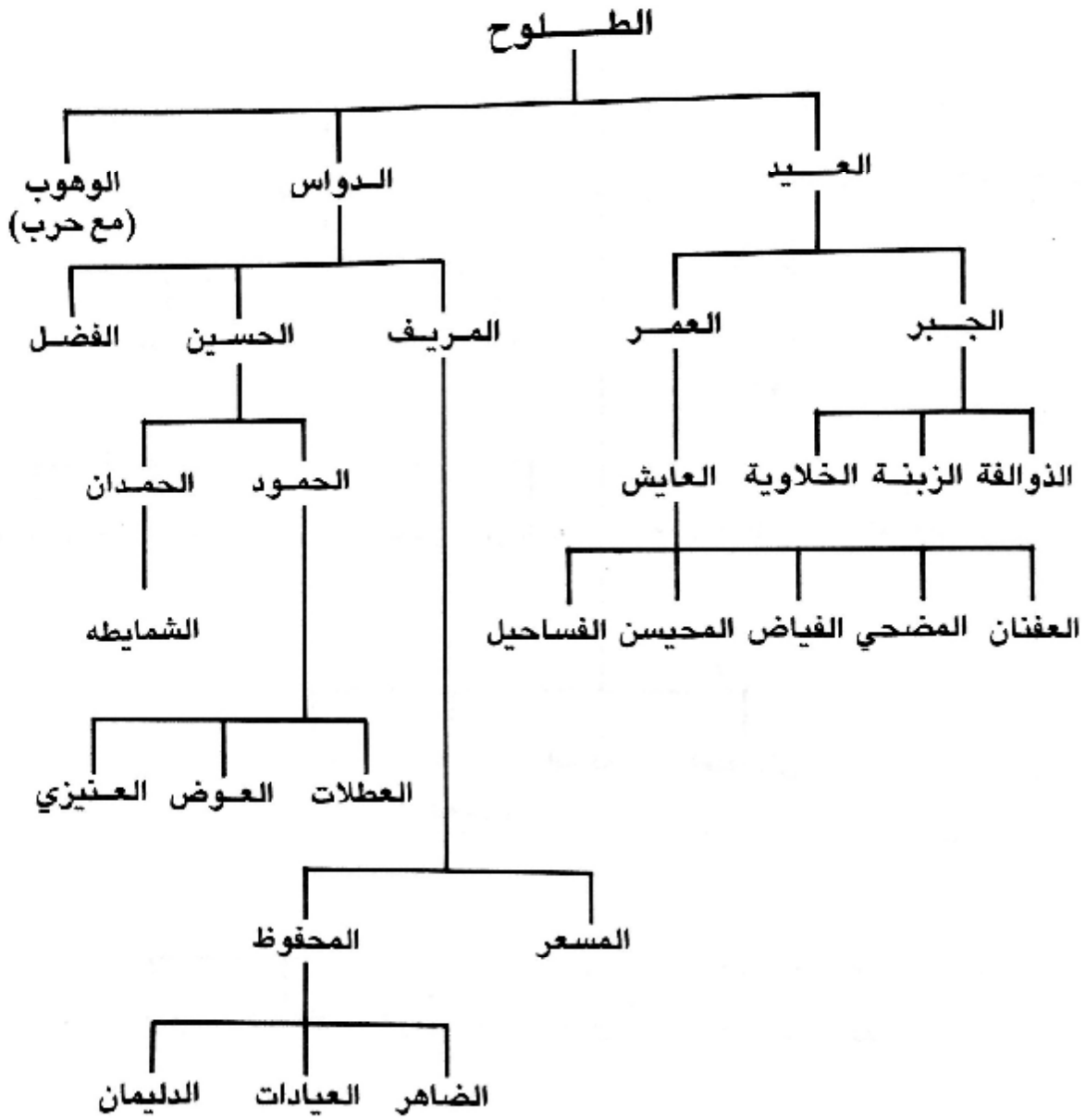

شجرة نسب جبارة من ضنا مفرج من قبيلة ولد علي من بني وهب من ضنا مسلم من عنزة من بني وائل:

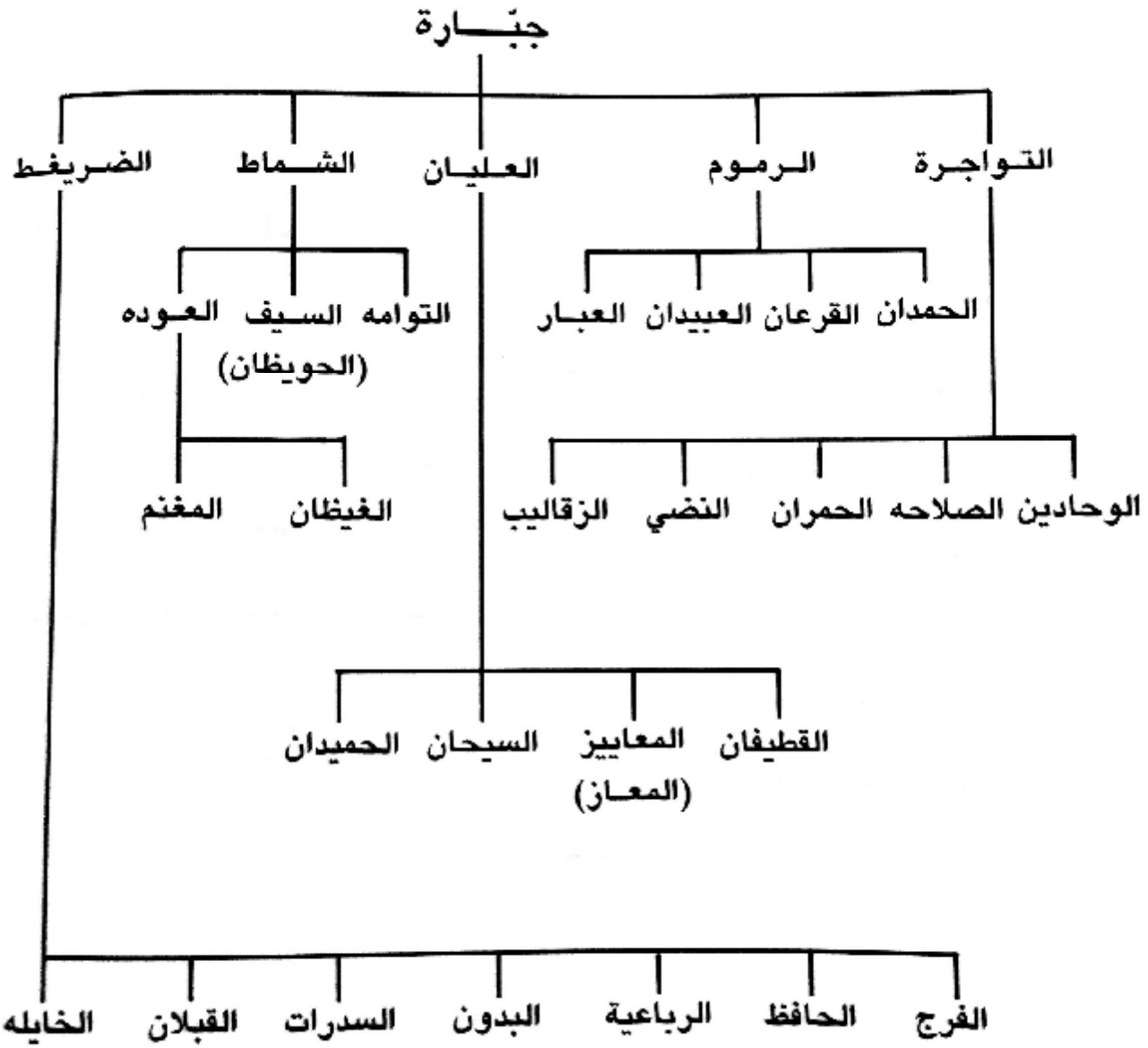

شجرة نسب اليديان والضمين من الحمامدة من قبيلة ولد علي من بني وهب من ضنا مسلم من عنزة من بني وائل:

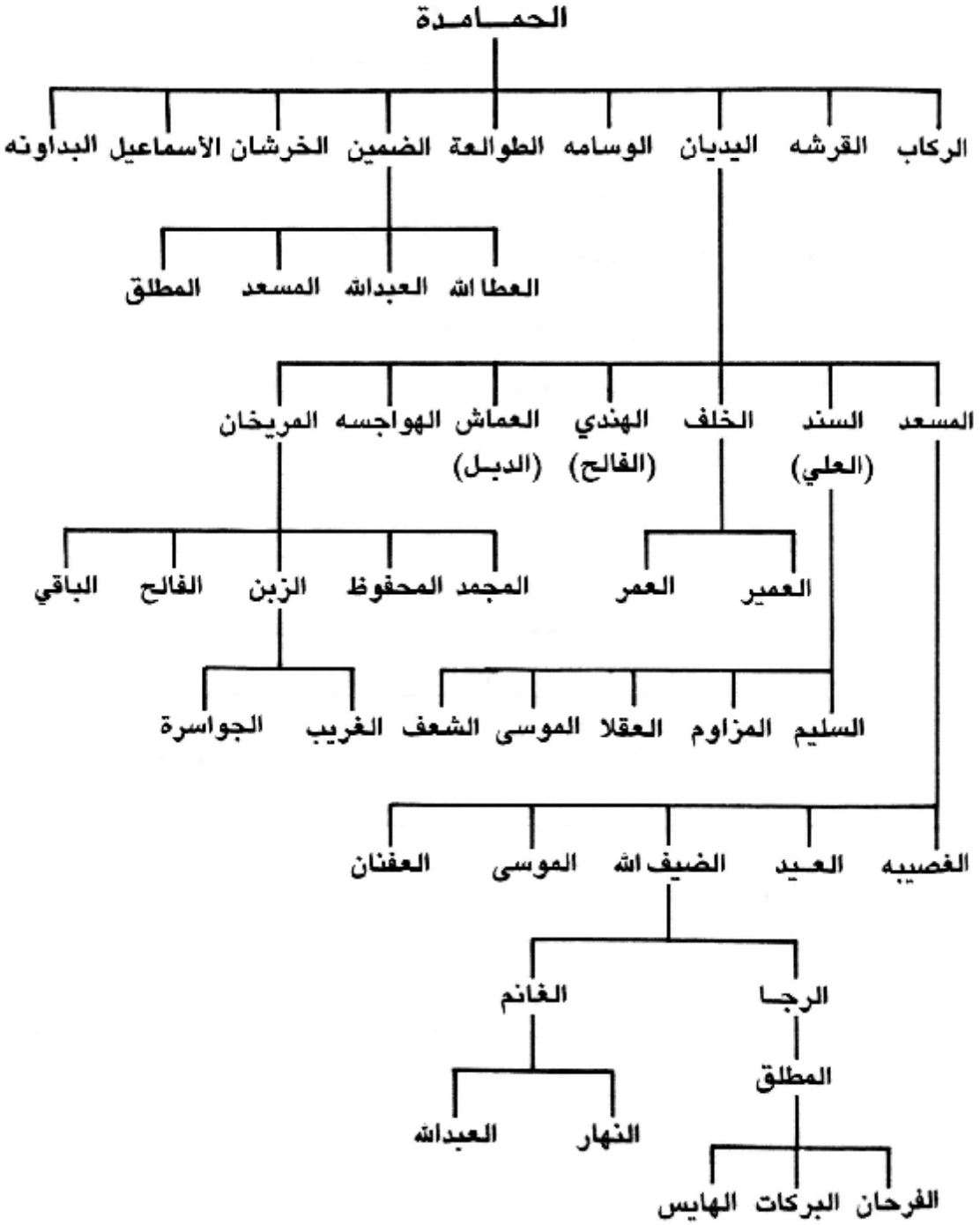

شجرة نسب الركاب والقرشة والبداونة من الحمامدة من قبيلة ولد علي من بني وهب من ضنا مسلم من عنزة من بني وائل:

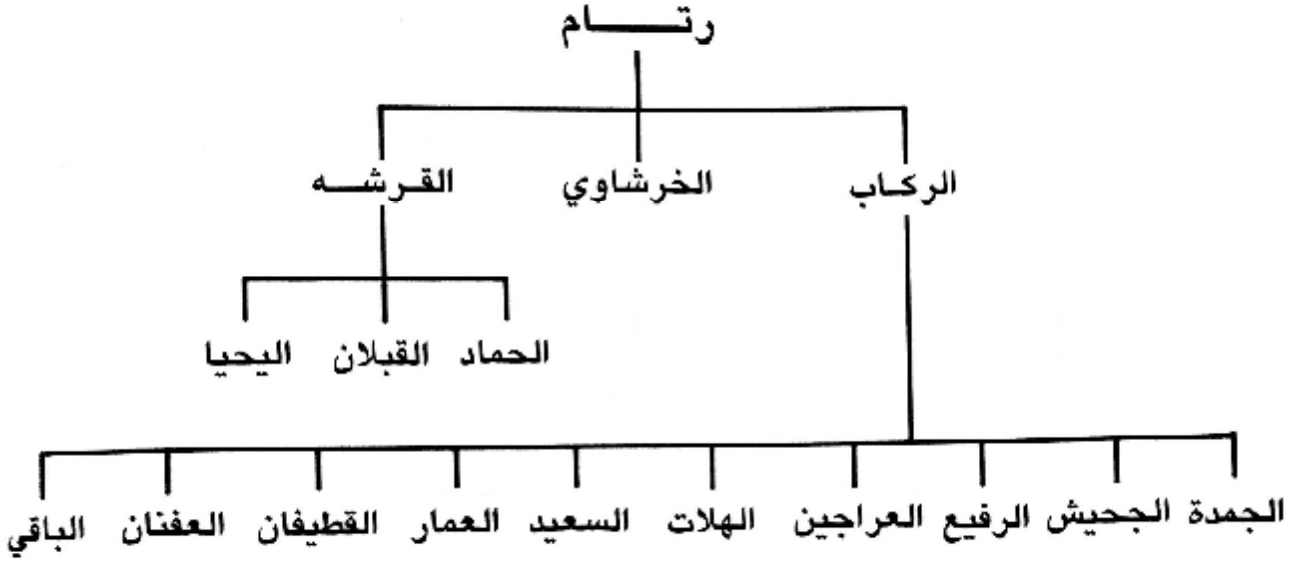

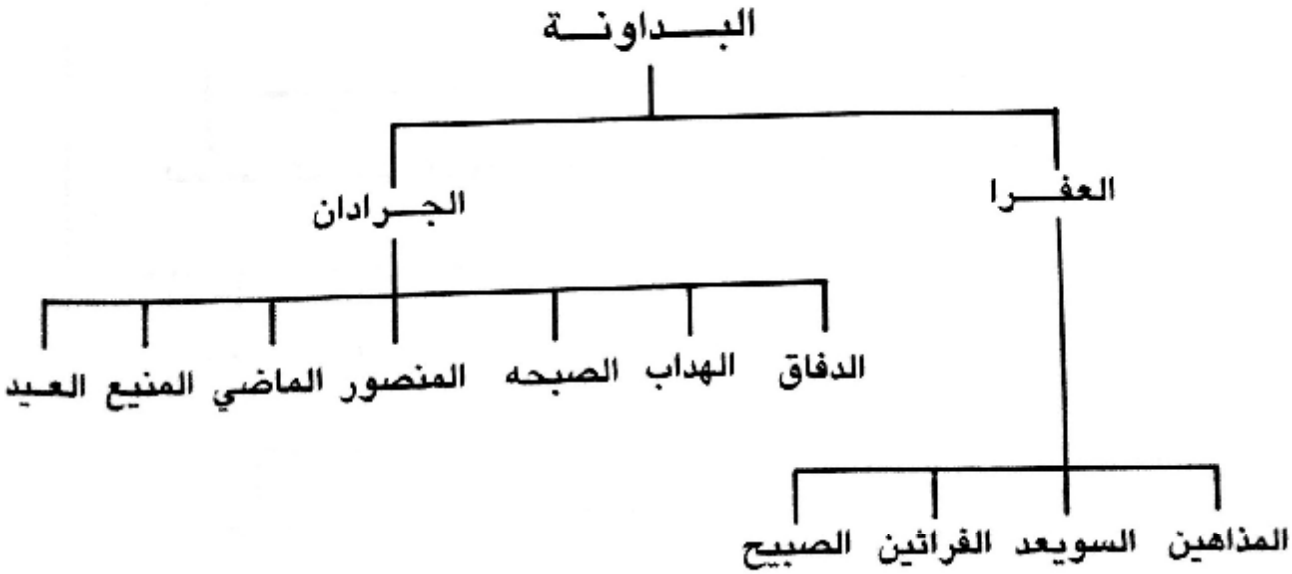

شجرة نسب الوسامة من الحمامدة من ضنا مفرج من قبيلة ولد علي من بني وهب من ضنا مسلم من عنزة من بني وائل:

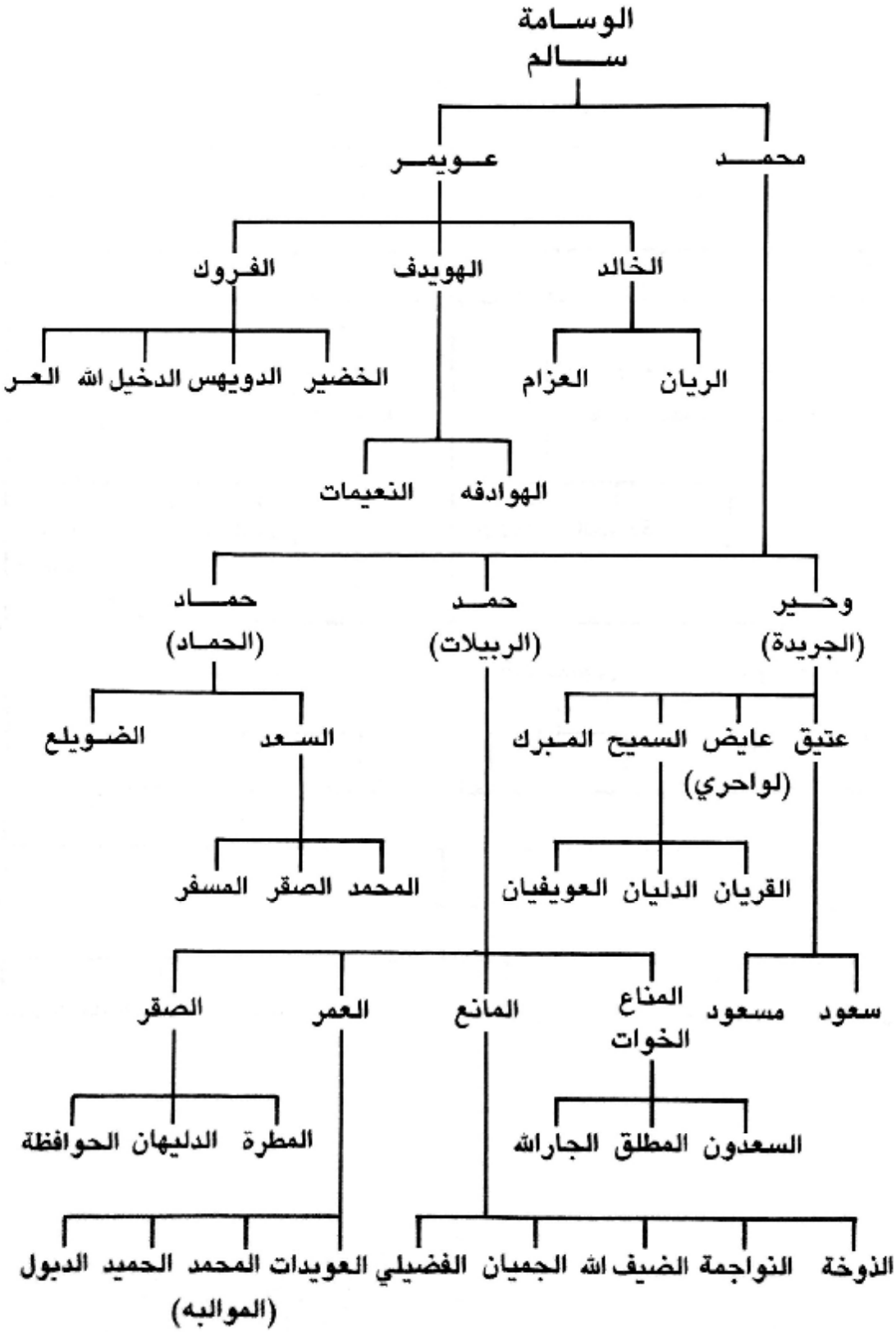

شجرة نسب الطوالعة من ضنا مفرج من ولد علي من بني وهب من ضنا مسلم من عنزة من بني وائل:

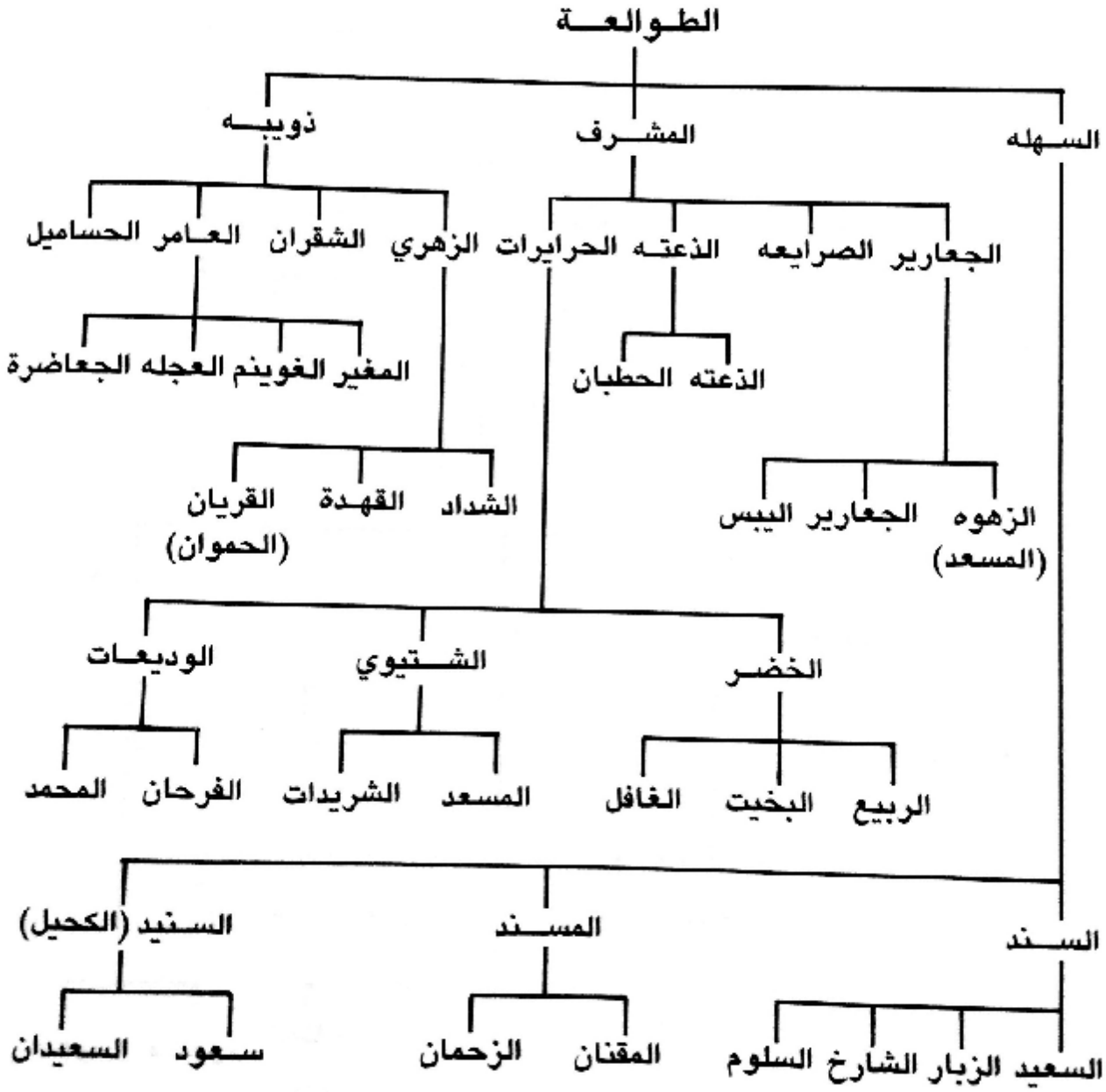

شجرة نسب المشطة من ضنا ذري من قبيلة ولد علي من بني وهب من ضنا مسلم من عنزة من بني وائل:

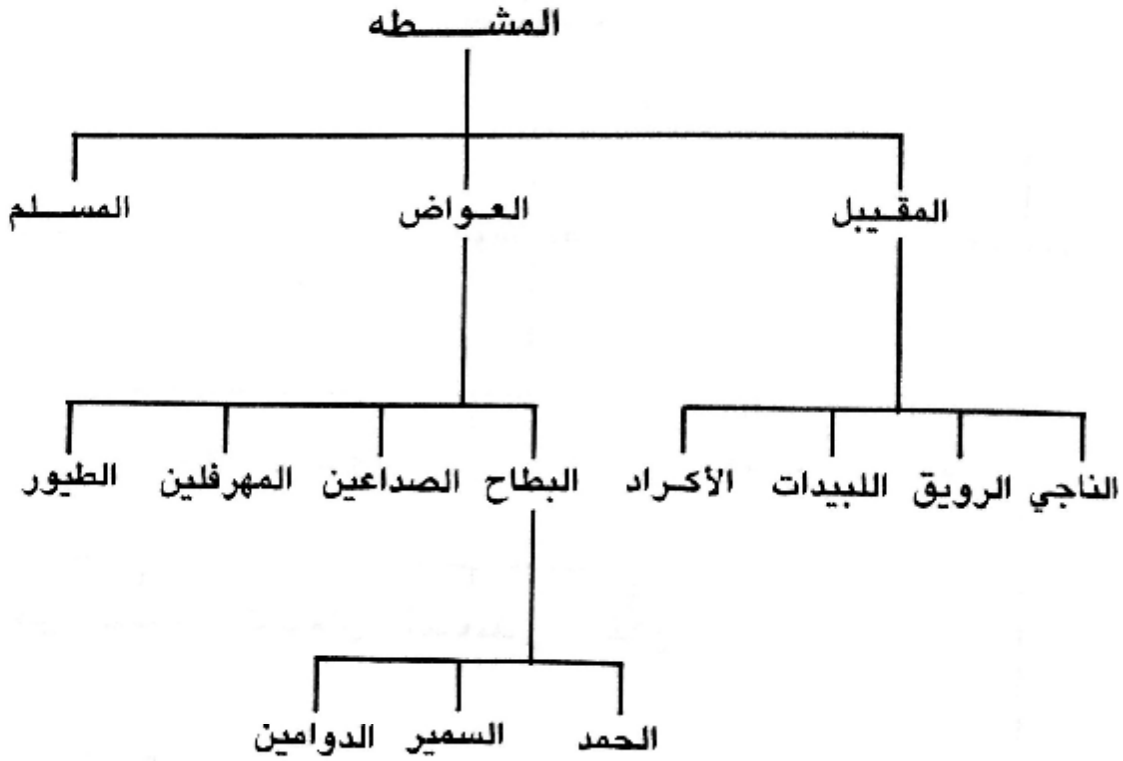

شجرة نسب القذالمة من ضنا ذري من قبيلة ولد علي من بني وهب من ضنا مسلم من عنزة من بني وائل:

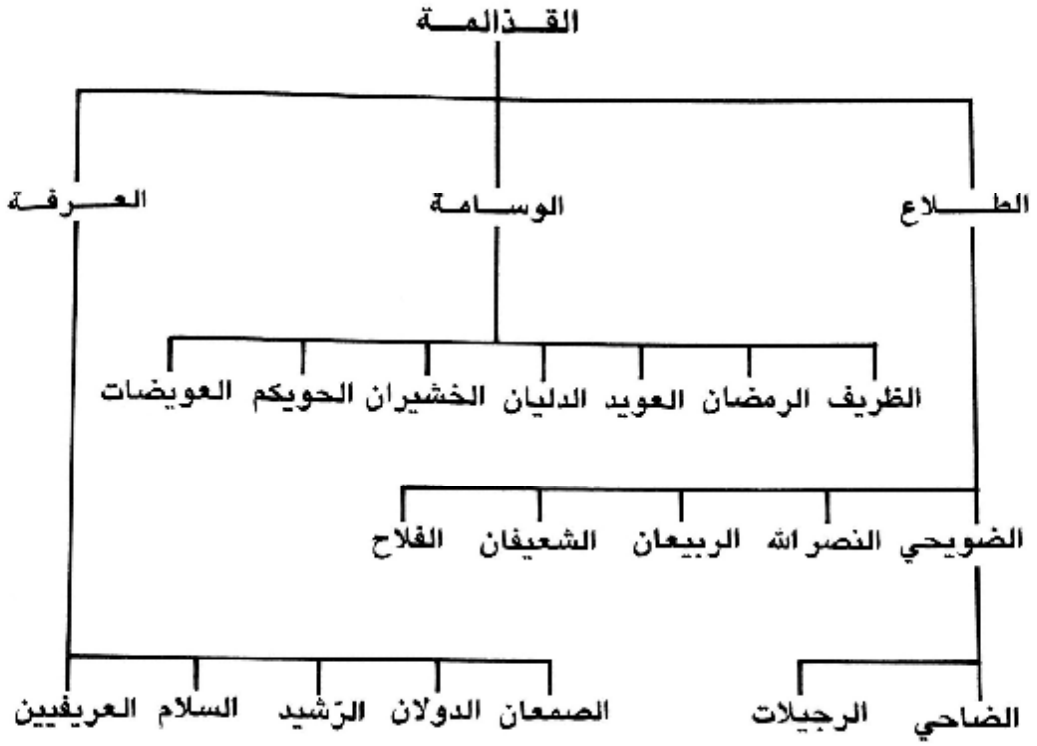

شجرة نسب الدمجان والعطيفان من ضنا ذري من قبيلة ولد علي من بني وهب من ضنا مسلم من عنزة من بني وائل:

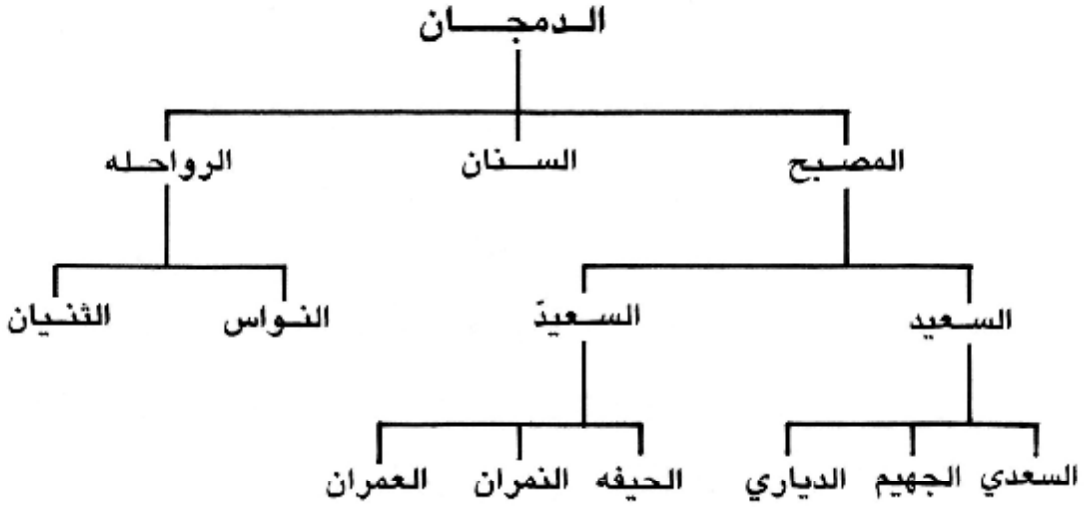

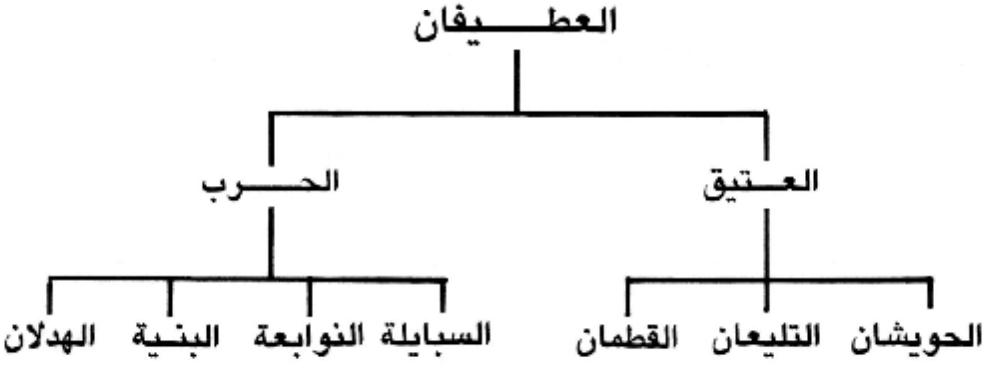

ثانياً: الإمتداد الجغرافي لقبائل ولد علي

تمتد مناطق قبائل ولد علي من شمال المدينة المنورة حتى أطراف العلا ومدائن صالح «الحجر» حيث تلتقي بمناطق أشقائهم المنابهة من عنزة.

ثم بعد ذلك في عمق الأراضي الأردنية في منطقة إربد «الكفارات» حيث تخضع تلك المناطق لسيطرة العبيدات من ولد علي، وتمتد سيطرة قبائل ولد علي من تلك المناطق داخل البادية السورية في المنطقة المسماة نقرة الشام ثم المنطقة المحيطة بدمشق، من الجولان غرباً وحتى شرقي غوطة دمشق إلى عمق بادية الشام وحتى جنوب تدمر في منطقة الطيارية ثم شرقي منطقة ضمير حتى أراضي البطمي، والمشق، والضبعة والتي تعود ملكيتها للطيار إلى يومنا الحاضر بصكوك رسمية، وهي الأراضي المنبسطة شمال وجنوب طريق بغداد، ويقول فيها الشاعر «عويد اللجة» رحمه الله:

عسى الهماليل تنهلّي بفروع «البطمي» ركز غيمه
تمطر على ديار ربعلّي هلَ النواميس والشيمه

ويقول الشاعر عايد الدواس:

«البطمي» يبكي على راعيه يبكي على الشيخ نوافِ
«ومشقّ سمري» بعد يبكيه الشيخ حّماي الأطرافي
وشعيب «الضبعه» نشد عانيه عنّا نهج ما به خلافي؟

وقد كان هذا الامتداد في زمن الدولة العثمانية يعني السيطرة على طريق الحج، وقد أكد على ذلك كتاب «الدرر المفاخر» لمحمد البسام حيث جاء فيه: «إن قبائل ولد علي يحملون الحاج ولهم صرة من الدولة العلية «العثمانية» معيناً كل سنة.

كما أشار إلى ذلك المستشرق السويسري «بيركهارت» والذي زار المنطقة سنة ١٢٢٤ هـ حيث قال:

إن قبائل ولد علي ينزلون غالباً على طريق الحج حتى قلعة الزرقاء، ولشيوخهم من آل الطيار المقام العلي بين الرؤساء ومن ثم دعوا «أبو عنزة»، ومن رؤساء ولد علي دوخي بن سمير، ويعد من أقوى رؤساء عنزة، وقد اعتاد على تقديم الإبل لركب الحج، وفي سنة ١٨١٠م لجأ إليه يوسف باشا والي دمشق لمّا حرب من دمشق. وكل أفخاذ ولد علي يأخذون عوائد من الصرة العثمانية حين مرور ركب الحج، يدفعها إليهم باشا الحج، وإلاّ فرقة الطلوح، فإنها تأخذ صرتها من إستانبول.

كما ذكر «أحمد وصفي زكريا» في كتابه: إن ولد علي يغدون ويروحون بين بلاد الشام ونجد، وكثرتهم الغالبة في نجد والحجاز، ولو لم يكن عشائر منهم في بلاد الشام وبيوت بارزة لكانت دراستهم في عشائر نجد أصح، وقد كانت حماية ركب الحج الشامي على عهد الحكومة العثمانية في يدهم، يتعاورها رؤساؤهم بحسب الظروف، وهي تدفع لهم جعلاً معلوماً لقاء قيامهم بهذه المهمة، والطريق بين الشام والحجاز وما جاور الطريق كان يقع تحت سيطرتهم ونفوذهم دون منازع، وهم طلائع عنزة الذين دخلوا بلاد الشام قبل غيرهم مع الأحسنه في القرن الحادي عشر الهجري، ونازعوا عشائر أهل الشمال «السرحان، والسرديه، وبني صخر» وحاربوها حتى استطاعوا أن يشقّوا لأنفسهم طريقاً إلى بلاد الشام.[١]

كما جاء في كتاب «الولايات العربية في العهد العثماني»: إن قبائل ولد علي منازلها من المدينة المنورة حتى العلا.[٢]

---

(١) أحمد وصفي زكريا «عشائر الشام» صفحة ٢٠٤.

(٢) الولايات العربية مصادرها ووثائقها في العهد العثماني، جمع الدكتور عبدالجليل التميمي، =

وكانت مناطق امتداد أسرة الطيّار وقبائل عنزة عامة تمتد حتى الخليج العربي، وهناك مناطق لاتزال تسمى حتى اليوم بأسماء تدل على ذلك الامتداد، فعلى سبيل المثال «ضلع الطيار» وهو المنطقة المرتفعة بالقرب من حفر الباطن «جنوب الخفجي»، كذلك «آبار الطيار» شمال النعيرية.

وتوضح الخريطة التالية مواقع ولد علي في الحجاز، وهي من الخرائط العثمانية لتوزيع القبائل في الحجاز:

***

= مركز البحوث والدراسات عن الولايات العربية في العهد العثماني، تونس ١٩٨٤م، صفحة ١٩٧.

صورة خريطة

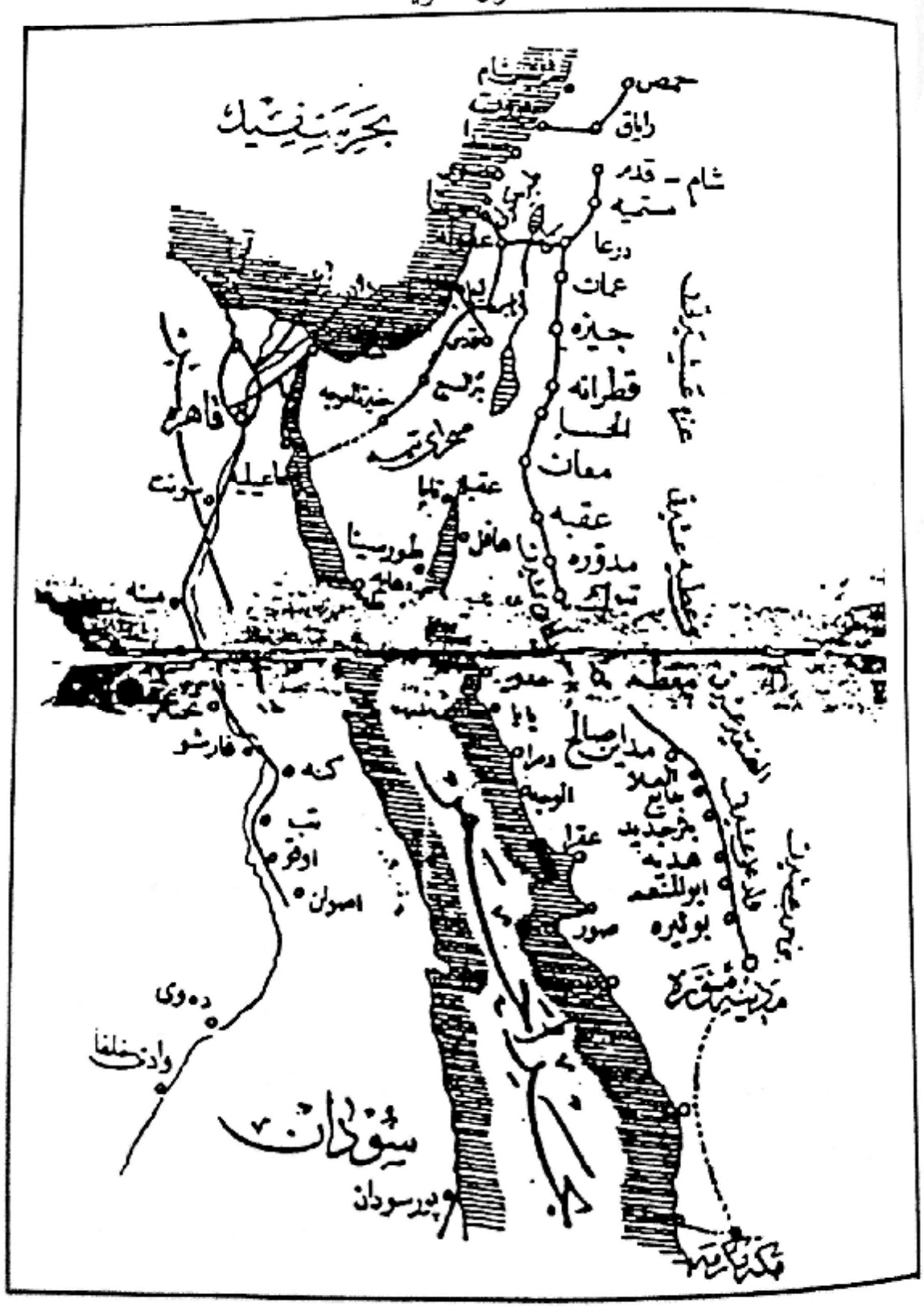
بحيرة تنيس
حمص
راياق
شام - قدم
مستيه
درعا
عمان
جيزه
قطرانه
المحسا
معان
عقبه
مدوره
تبوك
حبرون
فاهره
عقبة وتابا
حافل
طورسينا
مينه
فارشو
كنه
تب
اوقو
اصوان
ده وى
وادى حلفا
سودان
بندر سودان
مدين صالح
وادى القرى
العلا
بئر جديد
هديه
ابو المنعه
بوئيره
مدينة منوره
صور
عقبا
مكة المكرمة

ثالثاً: جانب من تاريخ قبائل ولد علي

لقبائل ولد علي كثيراً جداً من الأخبار التي تناقلتها صدور الرواه، شأنها في ذلك شأن غيرها من القبائل العربية الأخرى، وسنتناول في هذا الموجز جانباً من أخبار ولد علي وهو الجانب المرتبط بصراعها مع الدولة التركية.

وصراعات قبائل ولد علي مع الولاة الأتراك تتمثل فيها الأخلاق العربية الأصيلة والمعاني والمثل الرفيعة والسامية التي يفخر بها أبناء البادية خاصة، والعرب عامة.

ومن ذلك أن الحكومة التركية أقدمت في أواخر القرن الميلادي التاسع عشر على اعتقال بعض زعماء قبيلة عنزة في الشمال ومنهم الشيخ محمد الملحم والشيخ النوري بن شعلان. مما حدا بقبائل ولد علي وعلى رأسهم الشيخ فرحان الأيدأ بالهجوم على قافلة للقوات التركية يقودها ضابط برتبة «فيلد مارشال»، وبعد معركة عنيفة انتهت بانتصار قبائل ولد علي، ووقع الفيلد مارشال التركي أسيراً لدى فرحان الأيدأ، حيث كان من شروط إطلاق سراحه ومن معه من الجنود، أن يتم إطلاق سراح المعتقلين لدى الأتراك من مشايخ عنزة، إلاّ أن الشيخ محمد الملحم يرحمه الله كان قد تم إنفاذ حكم الإعدام فيه قبل هجوم الشيخ فرحان على القوات التركية، فما كان من الحكومة التركية إلاّ أن أذعنت لمطالب ولد علي حيث تم إطلاق سراح ابن شعلان.

وكانت هذه الحادثة هي السبب في إطلاق تسمية اليديان من ولد علي بخزامة الفيل، وفي ذلك يقول الشاعر شليويح بن عبدالله من ولد علي:

أخوان بقشه أقشعوا الريل ... والفيـل حطـوه بـالفيّـه
الخيل راحت تجيب الفيل ... مكتـوف وايـديـه ملـويّـه

ويقول عبدالرحمن بن معيتق:

إنشد عن اليديان خزامة الفيل ... عاداتهم كسب الثنا والجمايل
لهم على حمر الطواقي مواهيل ... زمول تدني للحمول الثقايل

أما في الشمال فلنا وقفة مع «حريب الدول» وهو محمد بن دوخي، والذي التجأ إلى والده دوخي بن سمير، والي دمشق التركي يوسف باشا حين هرب من دمشق، وقد ذكر ذلك المستشرق «بيركهارت».

ففي مناسبة ثانية إلتجأ إلى قبائل ولد علي عدد من الأسرة الخديوية في مصر على أثر مطاردة الدولة العثمانية لهم حيث رفض محمد بن دوخي تسليم دخلائه للدولة العثمانية، على أثر ذلك جردت الدولة العثمانية قوة كبيرة لقتال قبائل ولد علي، حيث التقى الجمعان في معركة شرسة نتج عنها إبادت القوات التركية المهاجمة ونجاة المستجيرين بقبائل ولد علي، وأطلق على محمد الدوخي «حريب الدول»، وفي ذلك يقول:

قولوا لريف الجار ماني مخاشيه ... أنا الذرنوح اللي بعينه يذوبي
دخيلنا هيهات يالقرم نعطيه ... يلقى الأمان ولا يعود مغصوبي
أخوان عذرا مطوبرينٍ حواليه ... وعدونا يرجع كسير امغلوبي
عاداتنا نقدّي المعادي عن التيه ... ومن لا يبرهن عن كلامه كذوبي

وقد نتج عن هذه الحادثة أن أصبحت قبائل ولد علي ملجأ لكل مُطارد من الحكومة التركية، حيث لجأ إلى قبائل ولد علي أحد مشايخ العمور وهو «شلاش العر»، والذي جدّت الحكومة التركية في طلبه وسيرت حملة لجلبه، إلا أنها تراجعت عن طلبه حين لمست جدية قبائل ولد علي في حمايته فوافقت على افتدائه بعدد من الإبل والأغنام. وفي ذلك يقول الشيخ محمد الدوخي:

ياشلاش ما نعطي دخيلٍ نصانا ... لو جمّعوا كل العساكر والأروام
نبي الحرايب، والحرايب منانا ... وش عاد لو جابوا لنا عسكر الشام
عيّت على الشيمه سواعد لحانا ... دخيلنا ما هو دخيلٍ (. . .)
حنّا ليا سرنا بعيد معدانا ... حنا الذي من نطلبه حق ما نام
يا بعد عن ظيم الرجال قصرانا ... ما ننثني لو يطلب الجار حكّام
أولاد وايل مرهبينٍ عدانا ... نعفي الظعيف وللخصيمين ظلّام

***

وفي إحدى معارك «ولد علي» انكسرت إحدى جوانب صفوفهم ومالت على الجانب الآخر من الفرسان، وكان مع القوم المقابلين لولد علي فارس جسور أخذ يضرب بسيفه ويرمي من يطاله سيفه عن ظهر فرسه، فالتجّ ذلك الجانب، وتفرقت صفوفه وتبعثر فرسانه، وكان ذلك الفارس يصيح مرتجزاً:

يامن يناطحني يجيني هنيّه ... عندي له المصقول والردنيّه
وأنا على سرج الأصيل القارح ... أنطح كبير القوم يوم الهيّه
إبرّها وام العيال إتبرها ... والبر الآخر حنطةٍ منقيّه
آخذ بخيل الوِلد مسراح الغنم ... وأنطح من خيول اقبلانا ميّه

فما كان من الفارس الشهير «باروخ بن خليل» وهو الملقب «رأس القحم» وهو شيخ قبيلة الطلوح من ضنا مفرّج من ولد علي، إلاّ وأن برز له، وأخذ يصيح مرتجزاً بدوره قائلاً:

كانك تسوق الخيل مسراح الغنم ... أنا نطيحك يا نطيح الميّه
جيتك على قبّا قحوم سابق ... وسلاحي عود الزان والشبريه
عاداتنا نخلي سروج أمثالك ... لعيون غرٍ لابس المزويّه
وإن كان ما حز البتيرا راسك ... والله ما جابتني أوهبيه

ثم لكز فرسه نحو الفارس المذكور، وأخذت الجموع تراقب الموقف، منتظرة ما ستسفر عنه المبارزة. وما إن اقترب منه باروخ رفعه برمحه عن ظهر فرسه، ورماه في ساحة المعركة صريعاً، فالتحمت الجموع من جديد، حتى تمكن فرسان ولد علي من النصر.

ومما لايزال يذكره بعض كبار السن، أن إحدى القبائل كانت تتوعد قبيلة جبّارة من ولد علي، حتى قال شاعرهم:

لواهني من شاف «جبرا» وحدها في مهمهٍ والوِلد عنها بعيدين
حتى العبيّه تركض وتدّي جهدها وتاطى على روس الرجال العنيدين

وبلغت تلك الأبيات إلى قبيلة جبّارة، فما كان من فرسانها إلاّ وقد عقدوا العزم على تحقيق أمنية ذلك الشاعر، فاتفق الجميع سراً على أن يرحلوا ليلاً دون أن يشعر بهم أحد من قبائل وِلد علي، وحين أدمس الليل طوحوا نزلهم وسروا بعيداً عن نزول ولد علي، واستمروا في مسيرهم حتى اقتربوا من نزل القبيلة التي توعدتهم، فأناخوا رواحلهم، وأعدوا خيلهم للطراد. وأرسلوا النذير لتلك القبيلة ومعه رسالة هي بيت من الشعر يقول:

جينا العبيّه عانيين لوعدها وعنّا «هل الملحا» تراهم بعيدين

وحين التقى الجمعان، تمكن فرسان جبّارة من إلحاق الهزيمة بخصمهم.

ويذكر أن تلك المعركة لم يقتل فيها أحد من خصوم جبارة بسبب أن تلك القبيلة تمت بصلة رحم لقبيلة جبّارة، فهم من أبناء عمومتهم من عنزة، فقد كان فرسان جبّارة يرمون الخيل دون خيّالتها، ثم يمنعون الفارس الخصم ويأسرونه.

وبعد انتهاء المعركة، أراد بعض فرسان جبّارة قتل الشاعر الذي نظم الأبيات السابقة، إلاّ أن أحدهم كان قد أخذه منيعاً، فرفض تسليم منيعه،

فاتفق الرأي على أن يضعوا في وجهه علامة «كيّ» تبقى لتذكره بنتيجة تحديه.

وفي ذلك قال شاعر جبّارة:

شفنا العبيّة خيّب الله سعدها ما نومست خيّالها بين صفين
جينا نتبارا قاصرينٍ جهدها حنا هل الملحا فحول الميادين

ومما قاله جروان الطيار منتشياً بأحد الانتصارات:

دنّيت لي حيلٍ هجاهيج عيرات خذن بنا عقب المقيل التكاعي
حيلٍ يبجن الدوّ ما هن هزيلات مفخرات عضامهن بالرضاعي
إن صبّحن غب السرا تقل هرفات تنقد عليهن مشيهن بانخراعي
بنات هرشٍ للمطارش منيعات من ساس هجنٍ بنتهن ما تباعي
ضفن على المدب وجنّك مغيرات ويا ما انقصب بالخرج من عقل راعي
جبنا نياقٍ بالمفالي مقيمات وضحٍ مواليفٍ لصوت الشياعي
وضح الوبر ما هن من الوضح بهقات كدرٍ تقل متمرغاتٍ بقاعي
أوسومهن بخشومهن تقل اشارات مثل عصافير الطيور المقاعي

وجروان الطيار هو القائل:

هنيت أنا قلبٍ خلي بلا همّ ينام طرخ ولا تجيه الهواجيس
همّه على الوجبه ليا قيل له سّم يقدع بزاد معذبين المحاميس
وجدي على تسعين كلش ولد عم الكل منهم كاسبين النواميس
مع كثرهم تسعين صفرا تقحّم ترفيع ربدٍ كان جنّك مراويس
حتى المفحّج يا فتى الجود يلتمّ عقب السطاره يعطي الحق ويكيس
من ساعةٍ يسفح بها سافك الدم كم واحدٍ طشوه من حرهن ديس

ومن جميل شعر جروان يرحمه الله:

أمس الضحى نطيب راس الشذوبي قلبي على راس الطويله حداني

همـوم قلبـي راكبـاتـه ركـوبـي صبراً جميل وبالله المستعاني
هنيتكـم يـا دالهيـن القلـوبـي طعامكم مقلول وإنتم سماني
لويش ما ناكل طعام الجنوبي ماثوث ما عمره على الحال باني
من كثر ما تصعب عليّ الدروبي كـن الطعـام ميّـدمـه ديـرمـانـي

***

وصف تفصيلي لرحلة قنص مع وِلد علي

(مشاهدات المستشرق لاسكاريس عام ١٨١١م)

ويرتفع الطائر في الفجر الأرجواني لولبياً، مستمتعاً بحريته، ومستنشقاً، في الفضاء الواسع، رائحة الطريدة ومعها وعد بالدم، فلقد صوّموه منذ ثلاثة أيام.

كان أمير قبيلة ولد علي، يرتب غطاء الرأس الجلدي الأخضر المزين بالدمّ وكان أولاده حوله يمسكون جيادهم. وعلى أصابعهم المرتدية قفازات، كانت صقور لاتزال معصوبة العينين، تجيب بالنق على همسات تشجيعهم. كنا أنا وفتح الله، نقف بمعزل مع جماعة من السادة، وأبعد منا تتحرك جماعة من العبيد: طباخون، وطحانون، ومدربو صقور. كان بعض الخيّالة قد سبقونا هذا الصباح. إنهم يحاولون، في مثل هذه الساعة، أن يدفعوا نحونا من الطرائد كل ما يستطيعون أن يثيروه، من أرانب وغزلان وربما زوج من النعام.

إلاّ أن عيون الجميع كانت مركّزة على صقر الأمير: فهو الذي سيكون له شرف افتتاح حفلة الصيد. ولقد كفَّ، لأنه مقدِّم الاحتفال الذي يحمل غرور سيده كله، عن الارتفاع، وأخذ يطير مع ضوء النهار.

وفي الأفق كانت فريسته التي أعمتها الشمس الصاعدة تقترب ببطء، غير شاعرة بالخطر بعد. وكنا نميّز الأمور بصعوبة في مثل هذا البعد: طيراناً متناغماً، وعدواً متموجاً، إنها بطة أو إوزّة، قد افترقت لسوء الحظ عن مثيلاتها اللائي يسبحن الآن في إحدى بحيرات الجولان. كانت تتقدم بتثاقل باتجاه الصقر، الذي كان يلاحظ من كبد السماء تقدم فريسته.

كان الصيادون يقدّرون تكتيك الطائر. إن الطريدة ثقيلة، قليلة الرشاقة

إلاّ أن جناحيها، وهما كتلتان من العظام والعضلات، يمكن أن يزعجا مهاجماً أرعن. ثم إن هناك هذه الرقبة المتحركة الطويلة المنتهية بمنقار قوي جداً، منقار يستطيع أن يضرب في جميع الاتجاهات، عندما يجد الحيوان مستنداً في الأرض، تجد الإوزة خصمها، ستحاول بالتأكيد أن تهبط بمجرد أن تلمح الخصم. يمكن عند اللزوم إطلاق الكلاب لمنعها من ملامسة الأرض، إلاّ أن ذلك يعني التعدي على الحقوق بالنسبة لصقر بهذه المزايا. ودوخي، معلمه، يؤثر أن يفقده مقطوع العنق بضربة من إوزّة عابرة، على أن يثلم شرف طائر ذي نسب كريم مثله.

والصقر على كل حال يعرف جيداً ما ينبغي عليه أن يفعله. فغريزة الحرب والقتل المنضجة لديه، مثل سيده، بأجيال من اللقاحات المنتخبة، وقرون من المعارك في الرمال، تملي عليه سلوكه. فما إن همس دوخي بنصائحه في أذني الطير، وما أن حدّثه حديث الدم الذي يحوم فوقه، حتى شعر بأنه مقود بفكرة مشتركة، مؤلفة من تعليم الإنسان بصوت خافت، ويعرف الطائر السبع واجبه في السماء. وانقض كجلمود صخر، مجتازاً الفضاء خلف الطريدة.. هاهوذا على مستوى الأرض.

كان في طيرانه يمسّ رؤوس الأعشاب الرمادية.. ويكاد يعانق كل صخرة، وكل ثنية في التراب، وكل كثيب.

ثم اجتاز الطريدة حتى تلمحه فوقها، ويعرف جيداً أن ليس بإمكانها في الوقت الحاضر الهبوط أكثر مما فعلت. إلاّ أنها هدّأت من طيرانها، ودارت قلقة، ابتعدت بإتجاه الجنوب، بينما كان دوخي وأبناؤه يندفعون فجأة لكي يتبعوها، واضطربت جماعتنا كلها، في لغط صياح رجال، ونباح كلاب، بينما كانت الصفوة المغطاة عيونها تضرب بأجنحتها فوق الأصابع المرفوعة لكي تحتفظ بتوازنها، وتقاوم هواء السباق، ربما لتعبّر أيضاً

وبشكل غامض عن حبورها وسط هذا الجنون . .

وارتفع القاتل، في الوقت الحاضر فوق الضحية، وأجبرها على اتخاذ الارتفاع الذي يريد. وهاهي ذي قد اتخذت وضع الموت، وحركة الرقص الدامية في الهواء الطلق. وقام بأول فصل، لتقدير دفاعات الخصم: استقر الصقر فوق الطريدة، لاحظ طيرانها من بعد اثني عشر متراً، مرتباً سرعته على سرعتها. . يكاد يقلد ثقلها في سخرية عجيبة.

وانضمَّ جناحاه فجأة حول جانبيه، وقست رقبته، واستطالت مخالبه تحت بطنه، ثم ارجحنَّ الطير الجارح، وانقضَّ باتجاه الأرض كسهم، ماساً ضحيته. . بحدود جناحيه الكبيرين القاتلين.

وهاهو ذا يقدِّم الفصل الثاني من المسرحية: إنه يعلو من جديد، إلاّ أن انحناءه كان أكثر شدةً ودقة، وكان ذلك يعني أنه يريد أن ينهي مهمته. وتسارعت الانقضاضة مرة ثانية، وكانت أكثر دقة: أمسكت المخالب العنق الطويل النقيّ ثم خفق الجناحان خفقتين مضطربتين، وضرب المنقار ضربتين أشبهتا ضربتي سيف قاطع. تهاوت الطريدة مدوَّمة، مفتوحة الجمجمة، وسط تهليل الانتصار وصيحاته.

وعرف المنتصر قيمة ضحيته وارتشف إعجابَ جمهوره، وارتفع بحركة مسرحية عالياً جداً في ضوء الشمس، ثم ترك نفسه ينزلق باتجاه الأرض في منحنى كامل.

انزلق ببطء. . ببطءٍ شديد، حتى يمكن الجميع تأمّله وإعداد مكافأته من بعد. . كان سيده يحب هذا الزهو من حيوانه، وكان ينتظره واقفاً وقفةً جامدة، حتى لا تفسد ضربة جناح هذا المنحني المسحوب الرائع، وحتى يتمكن الطائر من التوضع، كما قدر فوق إصبعه المنتصب.

وقامت آنذاك، بين الإنسان والصقر، عاصفة من الحنان والثناء المفرط،

والقبل المجنونة، وكلمات الحب التي كان الطائر يجيب عليها بنقيق وحشي. . كان جمعنا يلاحظ في صمت هذا الكلام المفرط: هذا الانجذاب السحريّ الذي لم يكن في الحقيقة طبيعياً ولا عاطفياً، بل كان يجمع في النصر والقتل قاتلين من عرق واحد، قاتلين يتصل أحدهما بالآخر اتّصالاً غامضاً. . وهاهي ذي المكافئة: درّاج اصطيد بالشبكة، يلقى مربوط الأظافر، بين قدمي جواد دوخي[١]، وينقضّ الصقر، غير مبالٍ أمام ضحية حقيرة مثل هذه: فضربة واحدة من المنقار في الرأس، وأخرى في القلب، ثم ولأن الضحية كانت تجادل ولأنه يريد أن يكسر عظم القفص الصدري، ضربة جناح لإسناد الرأس الذي ينقّب بين الأحشاء. .

ويعود المنتصر إلى سيده مدمي فيتلقاه بقبلتين جديدتين، بينما تكون الكلاب قد أحضرت جثة الطريدة.[٢]

***

(١) هو الشيخ دوخي بن سمير.

(٢) من مذكرات المستشرق جول لاسكاريس (Jules Lascaris) مستقاة من كتاب جان سوبلان (Jean Soublin) «لاسكاريس العرب» ترجمة فريد جحا. دمشق: دار طلاس ص ١٤٢.

رابعاً: الطيار في بوادي الشام والعراق

على اثر تشعب قبائل عنزة، نتيجة لانتشار قبائلها من الحجاز «شمال المدينة المنورة» وشمال نجد جنوباً وحتى الجزيرة الفراتية في العراق وسوريا على حدود تركيا شمالاً، مروراً بوادي الأردن والبادية السورية حتى حدود فلسطين، تفرّد كل شيخ بعشيرته يقودها ويوجه أمرها:

(١) الطيار وابن سمير وقبائل ولد علي في المناطق المحيطة بدمشق حتى البادية المتاخمة للعراق والأردن شرقاً وحتى الجولان غرباً. إضافة لمناطق قبائل ولد علي التقليدية في الحجاز في شمال المدينة المنورة وحتى جنوب العلا، ممثلاً ذلك بسيطرة الأيدا عليها، كامتداد لأبناء عمومته في الشمال. بالإضافة لسيطرة «العبيدات» من ولد علي على المناطق المحيطة بإربد في شمال الأردن.

(٢) ابن ملحم أمير الحسنة في المناطق المحيطة بحمص شمالاً وحتى أواسط منطقة القلمون جنوباً، بالإضافة لسيطرة أبناء عمومته الفقرا على العلا وشمالها.

(٣) ابن غبين وابن مهيد والقعيشيش زعماء الفدعان في منطقة الفرات حتى الحدود التركية، وكذلك ابن مرشد وابن هديب من السبعة في منطقة حماه وحمص إلى أطراف تدمر.

(٤) ابن هذال زعيم العمارات في بادية العراق.

(٥) ابن مجلاد زعيم الدهامشة في شمال الجزيرة العربية وجنوب غرب العراق.

(٦) ابن معجل زعيم الأشاجعة، وابن جندل وابن مجيد، وهم المحلف في الشنبل والمناطق الواقعة جنوبه.

(٧) ابن شعلان زعيم الرولة في شمال الأردن وجنوب سوريا مروراً بالشنبل.

(٨) ابن يعيش زعيم المصاليخ في المناطق المحيطة بالشنبل.

(٩) الرفدي والعواجي، من زعماء ضنا بشر في شمال وشمال غرب نجد وفي المناطق المتاخمة لحائل.

(١٠) الفقرا في مناطق الحجر والعلا وما حولها وكذلك الخماعلة والشراعبة.

وسيتناول حديثنا في الصفحات التالية، مختصرات لسير ثلاث من شخصيات هذه الأسرة في القرنين الهجريين الأخيرين «وذلك بعد أن تناولنا نماذج من أسلاف هذه الأسرة في القرن الهجري الأول ثم القرون الهجرية الوسطى» والثلاث شخصيات هي التالية:

١- الشيخ صالح بن زيد الطيّار.
٢- الشيخ سطّام الطيّار.
٣- الشيخ سلطان بن سطّام الطيّار.

***

١- صالح بن زيد الطيّار

لقد تمكن الشيخ صالح بن زيد الطيار من الحفاظ على تماسك قبائل ولد علي فترة من الزمن، بعد أن انفرط عقد وحدة عنزة على أثر هذا الانتشار المساحي الجغرافي الهائل، ذلك العقد الذي تزين به تاريخ أجداده عبر مئات السنين الماضية في داخل شبه الجزيرة العربية، منذ الالتحام الحميم بين أسرة الطيار وبين قبائل عنزة في الحجاز وفي مناطق خيبر تحديداً، في المئة الثانية للهجرة عقب انهيار الدولة الأموية وفي بدايات الدولة العباسية، وعلى أثر نهاية سلطة آل الطيار في المدينة المنورة، وكذلك عقيب مقتل أبناء محمد بن يوسف الطيار أمراء المدينة المنورة عام ٢٦٦هـ. وما أعقب ذلك من تمدد هذه القبيلة في مدّها الأول على أواسط نجد والحجاز، بقيادة هذه الأسرة كما مر بنا.

فقد كان للشيخ صالح بن زيد بن كنعان الطيار دور في ترسيخ نفوذ قبائل ولد علي في المناطق الجديدة «علاوة على المناطق القديمة في الحجاز»، كما أنه جنّب قبائل ولد علي عناء خوض معارك جانبية مع أبناء عمومته، فكل ما تواتر من أخبار معاركه ومغازيه، كان عبارة عن معارك مع القبائل الغير عنزية.

وقد كان، ولفترة قصيرة، أخاه فندي بن زيد الطيار إلى جانبه، إلا أنه سقط صريع المرض شاباً، ليعّقب جضعان صغيراً، حيث تولى تنشئته عمه صالح والذي بعد أن فقد شقيقه فندي، فقد وحيده عبطان بنفس المرض الذي عم البادية آنذاك. وتبعه الشاب جضعان بن فندي الطيار معقباً سطام صغيراً.

وبهذا لم يتبقَّ من أعقاب زيد الطيار إلاّ صالح الطيار، وابن ابن أخيه سطام.

وقد عرف عن الشيخ صالح الطيار الشجاعة والإقدام وكان يلقب «ممرور العيال»، وذاع صيته في البادية كلها شمالاً وجنوباً، وكانت القبائل المنافسة لعنزة تتجنب الصدام به، واشتهر عنه أنه كان يحاول دائماً إصلاح ما فسد بين قبائل عنزة كلما انفتق رتق.

فكان الجميع يلجأ إليه فيفصل بين المتنازعين، فكان من أشهر عوارف البادية وقضاتها، حتى أن المتخاصمين من غير قبائل عنزة كانوا يتيممون إليه، وكان مرجعاً من مراجع البادية فيما يتعلق بشئونها.[١]

وكان يرحمه الله يرفض الغدر والعدوان، ويصرّ على المبادئ التي تعارفت عليها البادية في حروبه ومن ذلك مبدأ الإنذار، ومبدأ حماية الأسرى وعدم الاعتداء عليهم وهو اصطلح على تسميته بالبادية «المنع»، وحماية النساء والأطفال في حروبه وعدم أخذهم أسرى وترك ما يقتاتون به من حلال حفاظاً عليهم.

ومما تناقلته الرواة من سيرة الشيخ صالح الطيار، نورد ما روي من أن حرباً جاور قبائل ولد علي في سنة من السنين لفترة قصيرة على أحد الموارد ثم رحل عنهم إلى قومه، وبعد فترة طويلة، أغار قوم على مواشيه وأخذوها.

ثم إنه شد الرحال إلى حيث صالح الطيار، وقبائل ولد علي، فحلّ ضيفاً عليهم، وبعد أن أمضى فترة الضيافة المتعارف عليها «وهي ثلاثة أيام»، وفي مجلس الشيخ صالح الطيار، وبعد أن اجتمع كبار القوم، رفع عقيرته بأبيات منها:

---

(١) انظر: حمد الجاسر «أصول الخليل العربية الحديثة» صفحة ٣٢٨، فقد أشار الشيخ الجاسر نقلاً عن كتاب «الأصول» إلى أن الإمام فيصل بن تركي قد بعث رسل عباس باشا من الأسرة الخديوية إلى مشائخ البادية ليتقصون عن أصول الخيل العربية الأصيلة، فكان الشيخ صالح الطيار وكذلك منور وجضعان الطيار من مراجعهم فيما يخص الكحيلة والعبية.

يا صالح الطيار ذودي غدنّي وأنا قصير البيت يا شيخ مبيوق
ربعك حمول الخيل وان دوبحنّي أهل رباعٍ للضعافي تقل سوق

فانتصب الشيخ صالح الطيار متحفزاً واستلّ سيفه «كافر النفس» من غمده مستشيطاً غضباً وقد تطاير الشرر من عينه. والتفت إلى ضيفه طالباً منه أن يشير إلى من خان مبادئ الجوار والضيافة وحقوقها من الحضور أو سواهم ليفصل رأسه عن منكبيه.

فارتعد كل من بالمجلس خوفاً من أن يكون قد بدر منهم ما يسيء إلى ضيفهم، واضطرب المجلس وهاج وماج، لحرصهم على منعة جوارهم.

إلاّ أن الرجل طمأن الجميع مذكّراً إياهم بجواره لهم منذ سنين، وأن إبله قد أخذت منه منذ أيام، وان حق الجوار باقٍ لايزال حتى لو ارتحل المتجاورون، وقال معقباً:

أنا اشهد إنك ما تجي دون ظني في حدّ سيفك كم تزهلت لحقوق
بايمانكم يا شيخ شفّي يجنّي يطيب لي في داركم شوفة النوق
شف الطويله عند «كناخر» تحنّي ما جابها الراعي ولا حقّها سوق

عند ذلك هدأ الهرج والمرج الذي ساد المجلس، أما الشيخ صالح الطيار والذي هدأ روعه وتنفس الصعداء، فإنه علم أن الرجل قد نصاه. وأنه ليس له من مناص إلاّ أن ينصره، حتى لا يتردد بين القبائل أن الطيار وقبائل ولد علي قد ردّت مستجيراً بها.

فأمر بأن يعلن على الجميع بأنه نوى المسير مع هذا الرجل لنجدته، فمن أراد السير معه، عليه بأن يجهز نفسه صباحاً.

ثم إنه أغار على القوم الذين سلبوا الرجل بعد أن بعث لهم نذيراً، فتمكن من استرداد مواشي الرجل وأعادها إليه، باراً بذلك بحق الجوار القديم.

ومما يروى عن سبب تسمية الشيخ صالح بلقب «ممرور العيال» أن أحد شيوخ القبائل المنافسة لقبائل عنزة، كان يلاعب ابنه الشاب لعبة «اللبيّة»[١]، وعند تحريك الأب لأحد الفناجيل قال الابن منتشياً: أنا ممرور العيال.

فتوقف الأب على الفور عن اللعب قائلاً لابنه: أنت ممرور العيال؟ إذا اسمع يا ممرور العيال هذه القصة.

فقال الابن: هات يا أبي.

قال الأب: كنا يا ممرور العيال نازلين في أحد أيام الربيع في أيام شبابي، وقد غم على نفسي فلم أشتهِ الزاد وكنت أحس بمرارة في فمي، فقلت متهكماً لمن بالمجلس: لن تذهب عن فمي هذه المرارة إلا إذا أتيتموني بعنزي لأتسلى عليه.

ثم إننا يا «ممرور العيال» عزمنا بعد فترة من الزمن على الغزو، فقد أتتنا الأخبار بأن هناك أبلاً كثيرة جداً وليس معها إلاّ الرعاة وفارس واحد «جَنَب»[٢] في خيمة خلاوية بعيدة عن الإبل. فاتفقنا على أن هذا هو الصيد الثمين الذي نتمناه، فركبنا على جيادنا ونحن أكثر من خمسين فارساً كلٌّ منهم يطمع في أن يكون له نصيب في هذه الإبل العظيمة العدد السهلة المنال.

وأغرنا على الإبل وسقناها دونما عناء بعد أن قتلنا بعض الرعاة وفر بعضهم الآخر. وبعد أن اجتزنا بها مسافة ليست بعيدة ونحن نحدوا على الإبل فرحين بكسبنا، أطلّ علينا فارس وهو يصيح بصوته ويقول:

---

(١) وهي لعبة عند البدو تُلعب بالفناجيل كالشطرنج.

(٢) الجنب: الفارس أو الفرسان الذين يحرسون الإبل إذا رعت بعيداً عن مضارب القبيلة مسيرة عدة أيام، فهم يحرسونها بجوانب المرعى حتى إذا أغار عليها غزاة، فاجئهم الجَنَب فأطبقوا عليهم وخلصوها.

يا أهل الخيل عليكم من الله الأمان، دعوا الإبل فوالله إنهم لن يمنعوا عنكم بعضها عن طيب خاطر.

عند ذاك أدار بعضنا رؤوس خيلهم عليه كارين يريدون قتله، متسابقين في ذلك كل منهم يطمع بأن يقتلع فرسه ويكسبها. فاستقبلهم بنحر فرسه مجندلاً كل من يصله منهم، ونحن نراقب الموقف. وبعد أن انتهى منهم أدار رأس فرسه علينا وهو ينتخي قائلاً «راعي الملحا وأنا الطيار» فعلمنا أنه صالح الطيار، وأننا لا قبل لنا به، فقد كنا نسمع بفروسيته وبأسه في القتال حتى رأينا ذلك بأعيننا، فطلبنا المنع، فمنعنا وأعطانا الأمان، ثم إنه عرف من أنا «وكان قد بلغه ما قلته من أنني أريد عنزياً لأتسلى عليه حتى يذهب عني ما أحس به من مرارة في فمي».

ثم إنه «يا ممرور العيال» اقتادنا إلى خيمته وطلب من أحد رجاله أن يولم لنا ما نأكله، وانتحى به جانباً ويبدو أنه دربه على قول يقوله.

وبعد حين سألهم عن القوة ولماذا تأخرت. فأجابه الرجل على مسمعنا بأن زوجة أحد الرعاة أرادت الوضوء فلم تجد إبريقاً فأخذت الدلّه للوضوء وقد أحضرتها الآن، ثم بدأ بتقديم القهوة لنا.

وبعد برهة أخرى طلب الطعام متسائلاً عن سبب تأخيره، فقال الرجل على مسمعنا بأنهم وجدوا أحد اكللاب وقد ولدت جراءها في الصحن الكبير فلم يريدوا إزعاجها حتى تأخذ جراءها. ثم حملوا الصحن وقدموه لنا لنأكل.

عند ذاك علمت بأن كل ذاك كان رداً عملياً على ما بلغه عني من قول، وأنه أراد أن يذهب ما بفمي من مرار، فذاك هو ممرور العيال صالح الطيار وليس أنت يا ولدي.

ومما يذكر حول هذه الغارة، أن أحد المغيرين كان الفارس الملقب «صفاط الحذاة» وهو أحد فرسان البادية المعدودين وقد اشتهر بالقوة البالغة، حيث كان يصفط ويطوي حذوة الفرس الحديدية بيده من مبلغ قوته، لذلك لقب بصفاط الحذاة. فكان هو أول من بدأه صالح الطيار حيث انقض عليه فاقتلعه عن ظهر فرسه بيده، وحين شاهد القوم المغيرين ما حلّ بأشدِّهم بأساً، تملّكهم الرعب، حيث تمكن الشيخ صالح الطيار من هزيمتهم منفرداً.

ومما قاله الشيخ صالح الطيار حول هذه الحارثة وملابساتها:

يا سُمير وشلك بالنياق المغاتير ... فود الضحى يا سمير ماهن قفاصه
ياما عزلنا دونهن من طوابير ... ورياما شبع ذيب الخلا من محاسه
ورياما عليهن يشفقون المناعير ... وكم شيخ قومٍ تحتهن طاح راسه
يرعن ويلفنّا حرارٍ مصاديـر ... ما سرحن بديياركم للعساسه
يا سمير ما جينا لدارك مساير ... جينا نشّب لنارنا من يباسه
كان انت صدرك ضايقٍ ياملا الخير ... أبشر بفعلٍ منه تلقى الوناسه
وكان انت شرهٍ ياسليل المشاهير ... كلٍ يثبّت بالقنا قوّ باسه
عليك بالجيران عوج المناقير ... بوسط الجزيرة ظاريٍ للفراسه

ومما يذكر عن الشيخ صالح الطيار أنه كان يحمي مناطق واسعة من البادية وما حولها من بلدات وقرى. وهذا يقودنا للحديث عن حادثة لطيفة حصلت بين مجموعة من رجال وِلد علي وبين مجموعة من أهل بلدة «القريتين».

ذلك أن هذه البلدة كانت خاضعة لحماية الطيار، وكانت قبائل ولد علي ضاعنةً بعيداً. وفي أحد الأيام نزلت إحدى القبائل الكبيرة حول هذه البلدة، وأخذ حلال هذه القبيلة يرعى في بساتينها ويشرب من غدرانها

يومين، حتى لم يبقَ لأهل البلدة شيء.

فذهب أحد شعراء البلدة «ويدعى حسين الرحمون» إلى شيخ هذه القبيلة ومدحه بأبيات يطلب فيها منه الرحيل عن هذه البلدة رحمة بها، وكان من ضمن أبيات قصيدته «التي لم تصلنا» بيت يشير فيه إلى أن النساء لم يلدن مثل ذلك الشيخ.

وكان بالبلدة بعض رجال من قبائل وِلد علي، وحين سمعوا بأبيات الشاعر، غضبوا وثارت ثائرتهم لأن هذا البيت يعني أن هذا الشيخ أفضل من الشيخ صالح الطيار، والذي لو كان قريباً من المنطقة لم تجسر أي قبيلة على الاقتراب منها.

ثم أقسم هؤلاء الرجال وتعاهدوا على قطع لسان الشاعر، فما كان من الشاعر «ابن رحمون» إلا أن التجأ إلى شيخ البلدة «فارس السليم»، فتتبعه الرجال إلى هناك واقتحموا المجلس، فما كان من الرجل إلاّ أن صاح: إن البلدة في وجه صالح الطيار وبالتالي فإن هذا المجلس في وجهه.

فتوقف رجال ولد علي عند ذاك، وقالوا: لكنكم لم ترعوا غيبة الطيار، فكيف تكونون في وجهه؟ ثم إننا أقسمنا على قطع لسان الشاعر ولن ننثني حتى يتم لنا ذلك.

فقال فارس السليم: أما عن الطيار فيمكن أن نحكّمه في حقه حين تمر بنا قوافل وِلد على، وأما عن يمينكم فيمكن أن تبروا به بأن يمرر أحدكم خنجره على لسان الشاعر.

فوافق القوم وتم لهم ذلك، ثم إن ابن رحمون قال: إنني لم أذنب لأنني مدحت كريماً يستحق المدح لكرمه، والشيخ صالح الطيار فارس

يستحق الثناء لشجاعته .

عند ذلك ثار المجلس من جديد وكثر فيه الهرج والمرج، وتناول رجال ولد علي سيوفهم يريدون بن رحمون، فحال الحضور دونه، وأخذ بن رحمون يرتجل أبيات شعر يتوجد بها على صالح الطيار وقبائل ولد علي مؤكداً فيها بأنهم لو كانوا موجودين لم تحصل له هذه المصيبة ولم تحدث هذه الفتنة، حيث قال :

يا حيف يا دارٍ خلت عقب أهلها ... وين المعزّه اليوم منهو يصونها
كانوا بها عزٍ لها وحماها ... فوق الصوافق بالوغى يحمونها
سطّايةٍ عطّايةٍ وطّاية ... سرد السبايا في صخى يعطونها
عنّايةٍ فنّايةٍ بنّاية ... خزن الذهب من جودها يفنونها
هزّاعةٍ جزّاعةٍ خزّاعة ... خشوم الأعادي بالوغى يوطونها
عن فتنةٍ صارت عليّ بسبّتي ... وحالوا رجالٍ دون حتفي ودونها
فرقت أنا أجوادها وجيادها ... وقاموا عليّ وافعالهم يطرونها
تشابكوا وتعابكوا وتلابكوا ... حتى السيوف الماضية يسلّونها

فتوقف الجميع، وهم يسمعون هذه الأبيات، عن المشاحنة، وقال قائل هذه مخاصمة تحتاج لمن يفصل فيها، ولحل المسألة وما قد يتبعها من مشاكل فليذهب الجميع لأحد العوارف ليفصل بين الجميع . فإتفق الجميع على الذهاب لأحد العوارف من مشايخ عنزة ليفصل بينهم .

وعند العارفة انطلق ابن رحمون يعرض حجته، وهو يتكلم عن ذلك الشيخ الكريم الذي مدحه، حيث قال :

يالعارفة بالله وش عندك ... باللي أتوه بليل دمسٍ كونها
همك الرمك يا عارفة نبّهنّه ... عيونه تلفّت والكرى بجفونها
عقب نصف الليل جته نزولهم ... الليل ظلمه والمطر بنزولها

أول لقاهم يا هلا ويا مرحبا بين الشفايف ضحكته بسنونها
وثاني لقاهم كان ضوٍّ عالق ضيوفه تدفّي بارقات عيونها
وثالث لقاهم كرمتٍ لخيولهم مخالي الرمك لعذارها يملونها
ورابع لقاهم كان سمنٍ جامد ومفطّحاتٍ سامنات متونها
والخامسة تعللةٍ ليـن ناموا من فوق فرشٍ ظافيات ردونها
والسادسة يا العارفة يوم صبّحوا دلال صفرٍ لابته يملونها
والسكر المصري بسرعه يجيهم والبن يحمس والخدم يبقونها
ومن عقب مقعاد الثلاثة ترحلوا لأوطانهم يا علّهم يردونها
وهشالهم يا عارفة ما تنقطع من غير طلابٍ لهم ياتونها
وسنة الغلا تلقى فعاله زايده عقب المحل والقوت ما يلقونها
ذي حجّتي يا عارفة وردّتها ورجال «للطيار» حالوا دونها

ثم برز أحد الرجال من وِلد علي، وقال مخاطباً العارفة:

يالعارفة باللّه وش عندك وسحوت العرب الصبح يمدونها
ومن يوم مدّت حلّ فيها قومٍ ولو هي بحب لحي ما يخلونها
ثمّ للطيّار فزع الصايحٍ من فوق حمراً طايرات عيونها
وتشوف غيد الحيّ قامن يصيحن للخيل ياهل الخيل هم ينخونها
ثم إعتلى الطيار من فوق سرجها بيّاع روحه للذي يشرونها
ولحق عليهم فوق حمراً ضامر وصاح ياهل الخيل حيلوا دونها
قالوا العدوان جاكم صالح أرواحكم ياهل الطمع ما دونها
ثم هزّ رمحه وانتخى في خيّته وصاح ياهل الحيّ أنا لعيونها
وثلاثين قارع من أصايل خيلهم قلايعٍ فرسانها يبرونها
هو جابها وحده بعالي همّته والحربٍ صالح عالمٍ بفنونها
وتزّين أهل النزل في فعل صالح الخيل تلعب والعدا بغبونها

أسألك يا عارفة بحق الولي روحٍ عزيزة هو يعادل دونها؟؟

عند ذلك أطرق الشيخ العارفة مليّاً يفكّر، ثم قال:

يا حيّ ذكر اللّه ولي عارف ما يوزن الميزان غير وزونها
دمّ الفتى ما هو بسمنٍ جامد ولا هو بخرفانٍ شرى يشرونها
ودمّ الفتى ما هو بدم الفاطر يومن ينوش الرمح راس متونها
لو صارت الأسوام على روح الفتى شياه العرب والترك ما يعدلونها
الأجواد أخبارها وأذكارها كما السرج في عتمةٍ يضوونها
أما الفوارس شبه برقٍ لامع مشاعلٍ يوم الوغى يشعونها
هذي الحقوق الظاهرة من عندنا إن كانت تهنا يا عرب لا تقبلونها

وهكذا حكم الشيخ أن الشجاع مقدّم على الكريم لأنه يجود بروحه.

***

٢- الشيخ سطام الطيّار

توفي الشيخ جضعان الطيّار شاباً، فخلّف وراءه الطفل «سطام»، ليتعهّده عم والده الكهل الشيخ «صالح الطيار» الذي رزئ بشقيقيه «فندي» و «منور» وابن شقيقه «جضعان بن فندي» في وقت واحد.

تولى الشيخ صالح الطيار تنشئة الصغير سطام، بعد أن تركتهما الأقدار وحيدين من سلالة ممتدة وضاربة في أعماق التاريخ.

إلاّ أن الأقدار أبت أن تطيب للطفل الصغير وعمّه الكهل، ففرقّت بين سطام وبين حنان عمه صالح الطيار يد المنون التي اختارت هذه المرة الشيخ صالح الطيار فاختطفته[١]، فأصبح الصغير سطام الطيار وحيداً لم تترك له الأقدار أحداً من ذويه إلاّ وامتدت يدها له بالموت، يتلفّت حوله فلا يجد أباً ولا أخاً ولا عمّاً، سوى ابن عمه عبطان والذي لم يمهله القدر كثيراً، «ولا يخفى ما يعنيه ذلك في شريعة الصحراء وأعرافها» ثم إن سطاماً نشأ يتيماً في كنف الرجال من أبناء قبيلته، والذين برز منهم الشيخ محمد الدوخي، وهو بحق أحد أفذاذ الصحراء وشجعانها، وممن سجّل في تاريخ البادية صفحات ناصعة. إلاّ أن الظروف المحيطة بمحمد الدوخي أثناء قيادته لولد علي، لم تمكنه من تجنب الاصطدام مع أبناء عمومته قبيلة الرولة. كما أنه وفي أثناء قيادة محمد الدوخي لقبائل ولد علي، كان لتلك القبائل موعدٌ آخر مع الولاة العثمانيين، وذلك هو التحدي الثاني للجيش التركي في بلاد الشام، ومن نفس الجهة التي سبق لها وأن خاضت معركة حاسمة مع الأتراك وأحلافهم بالاشتراك مع أبناء عمومتهم المنابهة.

ذلك أن جماعة من أسرة الخديوي في مصر، ونتيجة لتردّي العلاقات

(١) دفن الشيخ صالح الطيار رحمه الله في منطقة الجويف في مكان يعرف اليوم باسم خبرا صالح.

مع الأستانة في تركيا، هربوا إلى داخل البوادي العربية، فانقسم أفراد هذه الأسرة على قبائل عنزة طلباً للحماية لديهم من الأتراك، فما كان من محمد الدوخي إلاّ أن أجارهم.

كما أجار الشيخ سطام الشعلان شيخ الرولة قسماً منهم، وبعد أن علمت الدولة العثمانية بوجود أسرة الخديوي لدى ولد علي والرولة، أرسلت مندوباً لكلٍ من سطام الشعلان، ومحمد الدوخي.

فما كان من سطام الشعلان إلاّ المثول أمام عظمة دولة بني عثمان وإرسال من عنده.

أما محمد الدوخي فقد أبلغ المندوب بأن المستجير لا يسلم وباقٍ رجلاً من قبائل ولد علي. فما كان من الدولة إلاّ أن جردّت حملة قوية على قبائل ولد علي، وتلاقى الجمعان حيث دارت معركة طاحنة، أبيدت فيها كتيبة تركية كاملة مقابل حوالي مئة وخمسين رجلاً من ولد علي، وانهزم الجيش التركي شر هزيمة.

ونتج عن ذلك تغيير الوالي التركي، فاختار الوالي الجديد مهادنة «البدو»، والعفو عمّن أجارتهم قبائل ولد علي. حيث سمي محمد الدوخي على أثر ذلك «حريب الدول».[١]

وبعد تلك الحادثة بفترة قصيرة، حدثت جناية من أحد شيوخ قبيلة «العمور» ويدعى «شلاش العر» الأمر الذي حدا بالدولة للبحث عنه، فالتجأ هذا الرجل إلى قبيلة «المشطة» من قبائل ولد علي، وكان قد حاول اللجوء إلى عدد من القبائل الأخرى، إلا أن الجميع رفض إجارته في مواجهة الدولة التركية.

---

(١) انظر: «قطوف الأزهار» ص ٣٧-٣٨.

وعقب لجوئه إلى ولد علي رغم إلحاح الدولة العثمانية بطلبه، كادت تلك الحادثة أن تؤدي إلى صدام جديد، لولا رضوخ الوالي وقبوله بعدد ألفي رأس من الغنم ومئتي ناقة، مقابل العفو عن «شلاش».

وقد سجلت بعض تلك الأحداث بقصائد جميلة لمحمد الدوخي، منها قوله مطمئناً شلاش:

يا شلاش ما نعطيك حمر الطرابيش ... لو جمّعوا كل العساكر علينا
وش عذرنا من أم الثنايا المباهيش ... غـرٍ يـزيـن مِـرود الكحـل عينـا
دونك نسوق المال والخيل والجيش ... وإن لزّموا يا شلاش نرهن حدينا
إخوان عذرا ما بهم ماكر كديش ... يرجع معيفٍ خاسرٍ من يبينا
حنّا بني «وايل» بعاد المطاريش ... حامين من «النقره» إلى حد «سينا»
مركاضنا يشبع بها نافض الريش ... نرهب اعدانا كان حنّا مشينا
ستر العذارى ناقظات العكاريش ... يـامـا تسلّطنـا ويـامـا عفينـا

وفي هذه الأجواء المضطربة والعلاقات المتوترة مع الدولة، نشأ سطام الطيار وترعرع، وهي نشأة حربية بلاشك.

حيث كان يرى ويعايش ظروف الحرب والكر والفر. فرضع لبان الشجاعة والإباء بين قومه، الذين كانوا يولونه جل اهتمامهم واحترامهم وتقديرهم.

ولما بلغ مبلغ الرجال وأصبح شاباً في مقتبل شبابه، أخذ الشيخ سطام الطيار يشارك قومه في أيامهم وحروبهم، فلمس به الجميع ما أثلج صدورهم.

وقد انتهج رجال قبائل ولد علي منهاجاً جديداً وهو أن يجتمعوا ليلة في مجلس الشاب سطام، وليلة في مجلس محمد الدوخي متعاضدين متكاتفين لا يعكّر صفو وحدتهم معكّر، إلى أن حدثت حادثة كان لها أثرها البعيد.

ذلك أن أحد كبار السن من آل منصور الطيار «والذين كانوا حتى ذلك الحين في نجد والحجاز، ولم يبرحوها» وهو «جروان الطيار»، وقد جاء زائراً قومه في الشمال ومتفقداً أحوال الشاب سطام الطيار، وكان برفقته أحد أبناء قبيلة الشرارات.

وعند وصوله إلى مضارب قومه، وكان القوم يتسامرون في مجلس محمد الدوخي في تلك الليل، وسطام الطيار متصدراً المجلس محتفياً بضيفه، وخرج محمد الدوخي لأمر خاص، وأثناء خروجه لفت نظره ناقة الشراري رفيق جروان وعليها وسم الشرارات، ويبدو أن الناقة كانت مصابة بشيء من الجرب، فضربها في أثناء خروجه بعصاة آمراً الرجال بإبعادها عن باقي الركائب حتى لا تصيبها بالعدوى.

وما أن رأى جروان ما كان من أمر ناقة رفيقه، حتى أثاره ذلك، فما كان يأمله هو أن تعامل ذلول رفيقه الضيف برفق، فارتجل أبياتاً من الشعر قسمت المجلس إلى مجموعتين، والقوم إلى قومين، وأثارت حفيظة الشيخ سطام الطيار، ومنها قوله:

وانـاقـةٍ تسـوالهـا عشـر أنـايـق	صالوا عليها محرقين المحاميس
لقيت عقب «ذريّ» ماهم لفايق	غدوا عليكم «يالمفرّج» دواويس
حصنٍ تومّي روسها بالعلايق	وانتم غديتوا عندهم بالمناخيس

فخرج الشيخ سطام الطيار من المجلس في ثورة غضب عارمة، وخرج معه من حضر من «ضنا مفرّج» من قبائل ولد علي وبعض «ضنا ذري»، ثم ذهب إلى مجلسه.

عند ذلك أدرك محمد الدوخي فداحة الأمر، وخطورة الموقف المتأزم. وبعد نظره الذي عرف عنه وهو الرجل الذي عجمته السنون بالتجارب، أخذ يخطط لإصلاح الموقف من فوره، فأرسل على الفور من يسبر له

الغور لمعرفة ماذا يدبر الرجال في مجلس سطام.

وحين عاد الرجل الذي أرسله، أخبره بأنه رأى رجالاً كأنه يعرفهم لأول مرة، فقد كان كل رجل منهم ملثماً وقد عرف كلٌّ منهم من بجواره فقط، وقط أطفئت النيران فلا يميز أحد غير من يليه، وكان كل إثنين يخرجان لبرهة يتناجيان ثم يعودان إلى حيث مكانهما، عند ذلك أدرك محمد الدوخي أن الأمر يسير في اتجاه نزاع مسلّح وقتال يفني به كل طرف شوكة صاحبه، الأمر الذي قد يؤدي بدوره إلى انقضاض من يتحين بقبائل ولد علي الفرص فتذهب ريح هذه القبائل إلى غير رجعة.

فما كان منه إلاّ أن وضع عبائته على كتفيه وتلّثم، وتوجه إلى مجلس الشيخ سطام الطيار وانتهى إلى حيث يجلس جروان ورفيقه، فحسر لثمته واعتذر لهم ولسطام الطيار، مستحلفاً إياهم إلاّ أن يتجاوزوا ما حصل. فانفرجت على أثر ذلك الأزمة وقضي عليها في مهدها.

إلاّ أن الأزمة أبت إلاّ أن تترك آثارها، ففي ربيع ذلك العام، أمر الشيخ سطام بالمسير إلى بوادي «العراق»، فسار ببعض قبائل ولد علي، وبقي محمد الدوخي مع بعض قبائل ولد علي. وأمضى في مرباعه بقية عامه ذاك.

ثم إن رجلاً «قيل أنه من جبّارة من وِلد علي» تمّنى أن يعود الشمل ملتئماً كما كان في السابق، فوجّه قصيدة لمحمد بن دوخي جاء منها:

يا راكبين من الرها أجواز وافراد ... ما تركبوني للركايب دليله
يمشن من الفجر للصبح مدّاد ... والعصر يكتّن مع رسوم الجديله
يلفن على محمد ترثة الأجواد ... الشيخ كسّاب الثنا والنفيله
الشيخ تاه وتيهة الشيخ بعناد ... عقل خفيف الزمل وأطلق ثقيله
سطام مع عبطان ملح على زاد ... صيارم يخلون سرج الأصيله
إلاّ وان ضربوا على شرز ملكاد ... سوٍ على اللي خشّته مستزيله

إن اوقدوا في ضدهم نار وزناد باعوه بيع ما خبرنا مثيله
ترى الرفاقه مثل صابون بفواد مثل المصاريّ وسط كيسك تشيله

ومما يروى عنه من مواقف، أنه كان نازلاً بإبله «جَنَب» في أحد أيام الربيع بالقرب من تل يعرف «بأقرن» أو «قورنه» وعلى مسافة منه فيظه يقال لها «دوقرة» وهي منطقة بين ما يعرف الآن بطريف والقريات، وفي المساء وعندما كان يعشّي صقره، رأى على ضوء النجوم خيال رجلين على رأس التل، فعلم بأن هناك من سيغزوه صباحاً، فأخذ يرفع صوته ليسمعه الرجال ويعلموا بأنه سيكون بانتظارهم، فكان يقول موجهاً حديثه لطيره بما يشبه الرجز:

تعش يا نوقرة.. باكر تصير المعركة ويسيل الدم.. من قورنه لدوقره

وفي الصباح كان سطام الطيار بانتظار زائريه، حيث تدافعت الخيل عليه من رأس التل. فابتدرهم على ظهر فرسه، وأخذ يكر مرتجزاً:

الطير عيّا عن عشاه يتنا مفاليح الصباح
وذيب الخلا جارِ عزيز يومين جايع ما استراح
أرمي له بكفّي غداه يبشر وأنا له بالفلاح
لعيون من تضحك شفاه وليا زعل ما من سماح
أطعن وشوفي ما تبين يا هيه يا ضبي البياح
سرحان وطيري وعشقتي كلٍ رجاني للفلاح

وكان يدفعهم بعيداً ثم يكر عليهم ويصرع من يطاله حتى ولّى من بقي منهم هارباً.

ومن مبلغ فروسيته ضرب به المثل، وعلى من يريد الغزو والكسب، فمن أراد الكسب عليه أن يكون في جمع الطيار، أما الجبان فإنه من مبلغ

جبنه لن يهوش حتى لو كان في جموع الطيار فقيل بالمثل «فلان ما يهوش مع جمع الطيار».

قال الشاعر:

لو هو بجيش ذياب[١] ما جابله فود ولو هو مع الطيار ما يرجهنّي

وبعد مدة من الزمن كان للشيخ سطام الطيار موعدٌ مع القدر، فبينما كان القوم يستعدون لتوديع يومٍ هادئٍ مضى، والشمس تبعث برُر خيوطها مودعة. وإذا بصوت نذيرٍ «مجهول» يعلن بأن غزواً قد أطبق على الإبل، فما كان منهم إلاّ وقد إعتلى كل منهم صهوة جواده، وامتشق سلاحه وعلى رأسهم الشيخ سطام الطيار، فلما وصلوا إلى حيث الإبل، وجدوا بأن كل شيء على وضعه المعتاد!! وأن الإبل لاتزال في مكانها المعهود!! واستفسروا من الرعاة، فأخبروهم بأن الوضع طبيعي.

وأثناء تبادلهم الحديث مع الرعاة، إذا بعيارٍ ناري ينطلق من بين الإبل في الظلام الدامس! ليصيب الشيخ «سطام الطيار» بمقتل، ليسقط رحمه الله مغدوراً في ظروف لاتزال حتى اليوم غامضة وذلك في عام ١٨٩٩م (١٣١٠هـ) تقريباً.

وقد ذهب الناس مذاهب كثيرة فيمن يكون قاتل الشيخ سطام الطيار، ومن ذلك ما أشار إلى المستشرق التشيكي «موزيل Musil» في كتابه «صحراء العرب» من أن «الدروز» هم من اغتال سطام الطيار[٢]، وذهب غيره إلى غير ذلك، ولاتزال هذه القضية يلفّها الغموض، وموضوع يطرح بين الحين والآخر كمادة للمجالس.

---

(١) ذياب بن غانم من بني هلال.

(٢) موزيل (Musil)، «صحراء العرب»، ص ٣٩٠.

إلاّ أن ما نذهب إليه هنا هو أن الدروز «على الرغم من فتك سطام الطيار بهم في مناسبات كثيرة وحرمانه لهم من النزول من جبلهم» لا يمكن أن يجرؤوا على اقتراف عملٍ كهذا لعلمهم أن عواقب ذلك ستكون وخيمة عليهم، ثم إنهم هادنوا سطام الطيار وقبائل ولد علي. كما أن هناك قوى جديدة ظهرت على الساحة قد تكون لها المصلحة في إزاحة الشيخ سطام الطيار.

وأياً كان الأمر فقد قتل يرحمه الله غدراً بعد أن حيكت عليه مؤامرة، وسيبقى غموض ذلك الحادث باقياً وعلمه عند الله، فقد دفن في صدور من يعلمون أسراره.. والذين هم بدورهم دفنوا تحت الثرى.

وقد أنجب سطام الطيار اثنا عشر من الأبناء، مات عشرة منهم أثناء حياته، ولم يبق إلاّ اثنان «محمد» والذي أرسله والده لتلقي العلوم العسكرية في أكاديمية السلطان عبدالحميد للجيش الانكشاري في إسطنبول، وكان حين اغتيال والده شاباً دون العشرين[١]، و «سلطان» والذي كان طفلاً في السادسة من عمره.

وعلى أثر سقوط الشيخ سطام مغدوراً، عاد محمد بن سطام الطيار من إسطنبول طلباً لثأر أبيه، فقتل يرحمه الله عقب عودته بفترة وجيزة، وفي ظروفٍ هي أشد غموضاً من قتل أبيه.

ومرة أخرى.. لم تبقِ الأقدار من هذه الأسرة إلاّ الطفل سلطان بن سطام الطيار ذا السادسة من العمر، وحيداً يتيماً بلا أب ولا أخ، ولا عم ولا ابن عم، وفي بادية لا تؤمن إلاّ بالقوي ولا تعتقد إلاّ بمفاهيم القوة والعزة والسند.

---

(١) موزيل (Musil)، «المرجع السابق»، ص ٣٩١.

فما كان من والدته «خزنه الملحم» إلاّ وأن هربت بوحيدها إلى حيث أخواله أسرة «الملحم» الشهيرة وهم أمراء المنابهة من عنزة، ناجيةً به من أمرٍ قد يدبر بليل، لينشأ في كنفهم خوفاً عليه من أن واجه مصير والده وشقيقه.[١]

وقد جسّدت خزنه الملحم مصيبتها وحزنها على زوجها الشيخ سطام الطيار وابنها محمد في مرثيتها فيهم حين قالت:

البارحة جرّيت بالصدر ونّات ... والنوم عيّا لا يهملج قليله[٢]
يا عين لا تبكلين كثرة وقلاّت ... أبكي على اللي كاسبين النفيله[٣]
أبكي على سطام زبن الونيّات ... يا لولب الحكّام كلٍ يجيله[٤]
إبكي العديم اللي مع الناس ما مات ... مرباع «وايل» بالسنين المحيله
إبكي ذعار الخيل وان صار شدّات ... زيزوم جيشه بالليالي الجليله
وإبكي على محمد حصان المهمات ... هو بيرق الفرسان وشهاب ليله
يالله يا ناهض سبع السماوات ... يا رافع شدّات من يلتجيله
تخلي لنا واحدٍ فيه هقوات ... سلطان نور العين تالي السليله
يبني بيوت العز من عقب ما فات ... اللّه كريم وكلنا نشتكيله
عقب الرجال أهل الفعول القديمات ... شيخان «وايل» من سنينٍ طويله
يجبر عزانا في عظيم المصيبات ... يوم المقدّر ما لنا فيه حيله

وقد ترك الشيخ سطام ثروة هائلة لابنه سلطان سرعان ما تبددت قبل أن يشب عن الطوق «فقد كانت أملاكه تمتد من الحجاز وحتى بلاد الشام وتشمل نخيل خيبر في الحجاز والتي هي إرثه منذ القرن الثاني الهجري،

(١) وحينئذٍ تم إيداع السيف الشهير «كافر النفس» لدى إحدى الأسر الشامية.
(٢) أي أنها قد قضت ليلتها بالبكاء ولم تتمكن من النوم من شدة حزنها.
(٣) وهنا توجه حديثها لعينها فتدعوها للبكاء وتحثها لتذرف الدمع على فقيديها.
(٤) وهي هنا تحث عينها على بكاء سطام ملجأ للضعفاء، ومرجع الحكام والولاة.

ومنطقة «كاف» بالقرب من القريات، وبعض النخيل في منطقة الجوف، وعدد من القرى المحيطة بمدينة حمص في بلاد الشام، ومناطق البطمي والمشقّ والضبعة الشاسعة شرقي دمشق وآبار منطقة الطيارية جنوب تدمر، بالإضافة لما يملكه أي بدوي تقليدياً من إبل ومواشي، وقد تحدث عن ذلك المستشرق «موزيل» في كتابه، فقد كان معاصراً لتلك الأحداث، فقد أقام لدى الطيار لفترة أثناء تجواله في البادية، ونقتطف هنا فقرات من كتابه «صحراء العرب»، وهي مشاهداتٌ جاء فيها ما نصّه:

«لم يتبقَّ من أسرة الطيار إلاّ سلطان بن سطام الطيار الذي كان يبلغ السادسة من العمر «عندما قتل والده»، وقد تزوجت والدته محمد بن دوخي[1]، أما الصغير سلطان فقد ترك برعاية العبد المسنّ «خلف»، وفي مرحلة لاحقة، أقاموا خيامهم في «عذرا»، وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره تزوج «قطنة»، ثم بعد سنتين تزوج «رفعة» والتي كانت تكبره سناً، فأنجبت له فتاتين «الجازي، وسكره»، ثم طلق «قطنه» فقد كان يحب رفعة كثيراً، إلاّ أنه كان يشعر بالأسف لعدم إنجابها ابناً يحمل اسمه. .

والده سطام الطيار زعيم قبائل ولد علي، كان أثرى أثرياء البادية، كان يمتلك العديد من القرى حول مدينة «حمص»، وقطعان لا تحصى من الأغنام والمواشي والإبل.

وبعد وفاة والده قام عدد من سكان حمص، وعن طريق دفع الرشاوي لموظفي الدولة، بتحويل ملكية القرى إلى أسمائهم، أما قطعان الماشية فقد تناقصت كثيراً، وبعد فترة ترك ما تبقى منها لسلطان، وقد كان الشيخ سلطان يستلم من الحكومة التركية (٢٨٠) جنيهاً تركيا أي ما يعادل (١٢٦٠) دولار أمريكي، وذلك نظير حمايته للحجاج. أما عائلة الطيار

---

(١) يبدو أن المقصود رشيد بن محمد الدوخي.

فتتمتع بأعلى إحترام عبر صحراء العرب قاطبة، وتعتبر في المقام الأول ولها الأهمية الأولى، وقد اشتهرت بأنها من أسخى وأكرم الأسر». (١)

وهكذا كانت الظروف التي اكتنفت بداية حياة الشيخ سلطان الطيار، فقد كان وارثاً لأموال طائلة وثروة هائلة تركها له والده، إلاّ أنها لم تصل إليه. فقد تناهبها ذوو الأطماع بلا حول له ولا قوة، وهو الطفل ذو ست السنوات. والذي عاش طفولته بعيداً عن ميراثه «خوفاً عليه من شيء مجهول»، إلاّ أن هذا الطفل كان له في السنين التالية شأن كبير ترتبه له الأقدار، ودور عظيم في الحياة السياسية على امتداد المشرق العربي، وعلى رغم ما وثّق في كتب التاريخ التي تناولت أحداث المنطقة من دورٍ للشيخ سلطان الطيار، إلاّ أن تلك الكتب لم توفه حقه، وبذلك يكون قد ظلم مرتين، فقد ظلم صغيراً في الجانب المادي، وظلم كبيراً في الجانب المعنوي، وسنحاول في الصفحات التالية أن نلقي شيئاً من الضوء على تاريخ هذا المجاهد البطل يرحمه الله.

***

(١) موزيل (Musil)، «المرجع السابق»، ص ٣٩١.

الطـــيار «أبو عنزة»

الشيخ سطام الطيار شيخ قبائل وِلد علي ١٨٩٩م

٣- الشيخ سلطان بن سطام الطيار

«سـيرة مجـاهـد»

من خلال التقديم السابق، يمكن لنا أن نلتمس جانباً من حياة الشيخ سلطان الطيار في طفولته المبكرة، فقد نشأ يتيماً في أحضان أخواله لفترة، ثم تولى رعايته وتوجيهه أحد مواليه من كبار السن وهو «خلف» والذي كان كالأب الحنون له، وقد سعى بتزويجه مرتين مبكّراً أملاً في الحفاظ على إمتداد هذه الأسرة «ولا غرابة في ذلك فكم من مولى مملوك كان له فضل كبير بعد الله على مولاه»، وفي مرحلة لاحقة كان الوصي عليه «رشيد ابن محمد السمير».

ثم كانت بداية انطلاقته، بعد أن شب عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال بمن تبقى معه من فروع قليلة من قبائل ولد علي، ليعود بهم إلى حيث تنزل بقية قبائله، وكان في ذلك الحين قد تولى قيادتهم رشيد بن محمد السمير، وكان رجلاً كبيراً في السن ومجرباً، رحب بمقدم الأمير الشاب سلطان ابن سطام الطيار ومن معه من فروع ولد علي وهم «المشادقة، وجبّارة، والطلوح، وفروع من الحمامدة والمشطة» والتأم الشمل من جديد.

إلاّ أن الوضع لم يكن كما تصوره سلطان، فقد ركنت قبائل ولد علي على مرور الأيام إلى الهدوء والسكينة «نتيجة لتحاشي القبائل الأخرى الاصطدام بها»، فلم يعد لديها أي رغبة بأي تحرّكٍ عنيف، وهذا ما لا يريده سلطان الشاب الطموح والمتقد حماساً وتطلعاً، فقد كان له أهداف بعيدة يريد تحقيقها بمساعدة قبائله، وله حقوق يريد استردادها، والوضع الذي وجدهم عليه مخيب لتطلعاته.

عند ذلك بدأ يحثهم على ركوب المطايا وصهوات الجياد، فهم إن استمروا على وضعهم هذا سيصبحون إن عاجلاً أو آجلاً فريسة سهلة لكل

طامع «وهذا ما حدث فعلاً لاحقاً حين أغارت قبائل جبل العرب مجتمعة على بعض قبائل ولد علي كما سيرد في الصفحات التالية وهي التي لم تكن تجرؤ على مثل ذلك من قبل».

وقد تمثّل بأبياتٍ خاطب بها نمر بن رشيد وكان صديقاً مقرباً إلى نفسه، وتقول أبياته:

حرٍ شهر من «حوش نصري» معنّا[١]
وقـوطـر يخـمّ ديـارنـا والخـوابيـر[٢]
قـوطـر يخـمّ بـلادنـا مـع وطنّـا
حـرٍ علـى البـردين يـاخـذ مشـاويـر
لابّـد نـوبـه عنـد شيـلٍ يـدنّـا[٣]
توحي حساس الطرش هو والمداوير[٤]
يـامـا حـلا يـا شيـخ زوعـة ضعنّـا
ويـامـا حـلا يـا شيـخ خـزّ المغـاتيـر[٥]
متـى نطيّـر غبـرة «المـرج» عنّـا
متـى تـزوع أسـلافنـا والمظـاهيـر[٦]

---

(١) الحر هنا هو الجمل الأصيل، وحوش نصري: منطقة بالشام.

(٢) قوطر: ذهب بلهجة عنزة، أي أن هذا الجمل قد شهر ونهض من ذلك المكان وذهب مسرعاً ليفتش في الديار والخوابير «جمع خبرا وهي مكان تجمع الماء» والتي هي مناطق نفوذ أسلاف الشيخ سلطان. وميراثه.

(٣) أي أن هذا الحر وأمثاله من الجمال والنوق النجيبة لابد أن تدنّا يوماً ما للشيل والحمل عليها.

(٤) أي أن الإبل والحلال لابد أن يسمع صوتها يوماً ما وهي تحمل القبيلة وتسير قاطعة بها المناطق البعيدة.

(٥) زوعة: إنطلاقة الإبل طائعة، الضعن: القبيلة وهي ضاعنة أي راحلة، خزّ: تخزز تعني تقاسم الغنائم فكل فارس يأخذ خزائز من خيار الكسب، والمغاتير: الإبل بيضاء اللون. والمقصود بالبيت: ما أجمل منظر الإبل وهي ضاعنة بقبائلنا وتجد بمسيرها.

(٦) المرج: المنطقة المزروعة أو مناطق الفلاحين، الأسلاف: جمع سلف وهو مقدمة القافلة=

مبـــروك هـــاك اليـــوم يـــوم رحلنـــا
ونبـاري اللـي يشلعـون الطـوابيـر[١]
يا «نمر» قل «لرشيد» وش جاه منّا
عقب الوفا يا شيخ صارت معايير[٢]
بيـــوتنـــا قفـــو الجهـــامـــه تبنّـــا
وإن طـالـع الشِـواف قـالـوا حـزاويـر[٣]
أمـــرٍ مـــن المـــولـــى علينـــا تـــدنّـــا
الحكـم حكـم اللّـه والـي التـدابيـر
أخـوان «عـذرا» كلهـم مـن لـدنّـا
فـروخ الحـرار ومنـوةٍ للصقـاقيـر[٤]
يـا رشيـد بـاللّـه تقصـر الهـرج عنّـا
لازم نـدافـع بـالسلـف والمظـاهيـر
وإن صـاروا الفـرسـان منكـم ومنّـا
يا زين بين الخيل جدع الطوابير[٥]

= عند الرحيل ويكون فرسان القبيلة هم السلف الذي يتقدمها، والمظاهير: جمع مظهور وهو الجزء من القافلة المخصص للنساء، والمقصود أن يتسائل بتوجد وحنين متى سننفض عنّا غبار الكسل في هذه المروج ومتى سأرى الفرسان «الأسلاف» يتقدمون القافلة والمظاهير تسير خلفهم.

(١) هو يوم مبروك اليوم الذي نرحل به ونثبت للفرسان من القبائل الأخرى والذين عهد عنهم شلع طوابير المعارك أننا نباريهم ونفوقهم فروسية ونحن قادرون على ذلك.

(٢) وهو يخاطب صديقه نمر فيقول له قل لأبيك رشيد ماذا فعلنا حتى نعير بما لا يرضى.

(٣) أي أن بيوتنا لم تعد تُعرف وإذا تطلع إليها من يراها يتحرز عليها من جهله بنا.

(٤) أخوان عذرا: هم السمير، فيقول أنتم كلكم أبناء عمومتي ومن لدني، ونحن كالطيور الحرة التي يتمناها كل قناص وصقار لأنها قناصة.

(٥) أي لو اجتمع فرساننا وفرسانكم فإننا سنلحق الهزائم بكل من يقف في وجهنا وستتلذذ بإفناء طوابير الفرسان بين خيولنا.

لعيـون مـن رشّ الـذوايـب بحنّـا
نسوّي على خيل المعادي معاصير[١]
عـاداتنـا يـا شيـخ زبـن المجنّـا
وقصيـرنـا نعـذيـه عـن المخـاسيـر[٢]
الطيـب كـار جـدودنـا هـم وهلنـا
ونجنـب الفـرسـان لـوح الشـوابيـر[٣]
حنّـا ذعـار الخيـل يـا رشيـد حنّـا
ليـا جـن مـع روس النـوازي دعـاثيـر[٤]
حيشـانهـا والمـرج مـا هـي وطنّـا
مـار الـزمـن بـه مـال رب المقـاديـر

وقد أثبت الشيخ سلطان الطيار نزعاته القيادية، وقدراته القتالية في مناسبات كثيرة في ريعان شبابه، ومن ذلك على سبيل المثال:

أنه كان مع بعض رجاله «وكانوا يتجاوزون مئة الفارس» مرتحلين على ركائبهم في صباح أحد الأيام إلى بعض المراعي البعيدة عن منازلهم لتفقدها قبل مسير قبائلهم إليها، وكانوا يسيرون بالقرب من مضارب أبناء عمومتهم من «عنزة» قبيلة الرولة، فسمعوا دويّ عيارات نارية قادماً من جهتهم، فبعث الشيخ سلطان من يأتيه بالخبر.

---

(١) أي من أجل عيون نسائنا اللاتي يصبغن ذوائب شعرهن ويتزين من أجلنا فإننا لن نخذلهن وسنرمي أعدائنا ونكون لهم كالأعاصير.

(٢) ونحن أيها الشيخ من عاداتنا أن نزبّن من جنى جناية وندخله بحمانا إذا إلتجأ لنا، كما أنا نكفي جارنا عن مؤنة أن يتخسر أي شيء من أمواله.

(٣) الطيب والكرم كار لأجدادنا وصنعة لهم منذ زمن قديم وكذلك الشجاعة فنحن نكفي الفرسان الذين معنا مؤنة مصادمة الشوابير وهي السيوف والرماح.

(٤) فنحن فرسان الخيل ونحن من يصادمها إذا أتت من رؤوس النوازي والأماكن النازية والمرتفعة مندفعة ومجتمعة.

وحين عاد إليه أخبره بأن غزواً لبعض القبائل المتحالفة قد أطبق على الرولة في صباح ذلك اليوم، وأن الرولة بحاجةٍ إلى أي مدد وعون.

فما كان منه إلاّ وأن كرّ بفرسه وبمن معه من الفرسان وباغت الغزو من خلفهم، وأعمل فيهم سلاحه ذائداً عن مضارب الرولة، إلى أن ارتدّ الغزاة مدحورين مولين الأدبار، وقد قربّت هذه الحادثة الشيخ سلطان إلى نفوس الرولة حتى أن الشيخ النوري الشعلان شيخ الرولة زوجّه بإثنتين من حفيداته عرفاناً وإكراماً له.

وقد تمثّل بأبيات تحكي عن هذه الحادثة، ومنها قوله:

لـوا حلـولات يـا المستـور ... مـــن كـــل قلبـــي تمنيتـــه
الصبح ليا درهم الصابور ... قفـــو «الشعـــاليـــن» ردّيتـــه
علمٍ بوسط العرب مذكور ... والضـد بـالسـم أنـا اسقيتـه
إن ساعف اللّه يجينا دور ... بسعـــــود ربٍ تـــــرجيتـــــه
لعيـون مـن قـرنهـا منثـور ... عين الوحش يوم هدّيته
بنت الذي ينطح الطابور ... مـع القبـائـل طلـع صيتـه

وفي أثناء غيابه ومن معه من الفرسان عن قبائلهم، أغار أهل الجبل[1] على مضارب قبيلتي الطلوح والمشادقة «من ولد علي» واستاقوا إبلهم ومواشيهم «وكانت فيما يذكره كبار السن تتجاوز الثلاثين ألف رأس».

وحين عاد الشيخ سلطان الطيار ومن معه من خيرة الفرسان، وجد قومه وقد نهب حلالهم وقتل بعض رجالهم.

---

(١) أهل الجبل هم مجموعة من القبائل المتحالفة، وهي تسكن جبل العرب «ما يعرف الآن بجبل الدروز» والحرات الممتدة من سفوحه إلى داخل العمق الأردني. . وهي منطقة وعرة جداً وتتميز بمنعتها وتحصينها الطبيعي.

فاستشاط غضباً على جرأة أهل الجبل على قبائل ولد علي، واستغلالهم فرصة غيابه «كما أنه يرفض مبدأ السلب، ولكنه يرفض أن يجرؤ أحد على حدوده وحدود قومه» فما كان منه إلاّ وقد أطلق يمينه المشهور، وهو أن يجعل كل رجل منهم يلبس ثياب امرأته.[١]

ثم إنه أعلن الرحيل في قومه، وابتعد عن تلك المناطق إلى تخوم العراق، ونزل بقومه هناك لعلمه أن قبائل جبل العرب لن تنزل من جبلها طالما قبائل ولد علي باقية حوله، ومن المعروف أن تلك القبائل كانت تعتصم في ذلك الجبل والحرّات المحيطة به، ومن الصعوبة البالغة الهجوم عليهم وهم متحصنون به لوعورته.

وكان قد أوكل إلى مجموعة من محاربيه أمر مراقبة الجبل والحرة المحيطة به، وحين علم القوم برحيل قبائل ولد علي، نزلوا من سفوح الجبل ليرعوا مناطق الكلأ التي تركها الراحلون.

ولما جاء الخبر إلى الشيخ سلطان، جمع خيرة الفرسان واتجه بهم جنوباً، ثم تنحّر الغرب جادين في مسيرهم ليحول بين القوم وبين جبلهم، ووصلوا في مسيرهم الليل بالنهار، حتى بلغوا إلى حيث أزمعوا، ثم أناخوا روالحهم، والتفتوا إلى خيولهم، وأخذ كلٌّ منهم يعد فرسه وسلاحه لدورها المجلوبة من أجله، حتى إذا اطمأنوا لاستعداداتهم، أخذ كلٌّ منهم قسطاً من الراحة.

ومع تباشير الفجر الأولى، أطبق الشيخ سلطان ورجاله على مضارب أهل الجبل، وما هي إلاّ برهة من الزمن حتى أصبحت الخيام على امتداد الأفق وكأنها لم تكن.

---

(١) كناية عن المفاجأة. وعني بذلك أن الرجل من المفاجأة يستيقظ من نومه فيلتقط ثياب امرأته.

وكان له أن يبّر بيمينه، فقد أغار بنفسه على بيت زعيم القوم، ودخل بفرسه حتى ربعة مجلسه ووقف على رأسه وهو فزع من نومه ويكاد يكون عارياً من الثياب.

وعند ذلك وقفت ابنة ذلك الرجل أمام الفرس وأمسكت لجامها وهي تصيح: يا خيّال البيت بوجه الطيار.

فابتسم الشيخ سلطان جذلاً، والتفت إلى أبيها «والذي كان يعرفه» قول: هالحين بريت بيميني، قم واحمس القهوة.

ثم وضع أحد الأشدّة أمام البيت وجلس يراقب فرسانه وهم يستعيدون حقوقهم، وكلما اقتربت مجموعة منهم إلى البيت الذي أصبح بوجهه، يثنيهم عنه قائلاً: بالوجه.. بالوجه..

ولما انتهوا من ذلك، أخذت النساء تتقاطر عليه، هذه تطلب شياه أيتامها، وتلك تطلب ما يصلب عود صغارها، وأخرى ترجوا من الله ثم منه أن يدع لأسرتها زمائل تنقلها إلى حيث سيجليهم، وكان لا يتردد عن إجابة من يطلبه مثل ذلك رحمةً ورأفة بالصغار والنساء وكبار السن ممن لا ذنب لهم فيما ارتكب رجالهم.

ثم إنه عقب ذلك أخذ على كبارهم ومقاتليهم ألاّ يعودوا لتكرار فعلتهم تلك، حتى لا يعاودهم بفعله هذا. وقفل ورجاله عائدين إلى حيث ينزل قومه وقد استعادوا ما سلب منهم دون وجه حق، وتم لهم تأديب من جرؤ عليهم، وكان قد وعدهم ألاّ يسمح لأحد من رجاله أن يعتدي عليهم إن هم لم يبادروا بذلك «وكان رحمه الله معروفاً بأنه لا يحب العدوان والظلم».

ولكن أحد رجاله «ويقال له عيد» قصد في أحد الأيام بيت رجل منهم يقال له «ابن رخيّص» وغصبه شويهاته، فقال له ابن رخيص: إن لم تعدها سأشتكيك للشيخ سلطان الطيار.

فقال له عيد: واين ستجدني إن أنا ضعنت في البيد الواسعة.

فتوجه الرجل إلى نزل الشيخ سلطان، وحين وصل، شرح للشيخ سلطان شكايته، ثم أرسل الشيخ سلطان في طلب «عيد»، وحين حضر، سأله عما قال الرجل، فأنكر عيد ذلك، وطلب عيد شهادة رجل أحضره معه، فقال: كذب ابن رخيص وصدق عيد..

فما كان من ابن رخيص إلاّ وأن رفع عقيرته قائلاً:

يا عيد لا عادت عليك الليالي ... يامكذّب الصدقات بالمكر والكيد
يا من تبيع الحظ، والحظ غالي ... هبّيت يا بيّاع حظك على عيد
ملجاي بيت الشيخ والرب عالي ... «أخو ثنيه» يفرق الحق ويقيد
وشعاد لو تقطع ورا الدوّ خالي ... ماني بحال اللي يقطع الدوّ والبيد
أزبن على الطيّار واشكيه حالي ... ياصلك لو دونك طوابير أبا زيد

وعند ذلك التفت الشيخ سلطان إلى أحد رجاله، وطلب منه تسليم ابن رخيص عشرة رؤوس من الإبل، وطلب منه مسامحة عيد فيما أخذ إن كان ذلك حقاً، وحذّر عيد من أن أي شكاية أخرى سيغرّمه فيها كل ذلك.

وعلى الرغم من محاولاته، لدفع قومه لما يتطلّع إليه، فإن الاستجابة لنداءاته من بعض قومه لم تكن بمستوى طموحاته كما أسلفنا، فطبع هذا الأمر في نفسه الكثير من مشاعر الحرقة المريرة، ونتلمس هذا الشعور في كثير من القصائد المتداولة الآن، والتي تعكس مدى ألمه.

وكمثال على ذلك قوله يخاطب «خلف» رفيق عمره، شاكياً له من عدم قدرته على النوم اللذيذ كباقي الخلق، ولأن نواياه غير النوايا التي يضمرها حتى أقرب المحيطين به، فيقول:

البـــارحـــة الحلـــم فطّـــن عليّـــه
فـزّيـت أنـا مـن لـذّة النـوم غـافـي[١]
«خلـف » يـا مشكـاي مـا بـك شكيـه
واعلّتـي لـو هـي خفيـة . . تشـافـي[٢]
وجـــدي علـــى لابـــةٍ وقـــم ميّـــه
وإن روّح أهل الخيل ما في عوافي[٣]
عيـــال عـــم وكـــل أبـــوهـــم دنيّـــه
ولا فيهـم إللـي طـبّ قلبـه خيـافـي
نـــردهـــن لعيـــون صـــافـــي الثنيّـــه
ونخاف من حكي القفا والخلافي[٤]
أنـــا ب نيّـــه وصـــويحبلّـــي ب نيّـــه
وجدي على راعي الثمان الرهافي[٥]
أبـــو قـــرونٍ طيّـــةٍ فـــوق طيّـــه
عيـن العنـود ومـرتعـه بـالكشـافـي[٦]

---

(١) فطّن عليه : ذكّرني ، فزيت : قمت فزعاً ، أي أن الأحلام قد ذكرتني بشيء كنت أتناساه .
(٢) مخاطباً رفيقه والذي في العادة يبثه شكواه فيقول له بأنك لم تكن في يوماً ما مصدراً لشكواي ، ولكن علتي ولو كنت أحاول إخفائها إلاّ أنها ترى بالعين .
(٣) وهو هنا يتوجد على مجموعة وقم أو عدد مثة كلهم لابة له أي إخوة أشقاء أو أبناء عم ، وليس بهم الجبان ومن بقلبه خوف إذا أقبل أهل الخيل من الأعداء .
(٤) ونرد الخيول المقبلة وذلك من أجل عيون نسائنا ذوات الأسنان الصافية ، وكذلك خوفاً وخجلاً مما يحكى بنا عند الآخرين إن نحن هزمنا .
(٥) أي انني في شغل شاغل بنوايا أتطلع لتحقيقها ومعشوقتي ذات الثمان «ما يظهر من أسنان» الجميلة في دقتها لم تعذرني بانشغالي عنها ، وهي معذورة بهذا فلها مني الوجد والعطف والرحمة .
(٦) وهو يبدأ هنا بوصف معشوقته فيقول : بأن شعرها مجدول مطوي طيات تلف بعضها ، وعيونها كعيون العنود «الغزال» التي ترتع وترعى في الأرض المكشوفة الواسعة والمعشبة .

أمس الضحى صار المفارق عليّه
ولا شفتها في لابسات الغدافي[١]

وفي حادثة أخرى غادر مجموعة من رجاله نزل القبيلة، لعزمهم الاشتراك ببعض الأغنام هم وبعض الأكراد وأهل الأرياف، فلما علم الشيخ سلطان بمغادرتهم ونيتهم تلك، ثارت ثائرته وغضب غضباً شديداً لقناعته بأن رعي الأغنام هو بداية النهاية للبدوي الأصيل، لكونها تحرم صاحبها من الضعنة البعيدة مع قومه، فالبدوي يأنف من ذلك ويفضل الإبل عليها، لذلك كان البدو الصرحاء ينظرون للشوايا «مربي الشياه» نظرة ازدراء.

وقد عبّر الشيخ سلطان عن غضبه قائلاً:

يا راكب اللي عدّها رف شيهان[٢]
عمليةٍ تزهى الرسن بالشدادي[٣]
مقيظها «النقره» مغاريب «حوران»
ومرباعها يمّ القرى بالحمادي[٤]
تشدي ظليم بناعم الريش طربان
منذار من حزمٍ بدابه سوادي[٥]

---

(١) وهي من فرط زعلها لم تخرج لتوديعي ضحى الأمس كباقي نساء القبيلة عندما عزمت على الرحيل ومعي الفرسان.

(٢) أي: أيها المرسول الراكب على الناقة التي كأن لها جناحاً صقر الشيهان.

(٣) عملية نجيبة تتزين برسنها على الشداد المشدود على سنامها.

(٤) وهي ناقة سمينة صحيحة البدن فقد قاضت وصيفت في الصيف وربّعت بالربيع بأفضل الأماكن وهي: نقرة الشام وحوران للقيض، وفي الربيع حول قرى الحماد.

(٥) كما أنها في سرعتها تشبه الظليم «وهو ذكر النعام» مسرع في ركضه طرباً بريشه الناعم وهارباً من حزم «مرتفع» بدا له فيه سواد «خيال إنسان».

حـرٍ شـراري مـن سـلايـل وضيحـان
منـوة مطـاريـش الـديـار البعـادي[١]
يا رِسل وصلّها مواريث «. . .»[٢]
وسلـمّ عليـه وخبّـره بـالـوكـادي
وصـل كـلامٍ مـن مـواريـث كنعـان
أمـرّ مـن ضـرب السيـوف الهنـادي
كـلام يـودع ميـت القلـب حيّـان
يا خبول ممشاكم على غير قادي
تعد روحك من هل العرف والشان
يـوم اللـوازم مـا ذكـر بـك سـدادي
هفيتـوا يـا «. . . .» وحظكـم فـان
يـومٍ غـديتـو مثـل عمـى الـزنـادي
يـامـا بنـا مـرتـاح وتنـام جـذلان
ومـن عقبنـا تكـوحـوا بـالسمـادي
«. . .» و «. . .» والشفيّـــه «. . .»
الكـل منهـم عنـد «الاكـراد» بـادي
مـوازنـات رطـالهـم شغـل علـوان
مطـرب علـى رطـل المعلّـق وزادي
هويدي وتحيا طابقوا راي علوان
صـوّت لهـم يـا «لهـد» بـالفقـر نـادي

---

(١) أي أنها من أفضل السلالات «وقد اشتهرت السلالات العمانية والشرارية في البادية» ويتمناها من ينوي المسير للديار البعيدة.

(٢) «وهنا بعض الأسماء التي آثرنا إخفائها».

من خشم الزبيدي لام صنبوع للخان
تلقى مشدّق وعمريها للنجادي
ليا جيت الرحيّبه معزبّك دار زيدان
مسباك من جب الصخر للرمادي
العز ما هو بالغنم عبس الألوان
العز فوق معسكرات النجادي[١]
أنا نهضت بلابةٍ تقل عقبان
نسقي العدا كاسات مرّ النكادي
من باعنا بالرخص بعناه خسران
ولا حنا بحال قرّيبين المعادي[٢]

ولما بلغت هذه القصيدة للشاعر المشهور «محمد الدسم السبيعي» من عنزة، وكان صديقاً وفياً للشيخ سلطان الطيار، تأثر من هذه القصيدة فتجاوب معه قائلاً:

يا راكب من فوق أميات الأرسان
شهب الغوارب كاملات الطبوعي[٣]
حمرٍ وسمر متحالفاتٍ بالألوان
وإن أصبحن يمسن على غير نوعي[٤]

---

(١) يقول مقرعاً ومعاتباً إنكم قد ارتكبتم خطأ كبير ومن قادكم لهذا ليس لديه من الحكمة شيء فالعز ليس بالأغنام التي ستمنعكم من المسير مع قبائلكم لعدم قدرتها على الضعنة البعيدة، ولكن العز فوق ظهور الخيل والإبل.

(٢) يقول بأنني قد نهضت بسواكم من الجماعة الذين هم كالعقبان وبهم سأسقي الأعداء كاسات النكد المرة، ومن باعني بالثمن القليل سأبيعه بالخسارة ولن أكترث بعداوة من كان قريباً مثلكم وأبعد نفسه وتخلى عني.

(٣) أميات: أمهات، أي أيها المرسول الراكب على ناقتين تتبادلهما في رحلتك حتى تصل سريعاً ذوات الغوارب الشهب والطباع الجميلة الكاملة.

(٤) وذلك من جمال ألوانهن أنك تراهن بلون صباحاً وتكاد تراهن بلون آخر إذا أمسى الليل.

مـدّن مـن الجـو مـن عقـب مقطـان
وجـالـن بفيّـات الغضـا والقشـوعـي[١]
مـدّن مـع البيـدا كمـا جـول غـزلان
والا النعـايـم كنّهـن بـالـرتـوعـي[٢]
مـدّن وشـافـن المبنـدق لهـن بـان
وخطملهـن مـع خـايـعٍ بـالفـروعـي[٣]
يحـدونهـا ركـابـة الهجـن غلمـان
عجلين ما ياخذ عوضهم سبوعي[٤]
مـدّن مـن «البشـري» حيـل وسمـان
وكتّن على «النقره» ملمّ النجوعي[٥]
ديرة «ضنا مسلم» مغاريب حوران
مقـايـضٍ تسـوى البكـى والـدمـوعـي
يلفـن مقـرّ الصيـرم الحـر «سلطـان»
جـــزّاع نـــزّاع مـــزوعٍ بتـــوعـــي[٦]

---

(١) وهن ينطلقن من الجو وهو الماء أو المورد ثم يجلن حول العشب قبل أن يمددن وينطلقن.

(٢) الجول أو الجميلة: بلهجة البادية هي القطيع من الغزلان أو السرب من الطيور في حالة الجول، أي أنهن إنطلقن كالغزلان أو كالنعام الراتع.

(٣) المبندق: الصياد الذي يحمل البندق. والمقصود أنهن كالغزلان أو النعام الذي فر مذعوراً من الصياد الذي خطم لهن أو ظهر لهن من الفروع أو الوديان، وذلك كناية عن السرعة.

(٤) يسوق الركائب غلمان وفتية نشيطين ولا يتأخرون عن إسبوع في إيصاله الرسالة.

(٥) البشرى: منطقة بين تدمر ودير الزور وهي منطقة الشاعر المرسل للرسالة، والنقرة: هي نقرة الشام وهي منطقة المرسل إليه القصيدة، وهي ملم ومكان إجتماع النجوع والقبائل من ضنا مسلم ومنهم ولد علي قبائل الشيخ سلطان.

(٦) وعلى هذه الركائب أن تصل إلى الشيخ سلطان في مقره والذي به عيب وعذروب واحد وهو أنه يصر على أن يكون الحق كالميزان والأمور مثالية ولا يرضى أن يخطىء أحد بحقه. وهذا من الشاعر نوع من العزاء اللطيف والعتاب المغلف برغبة الشاعر من الشيخ سلطان أن يساير الأمور ويتروى ويصبر.

أظنـه مثـل آهلـه طلقيـن الإيمـان
أو زايـدٍ عنهـم ثـلاثيـن بـوعـي
عـذروبـه إنـه يبغـي الحـق ميـزان
وإنـه علـى حقّـه زعـولٍ جـزوعـي

وفي تلك الأثناء، كان هناك في «مكّة المكرّمة» حركة دائبة ونشطة، فقد كان الشريف حسين حاكم مكة يعدّ العدّة للثورة العربية الكبرى على تركيا، ويحشد لهذا الأمر القوات ويتلقى الامدادات، ويراسل القبائل، وكان الشيخ سلطان بن سطام الطيار قد تلقى طلب العون من الشريف فيصل، فجاء هذا وكأنه غاية ما حلم به سلطان الطيار وترجّاه، فنراه يسارع بالمسير بمن معه من الرجال الذين جاروه في طموحاته وتطلعاته. وهاهو يختط لنفسه خطّاً لم يألفه من قبل. ليجد نفسه من دون سابق نيّة أو ترتيب في قلب الحدث السياسي للمنطقة العربية في مشرقها.

وليصبح أحد المشاركين في حركة جهادية تحريرية، عاقداً آماله على هذه الثورة كما عقد الكثيرون آمالهم عليها «وذلك قبل أن يُصدم الجميع بإتفاقية سايكس بيكو وما آلت إليه الأمور من نتائج أقحمت سلطان الطيار في معركة جهادية أخرى سنلقي عليها الضوء لاحقاً».

سار سلطان الطيار برجاله إلى مكة المكرمة، وكان لابدّ له بطبيعة الحال أثناء رحلته من الإقامة لعدة أيام عند القسم الآخر من أبناء قبيلته ولد علي ممن هم لايزالون في أطراف نجد والحجاز، اللذين احتفوا بمقدمه، وعلى رأسهم أبناء عمومته «الأيدا» و «المنصور من الطيار»، وسار معه لدى مسيره عدد من فرسانهم الشباب. حيث وصل الجميع إلى مكة المكرمة وسط ترحيب الشريف حسين وأبنائه بمقدم سلطان الطيار ومن معه من المقاتلين، وأطلقت أول رصاصة في الثورة العربية

بحضور الشيخ سلطان الطيار.

وسار فيصل بن الحسين في جيوشه شمالاً، وسلطان الطيار في كتيبة فرسانه. وجرى العديد من الأحداث أثناء مسير جيش الثورة دونت في الكتب التي أرّخت لتلك الثورة وليس هنا مجال الحديث عنها، أما الشيخ سلطان فقد تقدم برجاله شمالاً إلى بلاد الشام كطلائع لمشاغلة الأتراك أثناء انسحابهم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشيخ سلطان الطيار ورجال عنزة كان لهم اليد الطولى في اقتحام دمشق قبل أن تصل إليها قوات «الجنرال اللنبي» الإنجليزية، مجنبينها ومن فيها من مدنيين القصف المدفعي من تلك القوات حيث كان ينوي قصفها ذلك الجنرال إن نصل إليها قبل أن تنسحب منها القوات التركية. وكان يتقدم سريعاً باتجاهها قبل أن تصل إليها قوات الثوار العرب لاحتلالها وفرض الواقع المبيّت.

ويحدثنا عن ذلك المستشرق الروسي «فاسيلييف» حيث يقول: «في ٣٠ سبتمبر ١٩١٨م دخلت جماعة من المحاربين من قبيلة عنزة إلى دمشق، وجالت في ساحاتها الرئيسية حاملة العلم العربي.. وبعد يوم كامل دخلت وحدات (اللنبي) الإنجليزية المدينة، وصار فيصل ملكاً مؤقتاً لسورية حيث تشكلّت حكومة عربية. ولكن الفرنسيين طردوا فيصلاً من دمشق بعد عامين، وأغرقوا الحركة التحريرية لعرب سوريا بالدماء»[1].

نعم.. لقد سقط الجميع ضحية مؤامرة «سايكس بيكو» الدنيئة وهي المعاهدة الخاصة بتقسيم الأقطار العربية، والتي كشفت عنها روسيا السوفيتية «لتعارضها مع مصالحها» بعد الثورة على قياصرة روسيا. فأصبحت سوريا ولبنان من نصيب فرنسا، واقعة تحت نير الاستعمار الفرنسي.

---

(١) فاسيلييف «تاريخ السعودية»، موسكو: دار التقدم ١٩٨٦م، ص ٢٩١.

إلاّ أن فيصل بن الحسين خرج من سورياً، ملكاً على العراق، ورفض الشيخ سلطان الطيار الخروج مع فيصل. وعاهد ربه ثم نفسه على أن يستمر في خوض معركة الجهاد حتى النهاية.

وبدأ بتشكيل قوات خاصة به ممن التحق به من أبناء قبائل عنزة عامة، وأبناء المناطق السورية من القلمون وحوران وأرياف دمشق، وأعلن نفسه مجاهداً، ونادى بالجهاد «قبل اندلاع الثورة بزمن طويل».

وبدأت مرحلة جديدة من حياة هذا الشاب الذي كانت تتوق نفسه للنصر أو الشهادة، وضرب أروع الأمثال في الصمود.

وكانت له اتصالاته بالفجر البازغ في «الرياض»، «عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود». والذي كان بدوره يبارك كل الحركات الجهادية والتوحيدية في الوطن العربي.

وكانت المخابرات الفرنسية وأعوانها يجدون في مطاردته وطلبه من مكان إلى آخر، بعد أن نجح في الإيقاع بالمئات من رجال القوات الفرنسية في العديد من المعارك.

وكان الفرنسيون من القسوة والوحشية بحيث ارتكبوا العديد من الاعتداءات بحق قبائل ولد علي انتقاماً من سلطان، ففي إحدى الحوادث التي يرويها كبار السن، يروى أن نزول قبائل وِلد علي في ذلك الحين كانت تنتشر في مناطق واسعة في الحجاز وشمال نجد والبلقاء حتى جنوب دمشق وغربها، وكانت المخابرات الفرنسية وجواسيسها من العملاء يتتبعون تحركات الشيخ سلطان في مضارب ونزل وِلد علي أو في قرى القلمون ومناطق اللجاة، فنمت المعلومات على الشيخ سلطان ورجاله ومعهم زعماء الحركة الجهادية، ومنهم شكري القوّتلي وسلطان باشا

الأطرش وسواهم متواجدون في أحد نزول وِلد علي في البادية شرقي دمشق.[١]

عند ذاك قامت القوات الفرنسية بمحاصرة النزل «ومعلوم ما في ذلك من صعوبة على القوات النظامية لانتشار خيام النزل على مساحة واسعة جداً»، وطالب الضباط الفرنسيون باستسلام الشيخ سلطان ومن معه، وقوبل ذلك الطلب بالرفض فانطلقت القذائف النارية من كل جهة باتجاه بيوت الشعر ومن فيها من رجال ونساء وأطفال.

وأبدى المدافعون إستبسالاً عظيماً في مقاومتهم وتمترسوا خلف أكوام الخيام التي أنزلت النساء عمدانها حتى لا تطالها النيران، واستمر القتال حتى قاربت الشمس على المغيب، فانسحبت المجموعات الفرنسية التي تحمل الأسلحة الخفيفة إلى الخلف.

غير أن التسليح الفرنسي كان يفوق تسليح أبناء البادية، وكان هناك موقع مرتفع وضع فيه الفرنسيون مدفعاً من عيارٍ ثقيل لا تطال الرامي عليه العيارات النارية للمقاومين وقد أحدثت قذائفه خسائر كبيرة للمقاومين، وخلفه كان موقع تجمّع الجنود الذي انسحبوا لإعادة تنظيم صفوفهم.

وقد تصرفٍ بطولي لايزال كبار السن يذكرونه، قرر الشيخ سلطان احتلال ذلك الموقع أو الاستشهاد دونه، فذلك الموقع أصبح محور الهزيمة أو النصر، وحاول رجاله إثناءه عن عزمه لخطورة ذلك واستحالته، إلاّ أنه أصرّ على أن يتصدى لذلك بنفسه قائلاً: «أنا بعين الله وعليهم من الله عون». ثم اعتلى صهوة فرسه ولفّ عباءته على ساعده وحجب عينيه

---

(١) يذكر أن زعماء الثورة السورية ومنهم سلطان باشا الأطرش وشكري القوتلي وآخرون أمضوا ما يزيد عن ستة أشهر لدى الشيخ سلطان الطيار وقبائل ولد علي وكانت بعض عمليات الثورة تدار من هناك.

بها حتى لا يرى ما يكون أمامه من ردّ فعل فيؤدي ذلك إلى أن يرهب فيحجم عن عزمه، وصاح بصوته «الله أكبر» وإنطلق كالبرق باتجاه الموقع، وارتفعت أصوات رجاله بالتكبير والتهليل، وإنطلقت الزغاريد من حناجر النساء وهن يراقبن المنظر.

لقد كانت لحظات في وعي الزمن.. ولكنها في وعي الحشدين المتقابلين لحظات تفصل بين الحياة والموت، بكل ما يحمله ذلك من معانٍ تمتد لتشمل من هم خلف الفارس المنطلق ومن هم أمامه، فنجاته وحياته تعني الحياة والنصر لمن هم خلفه والموت والهزيمة لمن أمامه، وسقوطه يعني الموت والهزيمة لمن خلفه والحياة والنصر لمن أمامه.

ومرّت اللحظات.. والرصاص ينهمر من الجانبين، وهو يتقدم عاصباً عينيه.. وفرسه تضرب بحوافرها أرضاً صبغتها الشمس الغاربة بلونٍ قانٍ كلون الدماء المسفوحة على الرمال.. وكا الجميع يراقب وينتظر مصيره الذي ارتبط بمصير هذا الفارس المستقتل.

وبعون من الله وإرادته وحده سبحانه، تمكن الشيخ سلطان من الوصول إلى المرتفع المنشود، فأطلق رصاصة الحياة لمن خلفه والتي كانت رصاصة الموت لرامي المدفع، وتمكن من قتله ثم دفع سنّادات المدفع ليهوي من المرتفع إلى السفح.

عند ذاك ارتفعت معنويات المدافعين فانطلق الجميع على خيولهم مكبّرين ومهللين، وهاجموا القوات المتحصنة خلف المرتفع والتي ولّت منهزمة يتعقبها الأبطال من فرسان وِلد علي ورجال الثورة، وغنم الشيخ سلطان ورجاله كمية أسلحة كبيرة من فلول الفرنسيين.

وحين عاد الجميع عقب مغيب الشمس إلى النزل، لم يتمكن الشيخ

سلطان من الترجل عن ظهر فرسه، فاكتشف رجاله أنه مصاب بعدد من الطلقات النارية. . وقد التصقت ساقه وفخذه بظهر الفرس بفعل الدم المتجمد، وانشغل رجاله بمحاولة تخليص قدمه حتى تمكنوا من ذلك.

إلاّ أن القوات الفرنسية أبت إلاّ أن تظفر بالشيخ سلطان ورجاله، فبعد حين أعادت القوات الفرنسية حصارها للنزل، ولكنها في هذه المرة مدعومة بالطائرات التي أخذت بالتحليق فوق خيام النزل، وهدد الفرنسيون بقصفها بمن فيها من النساء والأطفال، إن لم يسلم لهم نفسه، فما كان منه إلاّ أن سلّم نفسه حفاظاً على أرواح الأبرياء من النساء والأطفال.

وكان ذلك في نظر الفرنسيين نصراً كبيراً لقواتهم. . إذ ظفرت بأحد أهم المناهضين لوجودها ومعه مجموعة من رجاله، وبدأت تعد العدة لإعدامه من خلال محاكمة صورية كما هو معتاد في تلك الأيام.

وأودع مع من قبض عليه من رجاله في سجن «القلعة» بدمشق انتظاراً لتنفيذ الحكم به. ووضع في زنزانة علوية بعيدة ومطلّة على ساحة الإعدام إمعاناً في القسوة والتعذيب، فقد كان الشيخ سلطان «بحسب رواياته» يرى بعينه عمليات الإعدام من نافذة زنزانته والتي كان بعضها يتم عن طريق إطلاق الكلاب المسعورة على المعتقل. وفعلاً بدأ الأمر وكأنه نهاية مبكّرة لسيرة هذا المجاهد البطل.

وقد سنحت له في غفلة من الجميع فرصة للهرب يرويها بلسانه فيقول:

كان أحد المكلفين بحراستي حراسة شخصية، ضابطاً من أبناء «القلمون»، وكان يكنّ لي حبّاً كبيراً ويظهر لي دائماً احتراماً عظيماً. وفي إحدى المرات كان هو المسؤول الأول عن القلعة، إذ لم يكن متواجداً مسؤلوا السجن من الفرنسيين أو غيرهم في ذلك اليوم إذ كان الجميع

مشغولين بأمر هام. فأتى إلي في زنزانتي وأخرجني إلى حيث مكتبه القريب من بوابة سجن القلعة، ثم قال لي: شيخ سلطان.. ما رأيك لو أحضر لك بعض المأكولات من أحد المطاعم القربية..

فقلت له: لا مانع لدي.

فقام من فوره، وخرج دون أن يقفل الباب، حياء منه أن يوصد الباب عليّ.

وعند ذلك وجدت نفسي وقد دفعت الباب بقدمي وخرجت إلى ساحة القلعة، وخطوت بهدوء عدة خطوات إلى جوار السور، حتى وصلت إلى بوابة القلعة القريبة، متوقعاً وجود حراسة شديدة عليها، وفوجئت بأن الحراس مشغولون عن البوابة، في حين كانت الساحة الموجودة خارج القلعة تعجّ بالمارة والباعة والمتجولين.. ومرة أخرى وجدت نفسي أخطو إلى خارج البوابة مختفياً في زحمة السابلة دون أن يلاحظني أحد غير مصدّق بأن الأمر قد تم بهذه البساطة.. بل إنني أخذت أتلفت خلفي متسائلاً إن كان الأمر مدّبراً.. إلاّ أن الأمر لم يكن كذلك.

فقد أوقفت إحدى العربات اليت تجرها البغال، وطلبت من صاحبها أن يقلّني معه لقاء أي ثمن يطلبه.. ووثبت فيها غير منتظر لرده، طالباً منه أن يتوجه إلى منطقة غابات الغوطة المجاورة لدمشق حيث بعض رجالي.. وبعد أن ابتعدنا لمسافة طويلة، قفزت إلى ذهني صورة ذلك الحارس المسكين.. والذي كانت ثقته بي فوق العادة، وحبه لي وحياؤه مني منقطع النظير.. ماذا ترى ستكون حاله وهو صاحب العيال والأسرة الكبيرة التي أعرفها فرداً فرداً من خلال أحاديثه لي عنهم وهو يحاول أن يسرّي عني وحدتي في وحشة السجن وظلمته..

وماذا سيحل به إن اكتشف مسؤولوا السجن من الفرنسيين غيابي

وهربي . وماذا سيحل بتلك الأسرة بعده بسببي . ثم ماذا سيحل برفاقي المسجونين معي . .

عند ذاك صحت بصاحب العربة وطلبت منه العودة إلى حيث أقلّني .

ثم ترجلّت من العربة متخفياً بزحمة المارة . . راجياً من الله أن أتمكن من الدخول كما خرجت دون أن يلحظني أحد، وألاّ يكون ذلك الحارس البائس قد عاد من السوق .

وفعلاً دلفت بخفّة إلى أن استقر بي المقام في مكاني الذي عهدني الرجل به . . وما هي إلاّ لحظات حتى جاءني صوته قائلاً : أرجو ألاّ أكون قد تأّخرت عليك . .

فتبّسمت قائلاً : لا . . فقد جئت في وقتك .

تلك هي المروءة والشهامة المتأصلة في نفسٍ أبيّة شجاعة . . وهذه قصة من أندر قصص المروءة، التي تحمل في طيّاتها الكثير من المعاني التي يندر وجودها إلاّ في نفسٍ جبلت وفطرت على المروءة، كما رضعتها حتى ارتوت من معينٍ نبيل وأصل رفيع .

***

وقد جرت بعد هذه الواقعة، عملياتٌ ومحاولاتٌ عديدةٌ لتهريبه ورجاله من سجن «القلعة» من قبل بعض رجال الثورة وضباط السجن . . ومما يذكر في هذا المجال تلك المحاولات التي فصّلها الدكتور «محيى الدين السفرجلاني» في كتابه «تاريخ الثورة السورية» بشكل دقيق، وسنقتطف منه الفقرات التالية، حيث يقول عن تلك المحاولات :

«فيما نسوقه للقارئ اللبيب من حادث جلل، وقع في قلعة دمشق، يتخيل له هو الموقف، ومبلغ الجرأة التي قام بها ممثل دور الوطنية الشريف،

على مسرح الوظيفة بكل جأشٍ رابط، وبكل حزم وعزم شديدين، زكريا الداغستاني أحد موظفي السجن في قلعة دمشق كمعاون لمدير السجون في نفس القلعة الواقعة بمنتصف دمشق.

وتفصيل الحادث هو أن السلطة أتت ببعض المعتقلين من زعماء الثورة متسلمة إياهم من حكومة الشرق العربي وهم «سلطان الطيار» شيخ عرب ولد علي، و «ضيف الله الصالح» و «سالم العبد» و «محمود النعيمي»، و «أبو يحيى الديراني»، وغيرهم ممن كان يشار إليهم بالبنان بالشدة والبأس، وكان هؤلاء البواسل يحطون الرحال في أراضي «شرقي الأردن» تارة وفي أراضي «اللجاة» تارة أخرى، وكانوا يدهمون التخوم السورية وحدودها من حينٍ لآخر فيشغلون القوى الفرنسية ويقلقون راحتها من وقت إلى وقت.

وقد كانت السلطة الفرنسية «قبل ذلك» قد قبضت على الشيخ مصطفى الخليلي وأودعته السجن الفرنسي في قلعة دمشق انتظاراً لحكم القضاء العسكري..

○ المحاولة الأولى:

كان الداغستاني «معاون مدير السجون» على صلةٍ قريبةٍ، بكل من الضابطين الباسلين عبدالوهاب باشا، والشهيد إبراهيم صدقي منذ أيام الجيش الفيصلي، فتحدثوا جميعاً بشأن الطيار والخليلي ورجالهما ووجوب انقاذهم من السجن حتى لا يعدموا ويكونوا أعضاء أشلاء، في وقت أشد ما تكون الثورة أحوج إليهم فيه. لاسيما وأن من الواجب إنقاذهم لما كان يسمع عن إزماع السلطة الحكم عليهم بالإعدام.

تابع هؤلاء الأشاوس الثلاثة اجتماعهم بنظام تهيئة الخطط وإعداد

الوسائل التي تفضي بالنتيجة لتمهيد سبيل الهرب بوجه الأبطال المعتقلين.

وبعد الدرس الدقيق أجمع الرأي على منهاجٍ لو استطاعوا إنفاذ أحكامه، لتحورت الثورة من وضع إلى وضع، ولكانتْ في اللجاة والصفاة حركات ترمي إلى تحرير البلاد بالنتيجة قبل اندلاع نار الثورة السورية بزمن، والذي أفسد تطبيق هذه الخطة عن الإصابة، قلة عدد الذين كان اشتراكهم في العمل واجباً من ناحية، ونقصان الوسائل المقتضية من ناحية ثانية مما دعاهم لتأجيل تنفيذ ذلك إلى وقت أكثر ملاءمة.

○ المحاولة الثانية:

ثم اندلعت الثورة السورية، وحيث كان الشيخ سلطان الطيار والخليلي ورجالهما شأن يذكر في كل الأوساط الوطنية، لهذا التأم عقد اجتماع في دار الوطني الكبير «أحمد القضماني»، وكان في جملة حاضريه المجاهدان الكبيران «شفيق عمر باشا» و «عبدالقادر آغا سكر» وقد تألّف هذا الجمع لمباحثه معاون مدير السجون «الداغستاني» بأمر هذين الرجلين الشيخ سلطان الطيار والخليلي، وتهيئة العّدة لإنقاذهما مع رجالهما.

فارتأى الداغستاني أن يرتدي عشرة من الأخوة الذين يعتمد عليهم ثياب الدرك، وعلى بدلة واحد منهم شارة العريف، وأن يأتي هؤلاء الأخوة إلى القلعة في وقت يحدده لهم، من بعد أن يكون قد سلم هذا العريف كتاباً رسمياً من نائب الجمهورية يتضمن طلب سلطان الطيار ورجاله لحضور المحاكمة، وتكون السيارات المعدّة لنقلهم جاهزة أمام باب القلعة. حتى إذا ما نفذ ذلك التحق بهم الداغستاني مغادراً وظيفته.

وانفاذاً لهذه الخطة فقد أُتفق مع أحد الخياطين على صنع اللباس المشار إليه، كما تم تهيئة مذكّرة نائب الجمهورية موقعة بصورة رسمية، وخطاباً

لمدير السجون بتسليم سلطان الطيار لرجال الدرك ليصير مثولهم أمام المحكمة.

وبينما كان الداغستاني يقوم بذلك، كان المجاهد «شفيق عمر باشا» يهيء الرجال الذين تم الاتفاق على دورهم.

وكان الاجتماع يتوالى بين حين وآخر في منزل «القضماني» إلى أن فوجئوا بتعقب السلطة لعبدالقادر آغا، وعندها لم يجد هذا المجاهد بدّاً من الالتحاق في الثورة «خارج دمشق» فكان شأنه شأن الشهيد «شفيق باشا» إذ لبّى داعي الوطن لما رآه من تشديد السلطة وإرهاقها إياه بالطلب، ولهذا فشلت المحاولة الثانية، وبُدئ التفكير بوسيلة أخرى.

○ المحاولة الثالثة:

وبعد أن حمي وطيس الثورة عقيب تدمير السلطة الفرنسية بعض الأحياء بدمشق لدخول الثائرين إليها، وبعد أن باتت عاصمة الأمويين تحت متناول القنابل وهدفاً لمدافع الجيش. وبينما كان نطاق الثورة آخذاً بالاتساع بتراخي الزمن. زار أحد زعماء الأكراد المرحوم «أحمد الملاّ» السيد الداغستاني، وأطلعه على ما عوّل عليه من الالتحاق بالثورة، وأنه جاء لاستطلاع رأيه في مهاجمة القلعة واحتلالها وأسر الضباط الفرنسيين المرابطين فيها مع عائلاتهم، وتحرير الثوار المعتقلين.

وعد إعمال الروية وبحث الوضع على ضوء الحكمة والتعقّل تم الإتفاق على ما يلي:

أولاً: يلتحق الملاّ بالثوار وأن يهّيء منهم خمسين رجلاً مدججين بالسلاح الذي يجب أن لا يتجاوز مسدساً وخنجراً وقنبلتين يدويتين لكلٍّ منهم، وأن يؤتى بهم إلى العاصمة مترقبين ساعة دخول الآهلين

لزيارة أقاربهم مسجوني دمشق، فيدخلون حاملين الطعام كأن لهم أقارب سجناء، وعندها يندسون بين الطوايا بحيث لا تقع عليهم عين إنسان.

ثانياً: يتوزع هؤلاء الرجال على المراكز العسكرية المعود إليها بحراسة الأبراج، ويترقب كلٌ منهم الإشارة الرامية إلى الهجوم والمداهمة. وعندها ينقض كلٌ منهم على الخفراء لتجريد كلٍّ منهم من عتاده واتّخاذ مركزه.

ثالثاً: يكون العدد الوفير من السجناء في باحة السجن العامة على أهبة الاستعداد للهجوم على مدخل السجن، والنزوح عنه بيسر ولين، فلا تكون وجهتهم غير متقلدي المفاتيح من الخفراء، ويكون نصيب هؤلاء الخفراء نصيب غيرهم عند مداهمة الثائرين لهم.

رابعاً: كل هذا ومئات الثائرين على مقربة من مداخل دمشق منبثّة في بساتين أحيائها وحدائقها مترقبة سماع أصوات الرصاص حتى تهرع للحمل والهجوم على القلعة بهجوم مباغت عنيف، وهنالك يتم الاستيلاء على المعدات والذخائر.

هذا ما أتفق عليه الداغستاني والملاّ، وما تعاهدا على إنفاذه. فسعى الملاّ لإنفاذ تلك الخطة وهيأ الرجال ممن كان يثق بهم ويعتمد عليهم، وكان يجتمع بالداغستاني في الحدائق القريبة من دمشق للاطّلاع على نتيجة الجهود.

وكان في عداد الذين وقفوا على ما يبيت الملاّ والداغستاني عليه، شاب ما تورع عن اقتراف الجرائم يسمّى «ع. س»[1]، وطاردته الحكومة قبل الثورة مطاردة عنيفة إلى أن كان زمن اندلاعها في الغوطة وهنالك التحق بها، وصار أحد رجالها.[2]

---

(١) هكذا ورد في المرجع.

(٢) عندما فرّق الفقه والقانون بين الجرائم العادية والجرائم السياسية، كان على حق في ذلك لأن=

وكانت نفسية «ع . س» منحطّة سافلة تدنت إلى الجاسوسية ضد أمته ووطنه فكان عيناً للسلطة الفرنسية على الثائرين، وكان ينقل أخبار رجال الثورة الوطنية إلى رجال السلطة الفرنسية عن طريق موظف له نفوذ في الحكومة إذ ذاك هو «م . ص» بواسطة زوجته ووالدته . فوشى بنوايا المجاهد الملاّ، وبذل هو و «م . ص» غاية الجهد ليقف على شركاء الملاّ في هذه المؤامرة فلم يفلح .

ويئس من الوقوف على اسم ذلك الموظف الذي دبّر مع الملاّ تلك المؤامرة، فشرع يبذل كل جهد لمعرفة ما خفي عليه، وابتدر مأموري السجون بالاستدراج لمعرفة ما هو بمسيس الحجة للاطلاع عليه فلم يفلح وعندما لم يبقَ من موظفي السجون إلاّ الداغستاني فقط، فإنه رمى إلى خديعته والوقوف منه على مخبأة ضميره بكلمات وجهها إليه يستفز بها حماسه ووطنيته، ويزين له أن يخدم الوطن عن طريق تهريب من عرف بالشجاعة من السجناء «مثل الشيخ سلطان الطيار ورجاله» لينصرفوا إلى الجهاد في ميدان الشرف، وتظاهر أمام الداغستاني بأنه من وطنيي الشعب ومخلصي الأمة .

ولم يكن تاريخ «م . ص» المليء بموالاة الفرنسيين وممالئتهم خافٍ على تبصّر الداغستاني . لذلك كان موقفه من ذلك الجبان موقف الرجل الحازم، إذ تظاهر أمامه بخدمة حكومته بإخلاص مجرداً من كل نزعة مهدداً إياه بإطلاع رجال السلطة على ما أسرّ به إليه .

فسكت «م . ص» على مضض، وأخذ يفكر بالشخص الذي اتفق مع الملاّ على تنفيذ تلك الخطة .

= نفسية المجرم العادي لا تماثل نفسية المجرم السياسي، فبينما يقترف الأول الجريمة على أساس دنيء سافل بقصد الإجرام، يقوم الآخر بالجريمة السياسية بقصد إنقاذ وتخليص أمته .

فتفتق له رأيه الخاطئ أن ذلك الرجل هو مدير شرطة دمشق «حمدي الجلاّد»، فطفق يسعى السعي الحثيث مع القائد الفرنسي «ماركيه» لإقصاء حمدي الجلاد، وإبدال الدرك السوري بدرك فرنسي، وأن يكون زمام السجون وحراستها بيد السلطة العسكرية رأساً.

وقد نجح في مسعاه، فبُدّل الدرك السوري بدركٍ فرنسي، وأُبعد حمدي الجلاد إلى جزيرة «أرواد».

لقد عطّل «م. ص» الخطّة من حيث لا يدري ولا يشعر، إذ أن التضييق والمرابطة على السجناء «الشيخ سلطان ورجاله» قد أصبح شديداً وبدرجة باتت معها المساعي عسيرة مخيفة، لذلك تحرى الداغستاني الوسيلة للاجتماع بالملاّ في إحدى حدائق دمشق مطلعاً إياه على ما كان، وعلى تعذّر مباغتة القلعة بعد اليوم.

فاتفقا على أن يترقب الداغستاني الفرص علّه يتمكّن من إنقاذ الشيخ سلطان الطيار والخليلي ورجالهم، وهكذا فشلت المحاولة الثالثة.

○ المحاولة الرابعة:

كان «صفوّح المؤيد» هو مدير السجون إذ ذاك، وكان بحاجة للتغيب عن دمشق إلى لبنان لقضاء بعض المهام. ولم يكن لديه من يعتمد عليه لإسناد وكالة المديرية إليه إلاّ معاونه «الداغستاني».

وبذا باتت مديرية السجون بالوكالة بعهدة السيد الداغستاني. وصار بإمكانه أن يفكّر فيما يستطيع أن يقربّ منه مناه، وأن لا يدع هذه الفرصة السانحة تفلت من بين يديه، وهي التي إن لم يغتنمها لن يفلح بنظيرتها أصلاً «ولما كان التضييق على الشيخ سلطان الطيار شديداً» ثم أن الفرنسيين قد قاموا بتطويق الغوطة، فقد تراءى إليه أن يسعى وراء إنقاذ الخليلي

وباقي الرجال بادئ ذي بدء، حتى ينبري إلى إشغال الفرنسيين في حوران بتأجيج نار الثورة فيها.

واتصل ببعض المجاهدين والثوار ليستعين بهم على تطبيق خطته.. وحدد لهم ليلة الجمعة ٥ آب ١٩٢٦م موعداً لذلك. وكانت الخطّة كالآتي:

١- إقصاء الخفراء وموظفي الإدارة إلى خارج القلعة.

٢- وجوب إبقاء الخليلي ورفاقه عقب هروبهم في إحدى الدور القريبة من القلعة.

٣- أن يتم إطلاق سراح المعتقلين في وقت لا يكون فيه أمام باب القلعة أحد من الناس، وفي ساعة يكون فيها موظفوا السجون والجنود في فترة الطعام.

٤- وجوب بقاء الداغستاني في القلعة مدة ساعاتٍ خمس، من بعد إطلاق سراح المعتقلين، وذلك تهدئة لأفكار الموظفين في السجون، فلا ينفضح الأمر، حتى يتم إيصالهم خارج دمشق فلا تغلق أبوابها ولا تشدد الرقابة على منافذها.

٥- وجوب مبارحة دمشق بعد غروب الشمس، حيث اعتادت السلطة الفرنسية أن يتولى استلام النقاط العسكرية على أبواب دمشق رجالها الفرنسيون بدلاً من رجال الدرك السوريين وهم يجهلون المعتقلين بعكس السوريين الذين يعرفونهم.[1]

وتم تنفيذ الخطة بنجاح وتم تهريب من أمكن تهريبهم من السجن وهرب معهم «الداغستاني» معاون مدير السجون والتحق بالثورة.

---

(١) د. محيى الدين السفرجلاني، «تاريخ الثورة السورية»، دار اليقظة العربية، الصفحات: ٤٤٤-٤٥٩.

وبقي الشيخ سلطان الطيار معتقلاً في القلعة وشددت الحراسات عليه، وجاء الحاكم الفرنسي «ماريكه» إلى السجن للتحقيق بنفسه بواقعة الهرب. ويروي الشيخ سلطان الطيار عن حادثة لقائه بالحاكم الفرنسي حيث يقول:

أُدخلت عليه في مكتب مدير السجن فأشار إليّ بيده قائلاً: «ويسكي.. ويسكي شيك سلطان».. ثم أشار بقارورة كانت بيده وقال لي: «ويسكي.. ويسكي شيك سلطان؟» فاستجمعت ما بفمي من ريق وبصقت عليه. فثارت ثائرته. وأخذ يصيح بالموجودين باللغة الفرنسية.

ونقل الشيخ سلطان بعد هذه الحادثة إلى زنزانة أخرى تقع في قاع القلعة أسفل الأرض بعدة أمتار، انتظار تنفيذ حكم الاعدام والذي أُستصدر سريعاً.

إلى أن سعى بعض رجال الحكومة السوريين، وبعض «القساوسة» من مسيحيي سوريا لدى السلطة الفرنسية، وأقنعوهم بأن إعدامه سيؤدي إلى تأجيج نار الثورة وامتدادها للبادية وليس العكس.

وكان للشيخ طراد الملحم شيخ «الحسنة» من عنزة، وهو من أخوال الشيخ سلطان بن سطام الطيار، دور كبير في ذلك، حيث تمّ دفع مبالغ كبيرة لقاء ذلك مع الالتزام بخروج الشيخ سلطان الطيار إلى خارج مناطق النفوذ الفرنسي في سوريا ولبنان.

وفعلاً أطلق سراح الشيخ سلطان، وتوجه إلى أبناء عشيرته مودعاً، حيث قرر العودة إلى أرض آبائه في شبه الجزيرة العربية، حيث كان الملك عبدالعزيز آل سعود يكاد ينتهي من توحيد المملكة العربية السعودية، وكانت تربطه بالملك عبدالعزيز علاقات طيبة منذ إعلان الطيار الجهاد ضد فرنسا قبل أن تندلع الثورة رسمياً في بلاد الشام بفترة..

وفي أثناء إعداده وتجهيزه لرحلته إلى الرياض عاصمة الدولة التي هي على وشك التوحيد، بلغه أن قطعاناً من الخيل والإبل والمواشي، خاصّة بالجيش الفرنسي، بالإضافة لما تم مصادرته من بعض القبائل والقرى والفلاحين، هي بالقرب من دمشق تحت عناية مجموعة من الرجال، على رأسهم رجل يقال له «العصيمي».

عند ذلك لمع في رأس الشيخ سلطان خاطر، وقرر أن يودع الحاكم الفرنسي وداعاً يليق بمقامه..

فأعدّ العدةّ لأن يغير على تلك الأنعام، وهو في طريقه إلى نجد عن طريق العراق، لأن السلطات الفرنسية قد أُحيطت علماً مسبقاً بوجهته، لذا غيّر طريقه على عكس ما ظن الفرنسيين، وكان هذا لإرباكهم إن هم فكروا بمطاردته ورجاله.

وفعلاً أغار مع رجاله على ذلك الموقع وساق كل ما وجد هناك من أنعام، وكان قد أعدّ العدةّ لتفريقها على البوادي والقرى في مناطق حوران والقلمون، حتى يقضي على جهود الفرنسيين إن هم سعوا وراءها في حال علمهم أنها لم تخرج معه.

وسار بمن معه إلى العراق حيث الملك فيصل بن الحسين، والذي اعتذر له عن عدم قدرته على استقباله لوجود اتفاقات مع الفرنسيين على عدم استقبال المطلوبين ووجوب تسليمهم، ثم توجه من هناك إلى الرياض حيث استقبله ومن معه من رجال قبيلته وغيرهم الملك عبدالعزيز يرحمه الله، استقبالاً حافلاً، وأقام خيامه بالقرب من الرياض «في منطقة لا تزال تسمّى حلّة العنوز».

وبعد حين أقبل العصيمي المذكور آنفاً شاكياً للملك عبدالعزيز رحمه الله، وحاملاً طلباً من المندوب الفرنسي في دمشق لتسليم الشيخ سلطان.

إلاّ أن الملك عبدالعزيز رفض أن يسمع بالطيار أي شكاية، فعاد الرجل دون أن يظفر بطائل.

ثم إن الملك عبدالعزيز أشار على الشيخ سلطان الطيار بالبقاء في الرياض، وأن يقطعه المنطقة التي نزل بها مع جماعته «وهي منطقة أم سليم حالياً»، إلاّ أن الشيخ سلطان طلب من الملك عبدالعزيز أن يأذن له بأن يسكن في منطقة «الجوف»، حيث كان يملك بيتاً ومزارع نخيل، كما أن بعض أفراد قبيلته من ولد علي ينزلون هناك، فأذن له يرحمه الله بذلك.

ثم سار الشيخ سلطان الطيار إلى الجوف ونزل هناك، حيث أستقبل استقبالاً حافلاً من قبل أهالي الجوف بادية وحاضرة، ومما قيل من شعر احتفاءً بمقدمه ومن معه، نورد هنا قصيدة شاعر الجوف الشهير «دابس المرخان» والتي جاء منها:

حـرٍ شهـل مـن راس رجـم عسيـري
أشقـر نـداوي مخلبـه تقـل منشـار
ينفض بسبق الريش باغي يطيري
ما بين «قاره» و «الدعي» حار واحتار[1]
نـزرٍ زمـق حلحيـل نـابـه خطيـري
فرخ القطامي من صماصيم «طيّار»
عاف التخت والنوم فوق السريري
والسينمـا والعـود ببـلاد الأمصـار
سلطـان ابـو نـواف لضيفـه عشيـري
ريف الضعيف إنكان غليت الاسعار

(١) قاره: منطقة بالجوف، والدعي: بئر الشيخ سلطان في الجوف.

ألين من الماهود لبّ الحريري
واحمي من الماص المكهرب على النار
مـرٍ حلـو مـا بيـن شـرٍ وخيـري
لا كـدر الصـافـي وولـد الـردي بـار

ثم إنه استقرّ هناك وهو لاتزال تعتمل في نفسه كثير من المشاعر، والرغبة في مواصلة رحلة جهاده التي لا يرضى بأن تنتهي على هذا النحو، فهدفها لم يتحقق بعد، إضافة إلى أنه لم يعتد على السكن داخل أسوار، وهو البدوي ربيب البادية الذي اعتاد على رؤية بيوت الشعر تمتد بامتداد الأفق، متلحفاً السماء، مستنشقاً نسائم الصحراء وهي تهامسه صباحاً، عابقةً بعطور الخزامي والنوّار والأقحوان. فنجده بحنينٍ صادق يتذكّر كل ذلك، ثم يتنبّه إلى بعد المسافة عن تلك المرابع التي ارتبطت ذاكرته بها، فيقول:

لي صاحبٍ دونه ثمانين شدّه ... وما ياصله إلاّ البكار المرابيع
الصاحب إللي لو حكولي بسدّه ... ولو هزلولي باريش العين ما طيع
ما انساه كود الناس تنسى المودّه ... والشمس تنسى مطلع الصبح وتْضيْع
وما انساه كود الجيش تنسى الأشدّه ... وحتى العيال يحرّمون المفازيع

وزاده شغفاً وحنيناً إلى زوجُته القريبةُ إلى نفسه «فضّه بنت نواف الشعلان» والتي كانت تحثه دائماً على أن يضرب في أعماق الصحراء كما عوّدها وهي تحن إلى رؤية «الأسلاف والمظاهير».[1]

وقد تحاور معها في مساجلةٍ شعريةٍ جميلة حول هذا الأمر، مصبّراً إياها، وممنياً لها. حيث أتصل مما قال:

---

(١) الأسلاف والمظاهير: هي مجموعتين تنقسم إليها القبيلة عند رحيلها، فمجموعة للنساء، وأخرى للرجال.

من شانك يابو ثمان رهاف　　نبنـي مـع القصـر عليّـه

فأجابته:

ما ريد القصر يابو نواف　　ولا ريد شوف «الحسينيه»[١]

أريد فوق أوضح غرياف[٢]　　ولاّ ردوم ربـاعيـه[٣]

وأريد مع زوعة الأسلاف　　نقطـف زهـر كـل قفـريـة[٤]

فهي ترفض القصر والبساتين بأشجارها ونخيلها. وتتوجد على الهودج وهو يقلّها من مكانٍ إلى آخر، مع السلف والمظاهير وهي تسعى وراء الربيع ومواطن الكلأ، قاطعة الفيافي والقفار، دون أن تقع أسيرة الرتابة والملل في مكانٍ واحد حتى لو كان قصراً منيفاً ذا أبراج. فهي لم تألف تلك الحياة. وكأنها تذكرنا بسيرة تلك البدوية[٥] التي تزوجها معاوية بن أبي سفيان وأسكنها في قصره، ثم سمعها تنشد:

لبيـت تخفـق الأريـاح فيـه　　أحب إلي من قصرٍ منيف

ولبـس عبـاءة وتقـرّ عينـي　　أحب إلي من لبس الشفوف

ولم يطل المقام بالشيخ سلطان الطيار ومن معه في منطقة الجوف إلاّ لسنين قليلة، حيث يمم وجهه من جديد إلى حيث كانت معركته السابقة ليواصلها من جديد، فقد كانت تأتيه المراسلات بطلبه والحاجة إليه، فتوجه إلى هناك وواصل رحلة جهاده، حتى أذن الله وأُعلن عن جلاء قوات الاحتلال الفرنسية في ١٧ أبريل عام ١٩٤٦م.

---

(١) الحسينية: تمور نخيل منطقة الجوف.

(٢) الجمل النشط.

(٣) الرباعية: الناقة ذات الأربع سنوات.

(٤) الأسلاف والمظاهير: هي مجموعتين تنقسم إليها القبيلة عند رحيلها، السلف للفرسان، والمظهور يكون به النساء والأطفال.

(٥) ميسون الكلبية.

لقد كانت رحلة جهاد مشرقة ومشرّفة، سطّر بها هذا البدوي المجاهد أروع المُثل هو ومن معه من المجاهدين على امتداد الوطن العربي من أمثال المهدي والمختار والحسيني والأطرش والجزائري وغيرهم.. وأضاؤوا الطريق للأجيال العربية وأناروا لها الدرب لتعبر، وكانوا هم الرواد الذين وضعوا اللبنات الأولى لبناء أمتهم.

وكان لكلٍ من هؤلاء الأبطال دائرة جهاد، فبعضهم كانت دائرة جهاده في السودان وآخرون في الجزائر أو ليبيا أو سوريا.. إلخ، أما الشيخ المجاهد سلطان الطيار فقد كانت دائرة جهاده في كل الجبهات، كما توضح شهادة جهاده الصادرة عن «رابطة المجاهدين العرب» والملحقة صورتها في هذا الكتاب.

فقد انطلق بجهاده من الحجاز مروراً بالأردن ثم سوريا، وكان له في العراق نشاط «وإن كان بسيطاً» كما كان من كبار المساهمين بالأموال والأسلحة التي كان يغنمها من الفرنسيين في دعم حركات التحرر في الأجزاء الأخرى من الوطن العربي، والتي كانت ترسل عبر مصر.

وقد حفظت سوريا وشعبها للشيخ سلطان الطيار دوره، وسجّلته في تاريخها كأحد أعظم مجاهديها.. ولا يزال اسمه ينير لوحة الشرف المعلّقة في مجلس الشعب السوري، والخاصة بزعماء الثورة، كما أطلق اسمه على إحدى المدارس هناك، وكذلك على مسجده في منطقة البطمي شرقي دمشق، وهي المنطقة التي أقطعت للشيخ سلطان الطيار فور استقلال سوريا «حيث كانت من أملاك والده قبل ذلك» وهي منطقة واسعة على طريق بغداد، ولايزال يملكها أبناؤه وأحفاده. والتي يقول فيها «عويد اللجه» يرحمه الله:

قلبـي مـن أقصـاه ينتلّـي تـل الـرشـا مـن مـلازيمـه

عسى الهماليل تنهلّي بفروع البطمي ركز غيمه
تمطر على ديار ربعلّي هل النواميس والشيمه

وبعد أن أمضى ومن معه عدة سنوات في دمشق تارة، وفي البطمي أو مدينة ضمير تارة أخرى، ممتعاً عينيه برؤية بلاد الشام وهي ترفل بحريتها كنتاج لرحلة جهاده ورفاقه الطويلة والتي لم تذهب سدى، عاد إلى المملكة العربية السعودية، مستقراً في مدينة جدّه لقربها من بيت الله الحرام في العام ١٩٦٧م.

وبقي إلى أن وافاه الأجل المحتوم في جدّة يوم الخميس ١٨ شعبان العام ١٣٩٩هـ، الموافق ١٩٧٩م تقريباً بعد أن دخل إلى مستشفى القوات المسلّحة «ويذكر أن الأطباء اكتشفوا وجود أربع رصاصات متفرقة في جسده رافقته إلى قبره شاهدةً على رحلة جهاده المباركة».

ودفن رحمه الله في المدينة المنورة في مقبرة شهداء البقيع إنفاذاً لوصيته.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]. وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «يعني الله عز وجل»: «**المجاهد في سبيل الله هو عليّ ضامن إن قبضته أورثته الجنة وإن رجعته رجعته بأجرٍ أو غنيمة**» أخرجه الترمذي.

وقد قال فيه أحد شعراء عنزة، من رفاق رحلته، متأثراً بغيابه واستقراره بجدة:

يا راكب اللي ما عليهن تهايا لا هن بكار ولا مشن مع ضعّنا

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

ليا مشن باللجّ ما هن ونايا ... ركّابهن ردّ الخبر ما يتونآ
تأخذ سلام من ظميري هدايا ... سلام للطيار مني معنّا
هو كيف حالك؟ يا حماة السبايا ... بأيام سجّات العرب «يوم كنّا»
ودّي بشوفك قبل قرب المنايا ... والله يردك يالفهد لوطنّا
اليوم ربعك غاديين لطايا ... ولا حدٍ ذكرلي نجعهم وين بنّا
غدوا ذهاب الملح وسط القرايا ... وإليّ ورا «حيفا» علومه تصلنا

وقد قيل فيه الكثير والكثير جداً من المراثي والتي يضيق المجال هنا عن حصرها رحمه الله رحمة واسعة هو وآباؤه، وجعل الجنة مثواهم أجمعين. ذلك قول الشاعر حربي الخالد الحسيني:

مرحوم شيخٍ بالمكارم لعب دور ... سلطان شيخ من الشيوخ العظيمة
أنا أشهد إنه دوم فاضل ومبرور ... ما خاض في درب الخطا والنميمه
يالله يا علام في كل مستور ... تغفر لشيخٍ ما حكم بالظليمه
وتجعل مقرّه عند رضوان والحور ... يسكن قصورٍ بالجناين مقيمه
من خلفته نواف ومحمد صقور ... أهل الموده والمزايا الرحيمه
نواف يزمي للمعادي كما الطور ... زيزوم سربه بالملاقي عديمه
يوم المعارك بين ربعه «وفاعور» ... يوم على «فاعور» راحت هزيمه
يوم إنتخى نواف بشهود وحضور ... راحت على محمود راعي الجريمه
حييت شيخٍ بالمهمات مصطور ... له عندنا نواف قدرٍ وقيمه
ومحمد اللّي باللوازم لنا سور ... أطلب وليّ العرش ربيّ يديمه
القرم أبو سلطان بالطيب مشهور ... شيخٍ فهيم من الشيوخ الحكيمه
من خلفّه ما مات للحين مذكور ... أحييت ذكره يا قوي العزيمه
من خلفته سلطان شهمٍ وممرور ... أخوات ثنيّه بالمراجل قديمه
عز الدخيل ليا نصاهم من الجور ... ليا صار يشكي من أمورٍ تضيمه

في حق من خاطب كليمه على الطور ... وحق الحرم والبيت وموسى كليمه
هذي شهادة حق ما قلتها زور ... مـا قلتهـا جنّـاي أجـر وغنيمـه
غير المودة وبالأجاويد مسرور ... اللي لهم في كل «وايل» حشيمه
وصلاة ربي عداد ما شعشع النور ... على الشفيع عداد برقه وغيمه

○ شهادات مما قيل في حق الشيخ سلطان لابد من ذكرها:

* رابطة المجاهدين العرب:

قضى هذا الشيخ المجاهد أكثر سنين حياته في ميدان الجهاد والشرف للذود عن كرامة وطهارة الأراضي العربية عامة والسورية خاصة فلم يترك معركة ضد الاستعمار الأجنبي إلاّ خاضها واشترك فيها باذلاً الغالي والنفيس والدم في سبيل بلاده ووطنه، اشترك في الثورة السورية عام ١٩٢٥م ضد الاستعمار الفرنسي، وخاض أكثر المعارك التي وقعت بين جيوش الافرنسي وبين الثوار السوريين مقدّماً لهم المال والرجال والسلاح الذي كان يحضره من الأردن والعراق. . وكان مثالاً للوطن الكبير بتقديمه المال والرجال والسلاح.

* سلطان باشا الأطرش:

كان سلطان الطيار المثل الذي يجب أن يُحتذى به لشجاعته وإخلاصه لعروبته.

* جريدة الشعب الأردنية:

لقد كان هذا المجاهد الكبير من الذين جاهدوا بأنفسهم وأموالهم ضد استعمار الفرنسي، وكانت له معهم جولات وصولات مع أبناء عشيرته الأكارم، وأبناء عمومته من العرب في كل من سوريا والأردن والعراق. .

وقد أعقب (يرحمه الله) من الأبناء: «**نواف ومحمد**».

أما الشيخ «نواف بن سلطان بن سطام الطيار» فقد رافق والده فترة طويلة من عمره، إلى أن انتقل للاستقرار في منطقة الجوف عقيب وفاة والده، وكان يرحمه الله مثالاً طيباً يحتذى في الحرص على أفراد قبيلة عنزة عامة، ويعود الفضل بعد الله له في إعادة تصحيح أوضاع بعض أفراد هذه القبيلة لدى الدوائر الرسمية.

وكان رحمه الله يردد دائماً ما معناه: نحن أسرة الطيار نعتز ونفتخر بأننا في قبيلتنا عنزة، نعتبر دم العنزي دماً لنا، وعرض العنزية عرضاً لنا، وصغيرهم ابناً لنا، ولم ينقل عنا التاريخ بأننا فزّعنا أو روّعنا عنزية غافلة في منامها، ولا يتّمنا لها طفلاً يرجو أباه، أو سفكنا دم عنزي، أو سلبنا له مالاً.

ونحن ولله الحمد ننفرد بأننا لم يتردد عنا منذ أكثر من ألف عام، أننا كنا طرفاً في جانب من جوانب النزاع بين عنزة فيما بينها، ولم نتصارع مع أبناء عمومتنا مع عنزة في سبيل مشيخة أو زعامة نروم ثباتها، بل إن أسلافنا في مراحل كثيرة كانوا يشجعون على انتشار هذه القبيلة في مواطن الكلأ بزعامة من يقودهم من أبطال القبيلة الذي سادوا بأفعالهم وأيمانهم وتشيخوا في فروعهم، بما لهم من فضل على هذه القبيلة ورجالها وحتى علينا نحن أبناء عمومتهم. ولم يثر أحد من أجدادنا في سبيل زعامة يخشى فواتها، بل إن ما ينقله تاريخنا هو أننا كنا نسعى دائماً لإصلاح ذات البين. وإذا لم نوفق كنا نتنحّى جانباً، ولا نشارك في صراع تسفك وتراق فيه دماء أبنائنا.

وهذا ما حفظ لنا مكانتنا في هذه القبيلة حتى اليوم. بل إننا في فترات الصراع المؤسفة خلال القرنين الماضيين بين بعض أفخاذ عنزة تنحينا

جانباً، ولم نعتمد في سبيل حماية أنفسنا، إلا على الله عز وجل ثم على أنفسنا طوال فترة صعبة مرت بها البادية إجمالاً، وكان أجدادنا لا يستنجدون بأحد من قبائلهم، حتى ذهب ذلك مثلاً في البادية حي يقال «غايب طيايره» لمن لا يستدعى عند الفزع بمعنى أن من حظر المعركة من الطيار قد كفى الغائب مؤنة القتال دون استدعائه. ومكننا الله عز وجل من فرض هيبتنا وهيبة من تبقّى معنا من «وِلد علي» بأيماننا وسواعدنا، ولم نزل بحمد الله ننظر لكل عنزي ذات النظرة، وله في قلوبنا ذات المكانة، ونربي أبناءنا وننشئهم على ذلك.

وبقي الشيخ نواف الطيار منافحاً عن أفراد قبيلته «بقدر ما مكنته ظروفه الصعبة»، باذلاً في سبيل ذلك جهده وصحته دون كلل، إلى أن وافاه الأجل المحتوم في مستشفى قوى الأمن في مدينة «الرياض» في السادس من شهر رمضان الكريم عام ١٤١٢هـ ودفن في مقبرة البقيع في المدينة المنورة إلى جوار المصطفى ﷺ وجوار والده يرحمه الله، وذلك بناء على وصيته، رحمه الله رحمةً واسعة، وأعقب محمد وسلطان وصالح.

وقد رثاه ابن أخيه «سلطان بن محمد بن سلطان الطيار» والذي كان قد غادر المستشفى وإتفق معه على العودة بعد ساعات، إلاّ أن القدر قد سبقه لموعده، وجاء رثاؤه بقصيدة بالفصحى حيث يقول فيها:

وعد لابنك أم أبيك الموعدا ... يا من دنوتَ وإذ أراك الأبعدا
ما كنت أحسب إذ تركتك باسماً ... أني أعود لتغسل وجنتيك يدا
هاجرت محمولاً لطيبة مسدلاً ... نعم الجوار ونعم الجار والبلدا
جاورت أحمد في البقيع وصحبه ... فطب بنومك لن يطول المرقدا
أوصى أبيك بدفنه في أرضها ... فتبعته وكأنكم في موعدا
ولقد جعلت مجرَباً لك قدوة ... حتى المآل فكان نعم المقتدا

يـا راقـدان بيثـرب وبقيعهـا غداً اللقاء وإن يطول الموعدا
أرخـى الآلـه عليكمـاً رحمـاتـه ونقاكما الثلج الطهور الأبردا
وسقاكما من حوضه وبجوده سحباً تهلّ على بقيع الغرقدا

كما رثاه هايل منصور الأيداء بقصيدة نبطية منها :

ما لوم يا عين الشقا ليه تبكين هليّ من الدمع المصفّى للاحزان
كل العرب مثلك على الشيخ باكين بدرٍ كسف واظلم سمانا ولا بان
مرحوم يا شيخ رحل يوم الاثنين سادس نهار الصوم من بعد شعبان
مرحوم يا نواف ريف المقلّين ريف الضعوف وريف مسني وجيعان
يصبر على الشدات بالعسر واللين لو شان وجه الوقت نواف ما شان
يا الله عسى أبونا بصف النبيين في جنة الفردوس يجزا بالاحسان
نسل الشهيد اللي رفع راية الدين عم الرسول اللي شعل نور الايمان
سلالة الأصحاب سبط الميامين وخير الدلايل عندنا شعر حسّان
مرحوم يا نسل الشيوخ القديمين ما قبلهم شيخ إلى دور عدنان
أقدم بيوت المشيخه والسلاطين نفخر بهم من قبلّ «صالح» و «كنعان»
مبيوح يا عقب الشيوخ المسمّين تاريخهم يدري به القاص والدان
من معركة «ذي قار» إلى دور هالحين ومن معركة «مؤته» إلى دور «سلطان»
لنا الفخر بطيور شلوى الشجيعين حمّاية الساقه بروغات الأذهان
طيايره دومٍ على الموت جسرين الى جا نهارٍ فيه رابح وخسران
في ساعةٍ يقضا بها الدين بالدين سدادها من بينهم روس غلمان
لخـو ثنيّـه يـرجحـنّ المـوازيـن مروي شباب السيف في كل ميدان
إليا صفقهم يودع الجمع جمعين شبل الزراج الى غشا الجو دخّان
نطلب له الرحمه وحنّا محازين عسى العوض بعده مواريث سلطان

وممن رثاه الشاعر عايد الدواس بقوله :

«البطمي» يبكي على راعيه ... يبكي على الشيخ نوافِ
ومشقّ «سمري» بعد يبكيه ... الشيخ حمّاي الأطرافي
شعيب «الضبعة» نشد عانيه: ... عنّا نهج ما به خلافي؟
بالجنه عسى الولي ياويه ... مرحوم يا زين الأوصافي
بسلامة عياله وعيال آخيه ... كلٍ ولد كاملٍ وافي
واللي من اللّه بعد نرجيه ... يحقق لهم كل الأهدافي
والشيخ محمد عواض آخيه ... حرٍ على راس مشرافي

وأما الشيخ «محمد بن سلطان الطيار»، فقد التحق في السلك العسكري منذ حداثة سنه، وتولّى الكثير من المهام العسكرية، وخدم قضية أمته في الكثير من المناسبات التي برز بها «ولعل من نماذج ذلك، قيامه بأسر حضيرة إسرائيلية كاملة لوحده عندما كان برتبة ملازم»، وتنقل بالرتب العسكرية إلى أن تقاعد برتبة «لواء» في الحرس الوطني السعودي، ويتولى الآن شؤون قبائله باقتدار أعانه الله وسدد خطاه. وله من الأبناء سلطان وعبدالعزيز وسطام وممدوح وخالد ونواف بن سلطان.

ومما هو جدير بالذكر عنه أنه لم يقفل باب بيته مطلقاً ليلاً أو نهاراً، وقد ثنى عليه في هذه السابقة كثيرٌ من الشعراء ومن مقتطفات ذلك:

الشاعر مسند بن جديع الرويلي يقول في قصيدة منها:

محمد أبو سلطان فتح لنا الدار ... سلام يا شيخٍ طيّب الكبد زاده
يجيه من كل الأقطار زوار ... ومن فضل ربي ما ذكر بإقتصاده
أبوه وجدّه نافلينٍ بالاذكار ... شيوخ الشيوخ أهل الصخا والقياده
إنشد هل التاريخ عن ماضٍ صار ... تلقى كلامي صادقٍ والإفاده
«أبو عنزة» يقرن الدار بالدار ... رد القبائل عن مرابع ذواده
الشور له وان زاحمونا بالاشوار ... ونلقى من الراي الجليل الرشاده

الحر ينجب من مواريثه احرار ليا طالع الصيده كفخ له وصاده

أما الاشرم السبيعي العنزي فيقول على وزن الهجيني :

ضيفوا على مجلس الطيار بـولاد تحمـى مسـاميـره
محمدٍ طيبه غدى به كار والحمـد للّـه كثـر خيـره
البـاب يشهـد مـع الاسـوار مشـــرّع دون تسكيـــره
من مبطي إنتم ذري واستار إلـى انهـا عميـت مطيـره

ومما يقول عبدالحميد الخريصي العنزي :

البـاب مفتـوح ولا هـو بمـردود ولا هي غريبه من مواريث الأجواد
من عزوة الطيار والهرج مسنود ما صار من دونه من العرب واكراد
مشكور فعل مجرب الخال وجدود من جود فعله دون صدقه وميعاد
جمايله حسن الدلايل لها شهود ذخر الصديق الوايلي عز وسناد

كذلك يقول الشاعر سلامه الحربي :

من يا جماعة سوى الطيار بابه بان
وحرمّها على نفسه ووصّى لا تصكونه
حلف وأقسم يمينٍ قاطعة ما يسكّر البيان
ولا له قصد غير إنه يريد الناس ياتونه
ما ركبّله جهازٍ يعرف ضيوفه ورا الجدران
وعلى شاشه يشوف اللي يدقّ الباب وشلونه
ونِعم طيار من وايل وأبو وايل وابن ويلان
شرع بابه ولا حارس وقف للناس من دونه
طيايره على وضح النقا من فايت الأزمان
تعزون العزيز ومن تحداكم تحدونه

رميتوا جموع يا رعدٍ زعج في حزة الميدان
وأغثتوا جموع يا برقٍ لمع للي يخيلونه
جبل حوران يظل أللي زبن ظله جبل حوران
تثّبت في قرار الأرض ثقيلٍ ثابته ركونه
يزين القول يا منصاه زان القول فيكم زان
علامه طلعة النادر يهزّ الريش بمتونه
لجميع شيوخنا مني تحية لخمسة الإخوان
تحير نفحها الكادي بدهن العود مدهونه
سلامٍ سلامٍ سلسلٍ يسيله سلسبيل لسان
تسلسل سيله السايل مسلسل سيل مضمونه
أنا أثني وعيني تشوف ولا أجحد لهم عرفان
صريح آصارح الطيّب وانا الحربي تعرفونه

ويقول سالم العنزي:

من قلّط الدعوى على غير حجّه ... مثل الذي يسري على غير منهاج
وانا دليلي يابن الاجواد سجّه ... تلقى الذي ما حاط في بابه سياج
وجهك لابو عناز يّمه توجه ... عند الذي بيته كما ورد هدّاج
يا رب فرج له ويا رب نجه ... يومن ربه صخرّه كل محتاج
مني لبو سلطان قول موجّه ... اللّه يديمك يا ذري كل من لاج

ومن بديع قول الشاعر فاضل الغشم الشمري مخاطباً الشيخ سلطان بن محمد الطيار، قوله:

ما اشتاق عاشق للثمان الذبّلي ... وما ناح ابو تمام حبٍ أوّلي
وما نقّضت بيض العذارى جعودها ... وما فاح مع هلّ الجديل قرنفلِ
وما استعطف الفاروق من بعد الهجا ... قولٍ ظهر فيه الحطيئة جرولِ

أو ما ارتقى شعر الفرزدق واعتلا ... فوقه جرير، وما اعترضه الأخطلِ
وما هبهبت نسمة ربيع حركت ... غصنٍ تغنّى فوق راسه بلبلِ
سلام ما هب الهوى ثم إمتزج ... مع نسمته شذى عبير الصندلِ
سلام يا سلطان سالم مقصده ... مضمون صدقه من خوافي كلكلِ
شرواك يا الطيار يدرك للمثل ... وبخوتك نعم الرفيق الأمثلِ
غلاك راسخ في ضميري مثلما ... بالكف ترسخ بالثبات الأنملِ
إقبل تحية صاحبٍ صان العهد ... أخو ولا هو بخوته متخلخلِ
أدركت يا بحر المكارم والذكى ... بالمعرفة نبراس علمٍ عيطلي
إن قارنوا صفو الرعيل وكابروا ... نجمك كسف كل النجوم الآفّلِ
منجوب من كنعان مرزي الندى ... ريف اليتامى والضعافي الكهّلِ
وإختامها صلوا على نور الهدى ... ما هلّ مدار السحاب الأفكلِ

ومما قال عبدالله بن دهيمش بن عبّار مخاطباً الشيخ سلطان بن محمد ابن سلطان الطيار:

نجل الشيوخ اللي تسلسل من أمّار ... من صلب أبو عنّاز شيخ السمية
جدّه بناله مجد من سور واجدار ... الساس ثابت والقواعد قويّه
سمعة اجدوده علمهم عمّ الأقطار ... والمرجلة والطيب ما هي حذيّه
وعساك تسلم يا ذري الضيف والجار ... اللّه يفكك من اسهوم المنيّه
شيخ وقديم وشيختك ما بها انكار ... لكم على كل الشيوخ أقدميّه
ومن ينكر الواقع نفيده بالأخبار ... عن جدكم بالكون ملحق خويّه
وزّع على «وايل» عذيّات الأثمار ... ويشهد على ما قلت غرس الوديه
«خيبر» ورثها جدّكم وأسس الدار ... ساسه عريق وعزوته «ولدعيّه
حكم عليها وحاط «خيبر» بالاسوار ... الوايلي راعي الكفوف النديه
مكارمه ما تنحصي حيثها كثار ... الجدّ «جعفر» والمعامق زكيّه

حامي على «عنّاز» في غلو الاسعار زبن الدخيل اللي حصل له جنيه
لكم بعرق المصطفى ساس واصهار والبيت الأول بالفخر هاشميه
على الفخر والعزّ سمّوه طيّار لبّـا نـدا ربّـه ونفسـه رضيّـه
وصلوا على اللي بالمخاليق مختار المصطفى الهادي رسول البريّه

***

أبو عنزة الشيخ المجاهد سلطان بن سطام الطيار أمير قبيلة ولد علي، توفي رحمه الله عام ١٣٩٩هـ الموافق ١٩٧٩م.

وهو سلطان بن سطام بن جضعان بن فندي بن زيد بن كنعان بن شعيل بن محمد بن غنيمان بن محمد بن ناصر بن عبدالعزيز بن ضويحي بن عبدالله بن فهد بن جاسر بن محمد بن عبدالعزيز بن محمد بن عبدالله بن عمير بن عبدالله بن عبدالعزيز «أبو عنزة أمير خيبر» بن عبدالله بن صالح بن محمد بن يعقوب بن أحمد «أبو أمراء خيبر» بن إسحاق بن أحمد بن سليمان بن محمد بن يوسف «أبو أمراء المدينة» بن جعفر «السيد» بن إبراهيم «الأعرابي» بن محمد «الأريس» بن محمد بن علي «الزينبي» بن عبدالله «الجواد» بن جعفر «الطيار» بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم.

بسم الله الرحمن الرحيم

رابطة المجاهدين السوريين

المرحوم الشيخ سلطان سلطام الطيار

شيخ عشيرة ولدعلي في سوريا

قضى هذا الشيخ المجاهد اكثر سنين حياته في ميدان الجهاد والشرف للزود عن كرامة وطهارة الاراضي العربية عامة والسورية خاصة فلم يترك معركة ضد الاستعمار الاجنبي الا خاضها واشترك فيها بازلاً الغالي والنفيس والدم في سبيل بلده ووطنه اشترك بالثورة السورية عام ١٩٢٥ ضد الاستعمار الافرنسي وخاض اكثر المعارك التي وقعت بين جيوش الافرنسي والمرتزقة وبين الثوار السوريين مقدماً لهم المال والسلاح الذي كان يحضره من الاردن والعراق

التحق بالثورة السورية في المنطقة الوسطى - حمص - دير عطية - قطيفه الجنك وكان مثالا للوطن الكبير بتقديمه المال والرجال والسلاح كما كان رحمه الله على اتصال دائم بزعماء الثورة السورية وعلى رأسهم سلطان باشا الاطرش الدكتور عبد الرحمن الشهبندر والدكتور امين رويحه والشيخ محمد حجاز الكيلاني هؤلاء الذين كان لهم اقوال كثيرة بكرم هذا المجاهد سلطان الطيار ابرزها ما قاله سلطان الاطرش

„كان سلطان الطيار المثل الذي يجب ان يحتذى به لشجاعته واخلاصه لعروبته ووطنه„

وثيقة تصور

الاسم الأمير الجواهر سلطان الطيار
اسم الأب الأمير سطام
الولادة ١٣٨٥ عشيرة ولد علي
وضعيه العائلية متأهل
دائرة جهاده كل الجبهات
اعطيت بتاريخ

وثيقة تصور

خاتمة

وهكذا . .

تناولنا تاريخ أسرة «الطيار» وقبائل «وِلد علي» وبعض أخبار قبائل «عنزة» . . بشكل موجز، فهو تاريخ أقل ما يقال عنه، أنه تاريخ ثري بالأمجاد ضارب في العراقة والقدم، لذلك فهو يحمّل أبناء هذه الأسرة مسؤولية عظيمة . . ويا لها من مسؤولية .

مسؤولية للحفاظ على امتداد تاريخهم وتواصله نقياً طاهراً، مترفعين عن كل ما يشين ويلطّخ صفحات ماضيهم النبيل ومستقبل أيامهم، والتي لا تزال بيضاء نقيّة من كل دنس، استلموا سجلاتها جيلاً بعد جيل من أجدادٍ أفذاذٍ ميامين سطّروا لهم فيها ما يحق لهم أن يفاخروا به، في حاضرهم ومستقبلهم مترسمين كل خلقٍ حميد وقيمٍ رفيعة، متجنبين كل نقيصة ورذيلة حريصين على حرمات الله .

كما أن عليهم مسؤولية أن يخطّوا في هذه الصفحات ما يشرّف أجيالهم القادمة أن تنقله عنهم . .

وقد تحرينا في كتابة هذه السيرة، الدقة والتمحيص متخذين المنهج التاريخي العلمي للبحث والتوثيق سبيلاً كلما أمكن ذلك، فهو كما أسلفنا تاريخ طويل ضارب القدم في أعماق التاريخ ومن الصعوبة بمكان أن نتناوله بتفصيله، لحرصنا على أن يكون منهجنا أقرب للمنهج التاريخي العلمي منه إلى السرد غير المستند إلى حقائق مرجعية علمية .

وقد برز هذا في تناول أول شخصية تكلمنا عنها، وهو الصحابي الجليل وابن عم رسول الله ﷺ جعفر «الطيار» ابن أبي طالب رضي الله عنه .

كما برز في تناولنا لملامح شخصية الصحابي الجليل عبدالله بن جعفر الطيار رضي الله عنه وأرضاه.

وبرز التوثيق التاريخي العلمي كذلك في سردنا لأحداث معركة صفين في أواخر عهد الخلافة الراشدة، ودور قبيلة عنزة فيها، وهي بداية العلاقة الأولى بين قبيلة عنزة وأسرة الطيار. حيث امتدت هذه العلاقة في فترة حكم الطيار للمدينة المنورة وأجزاء من الحجاز، ثم مرحلة حكم خيبر، وما تلا ذلك من نجوع بعض أسرة الطيار ومعهم بعض فروع عنزة وبعض القبائل الأخرى «فزارة ومزينة وبني خالد وغيرهم» إلى سيناء ومصر، واشتباكهم هناك عام ٦٥١هـ مع الأمير أقطاي والظاهر بيبرس في زمن المعزّ أيبك أول ملوك الترك حيث أنِف الطيار ومن معه من قبائل عنزة والقبائل العربية من حكم المماليك، إلا أن الطيار قتل على يد الظاهر بيبرس في أعقاب معركة «سخا» المشهورة في التاريخ المصري.

كما برز التوثيق العلمي في بحثنا لسيرة آخر شخصية تناولناها في هذه السلالة وهو الشيخ المجاهد سلطان بن سطام الطيار رحمه الله.

أما باقي شخصيات هذه الأسرة ممن تكلمنا عنهم فقد شاءت أقدارهم أن يعيشوا في فترةٍ من أحلك فترات التدوين والتوثيق في تاريخ العرب، وفي شبه الجزيرة العربية على وجه الدقة، فحرمنا ذلك من أن نتطرق للكثير من تاريخ هذه الأسرة مما لم يتصل حتى الآن «ولو أننا قد تناولنا جانباً من تاريخها في المدينة المنورة وخيبر في القرون الهجرية الأولى كما أشرنا، ثم في نجد والحجاز من عام ٨٥٠ وحتى ١١٠٠ للهجرة من خلال بعض المراجع المخطوطة على الرغم من ندرتها وقِلتها»، إلاّ أننا انتهجنا منهجاً حاولنا أن نتحرى الدقة فيه معتمدين على ما تواتر في صدور الرجال والرواة الموثوقين، وعلى ما وصلنا من قصائد شعرية

متواترة، وهذا بلاشك يعتبر أداة مهمة من أدوات البحث التاريخي العلمي لدى الباحثين، متجنبين ما قد يعتبر من المبالغات النقلية مما رفض اعتمادها وإيرادها الشيخ محمد بن سلطان الطيار لدى إطلاعي له على مسودة الكتاب حيث تم حذف الكثير مما رآه مبالغاً فيه ويفتقر للمرجعية التوثيقية.

وقد انتهجنا في سيرة الشيخ كنعان الطيار رحمه الله المنهج القصصي متوثقين مما جاء في سيرته من الرواة كبار السن ومن خلال القصائد المتواترة عنه. وذلك لإضفاء جوٍ من التشويق في مادة هذا الكتاب وإثراء مادته بسيرة فارس من فرسان البادية العربية المعدودين، وحتى نوضح جوانب شخصيته التي طالما كانت محل سؤال ونقاش في منتديات أبناء البادية ومجالسهم، مؤكدين أن ما ورد في هذا الكتاب عنه يرحمه الله لا يشكّل إلاّ موجزاً بسيطاً عن سيرته.

وما أشرنا إليه بخصوص سيرة الشيخ كنعان الطيار ينطبق على سيرة حفيده الشيخ صالح الطيار، وكذلك الشيخ سطام الطيار حيث تم تناول سيرتيهما بكثير من الإيجاز والاختصار وحذفت الكثير من الروايات المتناقلة عن حياتيهما لما قد ينظر له على أنه مبالغات نقلية.

كما تم اختصار الجانب التاريخي لقبائل عنزة «وقبائل ولِد علي محل بحثنا» لحرصنا على عدم تناول ما فيه إثارة الحساسية التاريخية والتي لا تخفى على فهم القارئ اللبيب.

وتم تناول هذا الموضوع بالرجوع إلى كبار مؤرخي الجزيرة العربية مما عاصروا تلك الأحداث ودونوها في مخطوطاتهم وكتبهم من أمثال ابن بسام، والفاخري، والعصامي يرحمهم الله.

وقد أردت من إيراد ذلك أن أعكس للقارئ الكريم نعمة الأمن الذي

تعيشه بلادنا أدامه الله علينا . على أنني اعترف أنني مسبوق في هذا حيث قام بعض الأخوة المؤلفين بتناول تلك الأحداث .

وهذه السيرة التاريخية المشرقة لهذه الأسرة وهذه القبيلة ستبقى إن شاء الله متواصلة ، بإنتظار ما يزيدها إشراقاً وتشريفاً في مستقبلها إن شاء الله . . والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم .

***

قائمة بأهم المراجع

○ أولاً: المراجع العربية:

١- ابن الأثير «الكامل في التاريخ»، مراجعة الدكتور محمد الدقاق، بيروت: دار الكتب العربية.

٢- ابن الأثير «أسد الغابة في معرفة الصحابة»، كتاب الشعب.

٣- ابن حنبل «فضائل الصحابة»، تحقيق: وصي الله بن محمد عباس، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي.

٤- ابن حنبل «المسند»، أحمد محمد شاكر، دار المعارف للطباعة والنشر، ١٩٤٦م-١٣٦٥هـ.

٥- ابن خلدون «المقدمة» تحقيق: درويش الجويدي، بيروت: المكتبة العصرية.

٦- ابن سعد «الطبقات الكبرى»، دار بيروت، ودار صادر للطباعة.

٧- ابن قدامة، موفق الدين عبدالله «التبيين في أنساب القرشيين». مكتبة النهضة.

٨- ابن عبدالبر، يوسف عبدالله «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»، تحقيق: علي البجاوي، بيروت: دار الجيل.

٩- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد «العقد الفريد». بيروت: دار الكتاب العربي.

١٠- ابن هاشم «السيرة النبوية». مؤسسة علوم القرآن.

١١- د. أحمد شلبي «موسعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية»، جـ٧، ط ٢، القاهرة: دار النهضة ١٩٨٢م.

١٢- أحمد وصفي زكريا «عشائر الشام»، ط ٢، دمشق: دار الفكر ١٩٨٣م.
١٣- البنا، أحمد عبدالرحمن «الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد» القاهرة: دار الشهاب.
١٤- الترمذي «الجامع الصحيح»، تحقيق: كمال الحوت، بيروت: دار الكتب.
١٥- الجزيري، عبدالقادر «الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة».
١٦- حسين بن غنّام «تاريخ نجد»، تحقيق: ناصر الدين الأسد، القاهرة: دار الشروق، الطبعة الرابعة ١٩٩٤م.
١٧- حمد الجاسر «أصول الخيل العربية الأصيلة»، الرياض: دار اليمامة ١٤١٥هـ.
١٨- حيدر أحمد الشهابي «لبنان في عهد الأمراء الشهابيين»، بيروت: ١٩٢٣م.
١٩- خالد أحمد خالد «خلفاء الرسول»، القاهرة: الطبعة الثامنة.
٢٠- د. سليمان عبيدات «التطور الحضاري لقضاء بني كنانه»، عمّان: جمعية عمال المطابع ١٩٨٤م.
٢١- الطبراني، سليمان بن أحمد «المعجم الكبير»، تحقيق: عبدالمجيد السلفي، ط ٢.
٢٢- عارف أحمد عبدالغني «تاريخ أمراء المدينة المنورة»، دمشق: دار كنان.
٢٣- د. عبدالباسط بدر «التاريخ الشامل للمدينة المنورة»، المدينة المنورة: الطبعة الأولى ١٩٩٣م.
٢٤- د. عبدالجليل التميمي «الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد

العثماني»، تونس: مركز البحوث والدراسات عن الولايات العربية في العهد العثماني ١٩٨٤م.
٢٥- د. عبدالرحمن اللامي الطائي «المنتخب في ذكر أنساب قبائل العرب»، تحقيق: د. إبراهيم الزيد.
٢٦- عبدالله بن دهيمش بن عبّار «أصدق الدلائل في أنساب بني وائل» الرياض: سفير، الطبعة الثالثة ١٩٩٤م.
٢٧- عبدالله بن دهيمش بن عبّار «قطوف الأزهار»، الرياض: الطبعة الثانية ١٩٩١م.
٢٨- عبدالله بن دهيمش بن عبّار «قطرات من الشعر الشعبي»، الرياض: ١٤١٣هـ.
٢٩- عثمان بن بشر «عنوان المجد في تاريخ نجد»، القاهرة: دار بنه.
٣٠- القلقشندي، أبي العباس أحمد بن علي «قلائد الجمان في التعريف بقبائل الزمان»، تحقيق: الأبياري، بيروت: دار الكتاب اللبناني.
٣١- القلقشندي، أبي العباس أحمد بن علي «نهاية الإرب في معرفة أنساب العرب»، بغداد: مطبعة دار النجاح ١٩٥٨م.
٣٢- محمد الطيب «موسوعة القبائل العربية»، القاهرة: دار الفكر العربي ١٤١٧هـ.
٣٣- محمد بن عمر الفاخري «الأخبار النجدية»، تحقيق: عبدالله الشبل.
٣٤- محمود شلبي «حياة جعفر بن أبي طالب الطيار»، بيروت: دار الجبل.
٣٥- محمد البسام «الدرر المفاخر».
٣٦- محمد أحمد جاد المولى وآخرون «قصص العرب»، بيروت: دار الجبل.
٣٧- د. مسعود ظاهر «المشرق العربي المعاصر من البداوة إلى الدولة الحديثة»، بيروت: معهد الإنماء العربي ١٩٨٦م.

٣٨- د. محيى الدين السفرجلاني «تاريخ الثورة السورية»، دمشق: دار اليقظة العربية.
٣٩- المقريزي، أحمد بن علي «البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب»، القاهرة: المطبعة المحمودية.
٤٠- المقريزي، أحمد بن علي «امتاع الأسماع»، شرح: محمود محمد شاكر، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف ١٩٤١م.
٤١- المسعودي، علي بن اللحسين «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، بيروت: دار الأندلس.
٤٢- المنقري، نصر بن مزاحم «وقعة صفين»، تحقيق: عبدالسلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي ١٤٠١هـ.
٤٣- الهندي، علاء الدين علي المتقي «كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال» ضبط الشيخ بكري حياني، حلب: مطبعة الثقافة.
٤٤- الهيثمي، الحافظ نور الدين علي «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد»، بيروت: دار الكتاب العربي.
٤٥- الوكيل، محمد السيد «جولة في عصر الخلفاء الراشدين»، جدّه: ط ٤، دار المجتمع.

○ ثانياً: المخطوطات:

٤٦- ابن عتبه، أحمد الحسيني «عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب»، لجنة إحياء التراث، بيروت.
٤٧- عبدالله ابن بسام «تحفة المشتاق من أخبار نجد والحجاز والعراق» تاريخ منقول بخط اليد عن المخطوط الأصلي.
٤٨- محمد بن أحمد بن عميد الدين الحسيني «بحر الأنساب» مخطوط، جامعة الملك سعود.

٤٩- محمد بن محمد المرتضى الزبيدي «الروض المعطار في نسب السادة آل جعفر الطيار».

○ ثالثاً: المراجع الأجنبية:

١- جون لويس بيركات (Burckhart) «رحلات في بلاد العرب»، لندن: ١٨٢٩م.
٢- جون لويس بيركهارت (Burckhart) «ملاحظات حول البدو الوهابيين» ترجمة محمد الأسيوطي، بيروت: دار سويدان ١٩٩٥م.
٣- جان سوبلان (Jean Soublint) «لاسكاريس العرب»، مذكرات ووثائق مفرج عنها، ترجمة: فريد جحا، دمشق: دار طلاس ١٩٨٧م.
٤- داوتي (Charles M. Doughty) «رحلة في الصحراء العربية»، نيويورك: ١٩٢٣م.
٥- فاسيلييف (Faseeleiv) «تاريخ السعودية»، موسكو: دار التقدم ١٩٨٦م
٦- موزيل (Alois Musil) «صحراء العرب»، نيويورك: جمعية الجغرافيين الأمريكيين ١٩٢٧م.
٧- نيبور (Neibuhr, C.) «رحلة عبر بلاد العرب»، نقله للإنجليزية هيرون (Heron)، أدنبره: ١٧٢٩م.

***

الفهـــــرس

الموضـــــوع	الصفحة
○ الاهـــــداء	٣
○ كلمة المؤلف	٥
○ المقـــدمـــة	٩
○ الفصل الأول: القرون الهجرية الأولى	١٧
* أولاً : نسب أسرة الطيار	١٩
* ثانياً : جعفر (الطيار) بن أبي طالب بن عبدالمطلب	٢١
* ثالثاً : أبناء جعفر الطيار وقبيلة عنزة في معركة صفين (تاريخ أسرة الطيار وقبيلة عنزة في نهاية الخلافة الراشدة)	٢٩
* رابعاً : المدينة المنورة خلال حكم أسرة الطيار	٤١
* خامساً : في ظلال خيبر : ..... (التحام أبدي بين قبيلة عنزة والطيار «أبو عنزة»)	٥٧
○ الفصل الثاني: القرون الهجرية الوسطى	٦٣
* أولاً : الطيار يقود قبائل عنزة في نجد والحجاز	٦٥
* ثانياً : سيرة الشيخ كنعان الطيّار	٧٣
* ثالثاً : امتداد قبائل عنزة شمالاً	١٠٣
* رابعاً : قبائل عنزة بعيون غربية عام ١٨٠٩م ..... (الرحالة السويسري بيركهارت)	١١٤

○ الفصل الثالث: قبائل ولد علي ١٣٣

* أولاً : أقسام قبائل ولد علي ١٣٥

* ثانياً : الامتداد الجغرافي لقبائل ولد علي ١٥٤

* ثالثاً : جانب من تاريخ قبائل ولد علي ١٥٨

* رابعاً : الطيار في بوداي الشام والعراق ١٦٨

(١) الشيخ صالح بن زيد الطيار ١٧٠

(٢) الشيخ سطّام الطيار ١٨٠

(٣) الشيخ سلطان بن سطّام الطيار) ١٩٢

(سيرة مجاهد)

○ الخاتمة ٢٤١

○ قائمة المراجع ٢٤٥

○ الفهرس ٢٥١

***

المؤلف في سطور

هو عبدالله بن دهيمش بن عبار بن حوران بن دبوس بن عيد المعنى من الخضر من الحناتيش من المقرن من ضنا فريض من الولد من القدعان من ضنا عبيد من بشر من عنزة .

صدر للمؤلف:

١ - حنين الشوق .
٢ - ديوان الوائلي أربعة أجزاء .
٣ - أصدق الدلائل في انساب بني وائل .
٤ - قطوف الأزهار المجموعة الكاملة أربعة أجزاء .
٥ - لقطات شعبية .
٦ - قطرات من الشعر الشعبي .
٧ - من سوالف التعاليل .
٨ - موجز تاريخ أسرة الطيار وهو هذا الكتاب .

* وله مصنفات تحت الأعداد .
* للمؤلف مشاركات بالاذاعة والتلفزيون والصحافة المحلية .

عنوان المؤلف للمراسلة

الرياض : ص . ب : ٨٥١٧٨ رمز البريد : ١١٦٩١

مكتبة المعارف
ردمك : ٠ - ٦٠٨ - ٣٤ - ٩٩٦٠